دولة الإسلام فى الأندلس

عصر الموحـــدين

الجـــزء الخامس

محمـــد عبد الله عنـــان

دولة الإسلام فى الأندلس

عصر الموحدين

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

تناولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاهلها ومؤسسها يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦ م) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيها وإمامها المهدى ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن على ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفى هـذا القسم الثانى من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين فى المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثانى خلفائها ، أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣م) ، حتى انحلالها وسقوطها فى عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبى دبوس ، وذلك فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وهى حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهى حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء فى المغرب أو الأندلس .

وبالرغم من أن الأندلس لم تكن فى ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوى والحضارى، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعها مع الدول النصرانية الإسبانية ، فى هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضينا فى استعراضه فى ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة الهودية المتوكلية ، فى شرقى الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقرى محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، فى هذه الفترة المدلهمة من تاريخها ، من النوائب والمحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التى أذكت لوعة الشعر الأندلسى ، وأملت على أبى الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغرُّ بطيب العيش إنسان

وراعينا فى سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، أن تبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادرها العربية والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور التاريخ الأندلسى ، التى استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان.

وقد عنينا فى كل من عصرى المرابطين والموحدين حسبما نوهنا فى مقدمة الكتاب ، أن نتحدث فى نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ، وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب ، عما يخص العصر المرابطى من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث فى خاتمة هذا القسم ، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ، يستوعب المجلدات ، وهو ليس فى الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية ، التى يقتضى استعراض مراحلها العظيمة الوضاءة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد ببذلها.

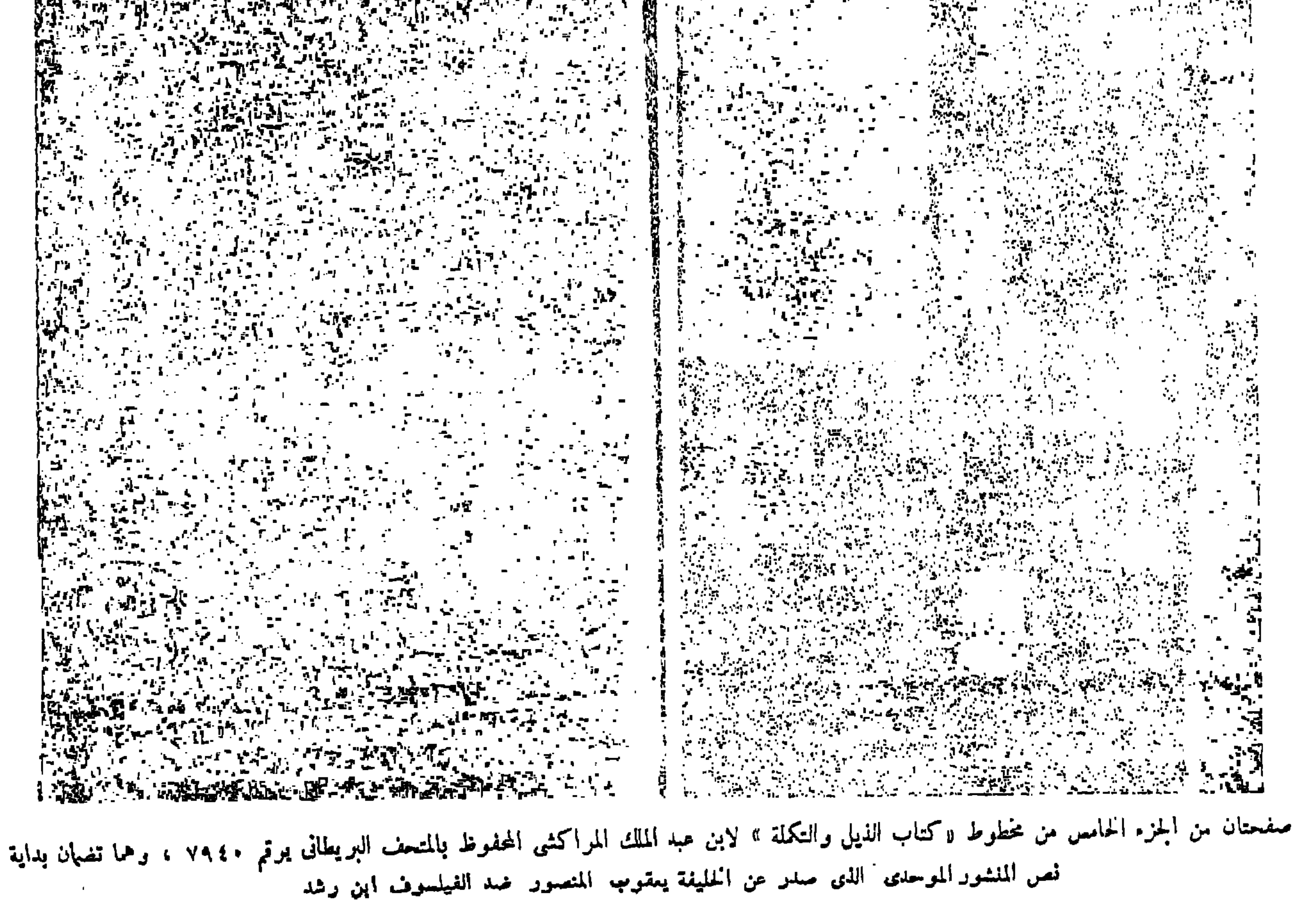
وعنينا فى هذا القسم أيضاً — عصر الموحدين — بتقديم طائفة من الخرائط والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التى شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسبما أشرنا إلى ذلك فى مقدمة الكتاب وفيها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التى مازالت قائمة حتى يومنا ، وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخيرالدا) لؤلؤة إشبيلية الأثرية .

ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام الطويلة فى ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات فى طلب المصادر الأصيلة واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها — نرجو الله بعد ذلك كله ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الجليلة التى اتخذناها شعاراً لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاما ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، من جهود مضنية فى سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى.

القاهرة فى : جمادى الأولى سنة ١٣٨٤
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤

محمد عبد الله عنان

صفحتان من مخطوط كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » لابن صاحب الصلاة ، وهو المحفوظ بالمكتبة البودلية بأكسفورد برقم ١٧٥٨
(فهرس المخطوطات الشرقية)



صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط « كتاب الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي المحفوظ بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وهما تضمان بداية نص المنشور الموحدي الذي صدر عن الخليفة يعقوب المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد

الدولة الموحدية الكبرى
عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن بن على
فى سنة ٥٥٨ هـ
المحيط الأطلنطى
البحر المتوسط
فرنسا
قشتالة
أراجون
قورسقة
سردانية
صقلية
بحر الأدرياتيك
إيطاليا
الدولة البيزنطية
إقريطش
مالطة
قوصرة
تونس
طرابلس
برقة
فزان
صحراء لوبيه
الجزائر
وهران
بجاية
بونة
قسنطينة
القيروان
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
جربة
تاهرت
تلمسان
فاس
مكناسة
سلا
مراكش
تينملل
سجلماسة
درعة
ماسة
السوس الأقصى
جزر الكنارى
جزولة
جدالة
موريتانيا
لمتونة
مسوفة
قبائل صنهاجة الكبرى
بلاد القبلة
قبائل لمطة
بلاد السودان
الطوارق
تنبكتو
جاو
مملكة غانة
غانة
مملكة مالى
مالى

الكتاب السادس

عصر الخليفة ابى يعقوب يوسف

الفصل الأول

عصر الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبى سعيد والى قرطبة والتوجس منه . مسير السيد أبى حفص إليه . اللقاء بين الأخوين فى جبل الفتح . عود التفاهم والصفا . رواية أخرى عن بيعة أبى يعقوب يوسف . ولاية السيد أبى حفص للوزارة . الثورة فى غمارة وإخمادها . حملة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدية جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبى حفص . مسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندوجر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . مسير الموحدين إلى مرسية . نزولهم فى فحص الجلاب . قدوم ابن مردنيش فى قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرامها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . مسير الموحدين فى أثره . تخريبهم لأحواز مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبى يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غمارة وإخمادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة فى ولاية مرسية . عود القوات الموحدية إلى الأندلس . عود السيد أبى حفص إلى مراكش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التى نظمت لذلك . المآدب والصلات . تعيين ولاة الأندلس . اتخاذ الخليفة العلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق فى أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غمارة واستفحالها . مسير القوات الموحدية لإخمادها وفشلها فى ذلك . مسير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منازلة الثوار فى جبال غمارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراكش . رسالة الفتح . الثورة فى جبل تاسررت وإخمادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكيز وأطماعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمحاصرة أشبونة . مناعتها وتفانى المسلمين فى الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلم الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى المدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شنترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتخريبها . جيرالدو سمبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجالة . استيلاؤه على قاصرش وحصون منتانجش وشربه وجلمانية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غمارة . تجديد بيعة الخليفة وتعليله . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة فى ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبى إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادى شنيل . مسير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه فى تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طبيرة . مقدم فرناندو ردريجس إلى إشبيلية وطلبه محالفة الموحدين . سفره إلى مراكش وتعاهده مع الخليفة على الإخلاص فى محالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المنافسة بينه وبين ألفونسو هنريكيز . تعريف الرواية الإسلامية به . معاونة الموحدين له فى مقاتلة صاحب طليطلة .

لما توفى الخليفة عبد المؤمن بن على بمحلته بثغر سلا فى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) خلفه على الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه فى يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[١] . وكان الخليفة الجديد عند ولايته فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بتينملل فى الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣هـ ، وأمه حرة هى زينب بنت الفقيه القاضى موسى بن سليمان الضرير التينمللى[٢] من أصحاب خمسين . ولما كملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحثهم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينملل ، حيث ووری إلى جانب إمامه المهدى ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبى يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن على ، والسيد أبو محمد والى بجاية ، والسيد أبو سعيد والى قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينملل بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفى غير بعيد وذلك فى أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والى بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكتب الخليفة تتردد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر فى هذا التردد والتسويف نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية فى حاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدركته

---

(١) وذلك فى الفصل الرابع من الكتاب الثالث (ص ٣٩٤) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ ، وروض القرطاس ص ١٢٤ ، ويسمى والدة أبى يعقوب عائشة ، والحلل الموشية ص ١٠٢ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ، (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى ، لوحة ٢٨٩)

المنية فى الطريق (سنة ٥٦٠ هـ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تخلف السيد أبى سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوجوده فى رياسة الأندلس ، الشطر الثانى من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه بها من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان ؛ ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبوعبدالله ابن أبى إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبى حفص ، وأبوالربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارض السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابلته إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراكش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القدوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعتزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه فى جبل الفتح (جبل طارق) . فغادر مراكش فى فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ فى جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبى حفص ، وأبو يعقوب بن يخيت ، وإسحق بن جامع ، ويوسف بن واتودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدراى بن وزير ، وابن المختار صاحب لبلة ، وجماعة من أشياخ لمتونة ومسوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الجند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبوحفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة يخطره بمسيره إلى رؤيته ، وبأن يكون اللقاء بينهما فى جبل الفتح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عبد الملك بن عياش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بقية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفى اليوم التالى لوصول السيد أبى حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبى سعيد فى خاصته وأشياخه إلى جبل الفتح فى انتظار أخيه ، فعبر السيد أبوحفص وصحبه البحر فى نفس اليوم إلى جبل الفتح . ويقول لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن جملة الوافدين ، أولا وآخرا ، إن اجتماع الأميرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البنود ، والسرور بالورود . وانجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحافظ ابن الجد ، والقاضى أبو بكر

الغافقى ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد فى قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت فى السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ماحدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوما ، أغدقت فيها « الأعطيات والبركات والكسى » . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرفت الوفود ، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل فى صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش ، فتلقاهما أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة ، وكان اجتماعا بهجاً ، ساده البشر والحبور ، وكان وصول السيد أبى حفص وأخيه السيد أبى سعيد إلى مراكش فى أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم . وهكذا تم التفاهم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ماكان يحيط بموقف السيد أبى سعيد من التوجس والإرجاف[1] .

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبى يعقوب يوسف وبيعته ، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ماذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الشأن[2] . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التى عقدت لأبى يعقوب عقب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشياخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرف الجيوش التى كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس فى طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحى ، ما عدا قرطبة التى كانت لنظر

---

(١) لخصنا ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لوحات ٤٨ إلى ٥٧ ، وفى المطبوع ص ٢٦٨ — ٢٥٠ وأضربنا عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع فى ذلك أيضاً « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يلخص كذلك عن ابن صاحب الصلاة (ص ٥٩ — ٦٢).

(٢) الأول فى كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٤ ، والثانى فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٤٥ . وفى المطبوع ص ٢٣١

أخيه السيد أبى سعيد عثمان ، وبجاية التى كانت لنظر أخيه السيد أبى محمد عبدالله (١). وفى سنة ٥٥٩ هـ وفد عليه بأخوالة السيد أبو سعيد ، والسيد أبو عبد الله ، كل فى أشياخ إمارته ، طائعين تائبين ، وقدما إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخى الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويع بيعة الجماعة واتفقت الأمة على بيعته فى اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمير المؤمنين ، بعد أن كان يتسمى بالأمير (١) .

وتولى السيد أبو حفص منذ البداية شئون الحجابة لأخيه السيد أبى يعقوب « على معنى الوزارة والإمارة » بتنفيذ الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ، على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبدالمؤمن من تولى شئون وزارته . والظاهر مما تؤكده لنا الرواية من أن السيد أبا حفص كان يزاول سلطته عن رضى من أخيه السيد أبى يعقوب ، وأن علائق الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن السيد أبا حفص ، كان فى منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة الفعلى ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبى يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان الوزير إدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدى ، يمثل بين أيديهما لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدى دوره فى تنظيم الصلة بين الأميرين ، وفى التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة (٢) . بيد أن السيد أبا حفص لم يمكث فى منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ، وانفرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع (٣) .

وفى بداية عهد أبى يعقوب فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وقعت ثورة محلية فى منطقة غمارة ، بزعامة مرزدغ الغمارى الصنهاجى من صنهاجة مفتاح ، فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة .

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٨ ب وفى المطبوع ص ٢٣٧ و ٢٣٨) ، وكذلك البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٧٦ ا ، والمعجب وفى المطبوع ص ٢٨٥ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضى تاودا ، على مقربة من فاس ، وعاث فيها وقتل كثيراً من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفى رواية البيذق أن الموحدين قاتلوا مزيزدغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهنالك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراكش[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التى جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبى سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبى سعيد بن الحسن ، وأبى عبد الله بن يوسف ، وسارت توا إلى إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصارى من أهل شنترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأفنوا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وماكاد الموحدون يستريحون قليلا ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهنالك التقوا فى وادى « لك » القريب منها بجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين ينعتهم مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلى فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافترقا دون حسم ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراكش ، ووصفا ما لقيناه فى القتال من هول ومشقة ، وطلبا العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز فى الحال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراكش فى قواته ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان والى قرطبة ، فى أوائل شهر رمضان ، وأسرع فى السير وعبر البحر ، ووصل بجموعه إلى إشبيلية ، وهنالك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأى على محاربة ابن مردنيش فى عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة[2] .

---

(١) راجع أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٥٧ أ و ٥٨ أ ، وفى المطبوع ص ٢٧٠

وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية فى أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ ، وسارت نحو الشمال الشرقى معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوجر ، وهى من معاقل ابن مردنيش التى تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها فى الحال عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان . وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على كثير من السبى والغنائم . ثم حشد السيد أبو حفص صفوة جنده من الموحدين والعرب وسار من أندوجر جنوباً ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجنده تعيث فى تلك المنطقة ، وتنتزع الأقوات وتستاق الماشية ، وهنالك على مقربة من بسطة وافته حشود غرناطة ومنهم فرقة من الرماة . وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، مارا بحصن باج أو بلش[1] وهو من أهم معاقل ابن مردنيش فى تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفى وأصحابه بالأمان ، ووضعت به حامية موحدية[2] .

وكان محمد بن سعد بن مردنيش أثناء ذلك قد حشد قواته ، ومنها جمع كبير من النصارى ، وخرج من مرسية يزمع اعتراض الموحدين عند لورقة ، ويحول دون سلوكهم منها إلى مرسية . فلما رأى الموحدون صعوبة اختراق هذا الطريق الجبلى الوعر تحولوا إلى عرتف لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفندون » وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أخصب بقاع هذه المنطقة ، ثم اخترقوا السهل نحو مرتلية . وهذا ما ورد فى خطاب الفتح الذى أرسل فيما بعد إلى مراكش . ولكن البيذق يقول لنا بالعكس إن الموحدين علوا على لورقة ، وقرطاجنة وبلش ، وأخذ أهلها ، وأن ابن مردنيش حينما قدم إلى لورقة كان بها الموحدون[3] .

وكان ابن مردنيش فى تلك الأثناء قد ارتد بجنده نحو مرسية من الطريق الجبلى . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذى الحجة سنة ٥٦٠هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤م) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بضعة أميال منها ، ونزلوا

---

(١) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

(٢) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية فى خطاب الفتح الذى أرسل إلى مراكش بعد موقعة فحص الجلاب ونقله إلينا ابن صاحب الصلاة وسيأتى على ذكره .

(٣) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٦

بموضع فيه يعرف « بفحص الجلاّب » . وهنالك أشرف ابن مردنيش بقواته وقبائلهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وجدميوه وباقى القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بنى هلال ورياح والجشميين والرعينيين وحرس الأمير الأسود . ويبدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثنى عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هى التى كانت تحت إمرة الشيخين أبى سعيد وأبى عبد الله ، وثمانية آلاف هى جملة الحملة التى عبر بها السيد أبو حفص وأخوه . وأما جيش ابن مردنيش فلم تذكر لنا الرواية جملته ، ولكنها تقدر من كان به من النصارى المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل[1] .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد فى سبيل الله . وبدأ ابن مردنيش الهجوم فانقضت قواته أولا على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروعه ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين فى النهاية ، ففتكوا بجيش مردنيش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط فى الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنيش فى فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل ففر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بداخلها . وفى صباح اليوم التالى الثامن من شهر ذى الحجة (١٦ أكتوبر) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحوازها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنيش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبى يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبى الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس[2] .

---

(١) نشرنا فى الفصل الثانى خريطة لمملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الغزوة الموحدية لأندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٨ ا إلى لوحة ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذى أرسل بالفتح إلى مراكش (لوحة ٦٠ ب إلى لوحة ٦٣ ا) =

وكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التى أصابت ابن مردنيش، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهيار سلطانه فى شرقى الأندلس .

وحدث فى مراكش خلال ذلك أعنى فى عام ٥٦٠ ، وفى أثناء غياب السيد أبى حفص بالأندلس ، حدث هام ، هو تولى الخليفة أبى يعقوب يوسف لسلطانه المباشر ، واختصاصه للوزير أبى العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشئون وتقريبه إياه ، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين ، فى مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشبيلى ، وأبدى فى منصبه كفاية وغيرة ونزاهة ، وبذل فى تصريف الأمور وإقامة العدل ، وتوطيد السكينة والأمن ، جهوداً مشكورة ، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ « يسير حيث شاء من بلاد العدوة فى طرقها من جبلها وسهلها آمناً فى نفسه وماله لا يخاف إلا الله » . وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به ، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين ، يفتديهم بماله ، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء ، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين ، وعلى طلبة الحضر الوافدين إلى العاصمة ، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنة ، وأنفقها فى وجوهها المشروعة[1] .

وحدث فى هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غمارة ، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منغفاد . فخرج إليهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، فى حملة من الموحدين ، سارت إلى جبال غمارة ، وضيقت على الثوار ، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين ، معلنين للطاعة والخضوع[2] . بيد أنه كان ، كما سنرى ، خضوعاً خادعاً موقتاً .

— ٢ —

على أثر انتصار الموحدين فى موقعة فحص الجلاب ، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، بوضع حاميات موحدية فى الأماكن المفتوحة ، وتنظيم حكمها ،

= وتراجع أخبار موقعة فحص الجلاب أيضاً فى روض القرطاس ص ١٣٧ ، والبيان المغرب — القسم الثالث — ص ٦٤ و ٦٥ ، وكذلك فى Huici Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227
M. G. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Ibars : Valencia Arabe, p. 541

(١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ا وفى المطبوع ص ٢٨٥ و ٢٨٦ و ب ، وكذلك البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٦٥ ، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة » .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، و « المن بالإمامة » لوحة ٧٢ ا .

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، فى القوات الموحدية ، عائدين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة . تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه فى الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، عائداً إلى حضرة مراكش ، فوصل إليها فى ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفا ضافياً لاحتفال الخليفة أبى يعقوب باستقبال أخيه فى ظاهر مراكش ، وما تلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلات . ولابد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولا كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانيا كنموذج لبعض نواحى الحياة الاجتماعية الرسمية ، التى يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتّب كتائبه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراكش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطفت الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحملة الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء إدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدثه ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه فى الساحة التى كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوبت الخيل بالحملات والحراب والطبول . ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ،والتقيا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العتيق فى أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعا به . وفى اليوم التالى ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوما . ثم وزعت الكسى من العمائم والبرانس والأكسية . وتسلم كل فارس طقما كاملا من الكساء يتكون من عفارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية المالية ، من الذهب والدراهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، والكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول فى قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم [1] .

وكان أول ما عنى به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ، هو النظر فى تعين الولاة . وكانت بجاية وإشبيلية فى مقدمة الولايات التى خلت رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبى حفص ، أن يعين لولاية بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة فى فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم إسماعيل، أحد أصحاب المهدى العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان، وهو من أكابر علماء الدعوة المهدية ، فغادر مراكش فى صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية فى أول شهر رجب . وماكاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شنترين ، قد اخترقت ولاية الغرب ، ووصلت فى غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبى شرقى لبلة . فجهز الشيخ أبوعبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلة ، بقيادة أبى العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمتهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ، وأسرت جملة منهم . وبعث الوالى الجديد بخبر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ، وبعث إليه بشكره .

ولم يمض على انفراد الشيخ أبى عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ، حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ، فوصل إليها فى أول شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ أبو عبد الله ، على ما كان عليه ، وأن يتولى الشئون العسكرية ، وتوثقت أواصر المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمرا معاً فى النظر فى شئون إشبيلية ، حتى وصل أمر الخليفة بندب الشيخ أبى عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك فى أواخر شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية فى صحبة من الحفاظ وغيرهم فى أوائل شهر رمضان إلى غرناطة ، واستقر فى ولايتها ، واستدعى الخليفة فى نفس الوقت أخاه السيد أبا سعيد ، والى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالاتفاق

(١) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٧٣ ا و ب ولوحة ٧٤ ا وفى المطبوع ص ٢٨٩-٢٩٢

مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافية ونصها « و الحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتنفذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافية فى الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبى الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبى سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الديباجة الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتقيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم . وإقرارهم واعترافهم . وحجج الظالمين فى مقالاتهم واستظهارهم فى بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موفى كل قائل قوله » ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك فى سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفى الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفى المناكحات فلا يبت فى أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرّف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم فى جميع الأحوال ، تقوى الله فى السر والجهر ، وخيفته فى الباطن والظاهر ، والجرى على سنته ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « فى هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسننه الواضح البين »[1].

وإنه لما يلفت النظر فى هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده فى المطالبة برفعها إليه . وفى

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النص الكامل لهذه الرسالة فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٧٩ إلى لوحة ١٨٢ ا ونقلها العلامة جولدسيهر فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه **Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-188)** وقد نشرناها نحن فى باب الوثائق الموحدية فى نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى شرحها ، وتقييدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أعنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتنكيب عن إراقتها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البارع ، قد تأثر أيما تأثر بما أبداه الموحدون منذ عهد المهدى ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقتها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسالته أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولا على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ ﻫ (١١٦٦ م) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بين قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منغفاد إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى سبتة ، وأخذ يعيث فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلا وسبياً ونهباً . ووصل عيثه وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلة بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد يخلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القاعة ، وكان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منغفاد بغواته فى جبل الكواكب ، ولم تنل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الزعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمعنت فيهم قتلا وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضيهم ، وقتل زعيم الثورة سبع بن منغفاد ، وصلبت جثته ، وأذعنت سائر صنهاجة فى تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيبت إلى ما طلبت. وتم قمع ثورة غمارة فى أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ (أغسطس سنة ١١٦٧ م) . واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من الثوار نحو أربعة آلاف. وعاد الخليفة أبو يعقوب فى عساكره المظفرة إلى حضرة مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبى الحسن بن عياش مؤرخة فى الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ والطلبة بالمغرب والأندلس[١] ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة فى عسكر وافر من الموحدين واشتد فى قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأفتهم[٢] .

— ٣ —

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبى يعقوب للحافظ الشيخ أبى عبدالله بن أبى إبراهيم لولاية غرناطة وذلك فى شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ما عنى به الوالى الجديد، أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصارى من أحلاف ابن مردنيش، وكانت قوة منهم تحتل حصن « لبه » الواقع فيما بين غرناطة ووادى آش ، وتعيث باستمرار فى تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن لبه المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصارى ، وقضى بذلك على عيثها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التى وقعت فى تلك الفترة ، كان مسرحها

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ ا و ب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص٦٩ ، و٧٠ و٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكلها وهى تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .

ولاية الغرب الأندلسية ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكيز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهز هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجُه ، ولحصانتها ، ولكونها كانت معقل المسلمين المنيع فى قلب الأراضى البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونته طوائف كبيرة . وفى أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ٥٤١هـ) سار فى قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية فى البحر ، فى مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربى هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر ، وباب شرقى يسمى باب الحمة[1] . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نضبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار فى عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود فى القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التى تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكنزهم ، ومستودعهم الذى يزخر بالحلى والنفائس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع اليائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقى — باب الحمة — وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

---

(١) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس — ص ١٦

أعظم ما يتصور . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وعين لها أسقف هو الأسقف جلبرتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشبونة فى اليوم الخامس والعشرين ، وقيل فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧م (جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ)[1] .

واستولى ألفونسو هنريكيز فى نفس الوقت على مدينة شنترين الواقعة شمال شرقى أشبونة ، ثم استولى على سائر الأراضى الإسلامية المتاخمة لتلك المنطقة ، والتى تكون القسم الغربى من ولاية « استرامادوره » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد شغلتهم حوادث العرب ، واضطرام الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية النائية .

واستمر ألفونسو هنريكيز أعواماً يغير على أراضى ولاية الغرب من آن لآخر ، ويترقب الفرص السانحة ، وقد أشرنا من قبل إلى ما كان من محاولة ابن قسى زعيم فتنة المريدين ، التحالفه ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسى وهلاكه (سنة ٥٤٦ هـ) ولما تفاقم عدوان ملك البرتغال على قواعد الغرب ، عبر ابن وزير صاحب باجة ويابرة البحر إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن (سنة ٥٤٩ هـ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى عندئذ ببذل وعوده فى الإنجاد والعون

وفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٢ م) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هنريكيز على الثغر الصغير المنيع المسمى بقصر الفتح أو قصر أبى دانس[2] ، الواقع على مصب نهر سادو (شطوبر) على المحيط جنوبى شرقى أشبونة ، بعد أن حاصروه مدى شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطه فى ٢٤ يونيه من العام المذكور[3] .

وفى أواخر سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر ١١٦٢) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصارى شنترين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ولبثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن خربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها[4] .

---

(١) Mariana : Historia General de España : Lib. Decimo Cap. XIX

(٢) وهو بالبرتغالية Alcacér do Sal

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ ، وكذلك H. Miranda : Imperio Almohade Vol. I p. 266 .

(٤) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١١٨ ب وفى المطبوع ص ٣٧٣

هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضي الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده مغامر يدعى جيرالدو ، ويعث فى التواريخ النصرانية « بالباسل » Geraldo sem Pavor ، وكان هذا المغامر الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلج جراندة الجليقى » قاطع طريق أو رئيس عصابة ناهبة ، ألفى مجالا طيباً لنشاطه فى الظروف التى كانت سائدة يومئذ فى بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضي الإسلامية الواقعة فى قطاع بطليوس مابين نهرى التاجُه ووادى يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهباً ، وكان يقوم بهذه الغارات والغزوات لحساب نفسه ، وفى أصحابه وعصبته ، على نحو ماكان يفعل السيد الكمبيطور (الكمبيادور) فى شرقى الأندلس أيام الطوائف . بيد أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكانته ، مبلغ السيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالى » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكز يؤازره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الضخمة فى افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة — وهو الراوية المعاصر — أعمال جيرالدو ومغامراته فى الفقرة الآتية :

« وكان أدفونش بن الرنك العادر الجليقى ، صاحب قلمرية ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة ، وتيقظه لغدر البلاد والحصون ، ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين فى الثغور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل فى الليالى المطرة الحالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التى يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم فى برج المدينة ، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولا إلى البرج ، ويقبض على السامر ، ويقول له ، تكلم على ماكانت عادتك ليلا يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، الدميمة فى أعلى سور المدينة ، صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه

واستلبوه ، وأخذوا كل من فيها سبياً وفيئاً »[1] .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جرالدو فى ذلك القطاع من ولاية الغرب ، هى مدينة تَرجالُه[2] الواقعة شمالى ماردة على مقربة من نهر التاجُه ، فدهمها فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ (مايو سنة ١١٦٥م) ، ثم انقض على مدينة يابُرة فى شهر ذى القعدة من نفس العام (سبتمبر ١١٦٥) ، وباعها مع ترجالُه إلى النصارى . ثم سار إلى مدينة قاصرش[3] الواقعة غرب ترجالُه ، واستولى عليها فى صفر سنة ٥٦١ هـ (ديسمبر ١١٦٥) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن منتانجش الواقع فى جنوبها الشرقى فى جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شرْبة ، ثم حصن جلمانية[4] الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، واتخذه قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التى وقعت بولاية الغرب فى نفس الوقت الذى شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش فى شرقى الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصارى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب فى العام التالى — سنة ٥٦٢ هـ — حسبما رأينا بقمع فتنة غمارة . وفى أوائل سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس فى أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء فى تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها فى سنة ٥٦٠هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبى سعيد والسيد أبى عبد الله لأخيهما الخليفة ، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمير المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غمارة التى شملت منطقة كبيرة حساسة فى شمالى المغرب ، والتى اقتضى أخمادها أن يسير إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كعادته فى ألفاظ منمقة ،

---

(١) فى كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ أ . وراجع أيضاً البيان (المطبوع ص ٣٧٣) ، المغرب القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٢) هى بالإسبانية « Trujillo »

(٣) هى بالإسبانية « Cáceres »

(٤) منتانجش بالإسبانية Montanchez ، وشربه Serpa ، وجلمانيه Jurumena

ويقول لنا فى حوادث سنة ٥٦٣ هـ ، « فى أول هذه السنة جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشاير ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحقة لسيدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله » . ثم يقول لنا . إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبى إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، منبئاً له « بما اتفق من اجتماع الرأى السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبى يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة[1] ، وأرسلت فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراكش .

ولما كملت البيعة الجديدة على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمير المؤمنين ، وساد اليمن والبشر ، وأصدر الخليفة عفوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيد عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الجبايات والخراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور الفخمة ، والرياض اليانعة ، وكثرت بهذه المناسبة مدائح الشعراء وتهانيهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدولة الموحدية هذا مطلعها :

جاءتك تسحب ذيلها للموعد زهراء طالعة بسعد الأسعد

---

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ ا . وفى المطبوع ٣٣٨ - ٩٤٤ وقد رأينا أن ننقل نص بيعة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلتراجع هنالك .

فاصدع أمير المؤمنين بدعـوة لم تترك صمما لسمع الجـامد
يهنى الخلافة ان لبست رداءها وقعدت منها اليوم أشرف مقعد[1]

وفى أواخر هذا العام — سنة ٥٦٣ ﻫ (١١٦٨ م) — ندب أبو يعقوب أخاه السيد أبا إسحاق إبراهيم والياً لقرطبة، وكانت بلا وال مذ غادرها واليها السابق السيد أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولا على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦١ ﻫ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الاندلس فى عسكر ضخم من الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التى كانت تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، تؤمّن فيه الأندلس ، ويقمع عدوان المعتدين عليها .

— ٤ —

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيتهم على الاضطلاع بهذه الخطوة، التى برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء فى الشرق أو الغرب . وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فى رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ ، وفيها يشير إلى ما تقرر من إرسال السيد أبى إبراهيم فى عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين بإشبيلية ، ويضطلع الجميع بالجهاد وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبى عبد الله فى شئون الآلات والأسلحة التى تحتاج إليها القوات الموحدية[2] .

وحدث فى نفس الوقت الذى وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادى شَنيل غربى غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُندة ، وعاثت فى تلك المنطقة ، وانتهبت أموالها وماشيتها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

---

(١) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٠٧ ا و ب ، وفى المطبوع ص ٢٤٨ — ٣٥١ ووردت كذلك فى البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ ا و ب و ١١١ ا . وفى المطبوع ص ٣٥٤ — ٣٥٦

لردها وردعها ، فالتقت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدين دهموهم فى أعلى الجبل ، وقاتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد فنى معظمهم قتلا وأسرا ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة (مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، بنبأ ذلك النصر إلى الخليفة ، فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه[١] .

وفى أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع فى جنوبى البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت بالغرب أيام أن اضطربت شئونه ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف ، أيام أن كان والياً لإشبيلية ، فى أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الثائر بها عبدالله ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيثه فى تلك المنطقة ، يعتدى على السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ، سواء فى البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دائها. فساروا إليها فى حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطلة القريب منها ، وحاصروها براً وبحراً ، حتى أذعنت إلى التسليم ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ (سبتمبر سنة ١١٦٨ م)[٢] .

وفى أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته إبنة القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ الموحدين بها ، فى أن يكون صديقاً وحليفاً لأمير المؤمنين ، ومنابذاً لشيعة النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراكش ، فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خير منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معززاً مكرماً ، « حتى كاد أن

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ ا و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب وفى المطبوع ص ٣٦٧ — ٣٦٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٧ و ٧٨ .

يتُسلم » ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشمله الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالى باسم « فرناندو رايس النصرانى » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصارى »(١) .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثانى ملك ليون وبين الموحدين. وكانت الخصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أورّاكا ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال الذى ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ؛ وكان فرناندو مذ فرغ من مشاغله وحروبه فى قشتالة ، يتجه بأطماعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ما كان يحرزه ألفونسو هنريكيز من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضى الإسلامية التى يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردريجو ، (ثيوداد ردريجو)(٢) الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضى البرتغال القريبة ، وأنشأ فى نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسما. ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه بعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالبيبوج » ، و« بصاحب السبطاط » وتسميه أحيانا صاحب « السبطاط وآبلة وليون وسمورة » . فأما « البيبوج » أو « البيوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إليه(٣). وأما « صاحب السبطاط » فمعناه « صاحب ثيوداد ردريجو » وقد كانت وقتئذ

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ ا وفى المطبوع ص ٣٦٨ – ٣٧٠ – والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ .

(٢) وهى بالإسبانية Ciudad Rodrigo وبالقشتالية القديمة Çibdad ومنها حرفت التسمية العربية « سطاط » .

(٣) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي ألفونسو النبيل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التي حشدت فى إشبيلية بقيادة أبى العلاء بن عزون والحافظ أبو على عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حموّ . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضى قشتالة، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأسترياس (أشتريش) ، وأقاموا فى هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بمؤازرتهم ونجدتهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيه ، وألا يتوانى فى ذلك قط ، وأقسم على ذلك فى بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما ستراه فى حوادث بطليوس أتم وفاء[1] .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ و ١١٨ ا ، وفى المطبوع ص ٣٧٠ — ٣٧ والبيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٨

الفصل الثانى

حـوادث الأندلس

وسقوط مملكة الشرق

اهتمام الموحدين بحوادث الأندلس . عزمهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبى يعقوب فى ذلك . خطة ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدين بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدين . بواعث خصومته لملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسره ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدين . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن همشك . توحيد ابن همشك وانضمامه للموحدين . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سمبافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدين . هزيمة الموحدين وأسر أكابرهم . استدعاء ولاة قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدين عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعى الموحدين لإمدادها . معركة بين الموحدين وجيرالدو . هزيمة الموحدين ومقتل الحافظ أبى يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيح البدء بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على حركته . عبور السيد أبى حفص فى القوات الموحدية . مسير السيد أبى سعيد فى قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصرانى . تفاهمهما على استبقاء التحالف والصلح . افتتاح السيد أبى سعيد لحصن جلمانية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . مسير الموحدين بقيادة السيد أبى حفص لقتال ابن مردنيش . استيلاؤهم على قيجاطة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة فى طاعتهم، ثم سقوطها فى أيديهم . دخول ألش والجزيرة ثم بسطة فى طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش الموحدين . موقف أخيه يوسف والى بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بالمرية ودعوتهما للموحدين . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصبغتها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعايبها . مقدرته وشجاعته . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدين . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبى حفص والموحدين مرسية . مسير هلال وأكابر الشرق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبى يعقوب . زواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن همشك ونهايته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدين، بغافلين عن خطورة الحوادث التى وقعت فى غربى الأندلس، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة فى أيدى النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشنترين فى يد الملك

ألفونسو هنريكيز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائى ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجالُه وقاصرش ويابرة وجلّمانية ، وتهديدهم لسائر الأراضى الواقعة على ضفتى نهر وادى يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التى وقعت بالمغرب ، والتى فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ ﻫ ، هدأت تلك الفتن ، واستتبت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونيه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التى اعتزم الموحدون القيام بها فى الأندلس .
ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلا عن أبى محمد سيدراى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرتهم للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس فى شهر رجب سنة ٥٦٤ ﻫ (أبريل سنة ١١٦٩ م) . على أنه يبدو من نص الرسالة التى وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتى أرخت فى اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ ﻫ ، ان هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التى وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هى من إنشاء كاتبه أبى الحسن بن عياش ، وهى تردد وتؤكد نفس الوعود التى قطعتها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها[1] ، وقد ورد فيها ما يلى بخصوص هذا الشأن :

« وما زلنا وفقكم الله على أتم العناية بتلافكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص

---

(١) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ ﻫ (القسم الأول ص ٣٧٩) .

على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة ، والمشاهدة ، إشفاقاً على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأعقاء ، بجسمين وروما ، وماكادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفغر الأفواه ، وكسر الثيوب والأرصاد ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السباك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدر على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معنيات الأمور » .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبى حفص ، وتأكيداً لنيات الخليفة فى الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر ، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، ليكون تقدمة لجواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه . والله المستعان من التحرك بجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلناه نصب العين وتجاه الخاطر ؛ فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أمراسها ، التى انعقدت بها النية ، واحتدمت لها فى ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله فى تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه بالنقمة فى أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ، فما ذلك على الله بعزيز »[1].

وفى خلال ذلك كان ألفونسو هنريكز ملك البرتغال ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جيرالدو « سمبافور » أو « جيرانده الجليقى » حسبما تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام فى سنة ١١٦١ م

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحات ١٢٠ — ١٢٢ وفى المطبوع ص ٣٧٦ — ٣٨٠

(٥٥٦ هـ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب الموالين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جيرالدو سمبافور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، وحصن منتانجش على مقربة من شمالها الشرقي . ففي شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩م) ، زحف جيرالدو سمبافور في جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى واليها أبو علي عمر بن تيمصلت أنه لايستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع المهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصريخه إلى الموحدين بإشبيلية . وما كاد جيرالدو يستولي على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز في قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين في القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها[1] ، ومن ثم فإن ابن تيمصلت كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن النجدة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن في الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثاني .

ويجب لكي نفهم هذا الموقف الذي ترتب عليه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرناندو الثاني ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، وتحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلا إلى الوراء ، لنلقي بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، في هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية التالدة — بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الخصومة الرئيسي بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثاني من دعوى السيادة على البرتغال التي ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثاني لمدينة ردريجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكي يتخذها قاعدة للإغارة على أراضي

(١) أتيح لي أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة الواقعة فوق الربوة الصخرية المشرفة على نهر وادي يانه ، والتي مازالت تدل على ما كانت عليه هذه القصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيز قد بعث ولده سانشو فى جيش ليهاجم مدينة ردريجو ويخربها ، فبادر إليها فرناندو فى قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق فى الحال سراحهم سعياً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهدئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيز على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج فى أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال فى جيش قوى، وهاجم جليقية من أراضى مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتى ليما وترونيو وما حولها من الأراضى ؛ ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضى كانت من أملاك أمه الملكة تريسا ، تلقتها عن أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها .

وفى العام التالى ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيز خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سمبافور فى أبريل سنة ١١٦٩م . وكان فرناندو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التى كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرناندو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضى اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتى نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح فى المنطقة التى تمتد من لبلة حتى أشبونة ومنتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح فى سائر ما تبقى من أراضى اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادى الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيز إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرناندو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وما كاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرناندو قد سار بقواته فى أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصلت المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم

ملك ليون لإنجادهم ، ويطلب إلى ابن تيمصلت أن يدله على الطريق الذى يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفى من بعض أسوار القصبة ، لم يفطن إليه البرتغاليون ، فلما تحققوا من وصول القوات الليونية ، نقبوا السور فخرج منه الموحدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جند ليون ، واجتمع الموحدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحمى القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحدون وحلفاؤهم الليونيون منتهى الإقدام والبسالة ، فى مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم. واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكيز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو فى منتهى السرعة والذعر ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدة أو علقت برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه،وقد كسرت ساقه، وأغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعى ، إلى بليدة ، « قاية » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردتهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الجريح ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التى انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكيز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة فى عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً[1] .

أما جيرالدو سمبافور فقد فر على أثر الموقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفى رواية أخرى أنه أسر مع مليكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التى استولى عليها شمالى بطليوس مثل ترجالُه ، وقاصرش ومنتانجش ، وقد استولى الموحدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ (٢١ مايو سنة١١٦٩م) . وفى الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو فى هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحدى أتم وفاء ، وأبدى للموحدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ب و ١٢٣ ا وفى المطبوع — ص٣٨١ — ٣٨٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ وكذلك . M. Lafuente : Hist- General de Espana. T. III, p. 329 & 330.

الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمؤن ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو فى قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلقاها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير فى قواته إلى بطليوس لإنجادها . فكتب فى الحال إلى الخليفة أبى يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أيما سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبى عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما ... وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما

إلا أنها فيها وعدت لآية يدين بها ... من كان بالله عالما[1]

— ١ —

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحدين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية فى قواته وسار إلى قرطبة ، لمعاونة واليها السيد أبى إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن همُشك ، وتهددها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاءل منذ موقعة فحص الجلاب ، التى هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صُبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ فى إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، ومما يروى أنها سُئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جرو كلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لاحاجة لى به » فأرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلا[2] . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه ابنى الجذع وبنائهما فى الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكلها فى « المن بالإمامة » وتشغل اللوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ أ . وفى المطبوع ٣٨٤ – ٣٨٧

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٣٠٢ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جيّان وبياسة وأبدة ، نائبا عن صهره ابن مردنيش . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنيش يرهقه بغاراته ، ويؤلب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن هَمُشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبى حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه لمذهب التوحيد، ويعرض تمكين الموحدين من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفى هذا التعبير ذاته ما يدلى بأن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعنى بالأخص الخضوع السياسى لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك فى رمضان سنة ٥٦٤ هـ (يونيه ١١٦٩ م) ، فاستُقبل من واليها السيد أبى إسحق ومن الشيخ أبى حفص ، وأكابر الموحدين بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول فى حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبى يعقوب يسجل توبته ودخوله فى الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، واتصلت القواعد والأراضى التى كانت بيد ابن همشك بأراضى الموحدين فى أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدين على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنيش فى الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنيش على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيانته ، فدفع سائر قواته المجاورة لأراضية إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جيان واستمرت فى مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدين لإنجاده . ولكن الموحدين لم يروا أن يتدخلوا فى تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنيش فى عقر بلاده[1] .

وفى أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلت . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلما . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس فى جملة

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ أ و ب وفى المطبوع ٣٨٨ - ٣٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٢ .

كبيرة من الموحدين والجند الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ فى تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصبة تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أوغيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ماعمل لتأمين القصبة الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالى جيرالدو سمافور ما يزال مرابطاً بقواته فى حصن جلمانية القريب من بطليوس ، فانتهز فرصة انشغال الوالى الجديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده فى مدافعته ورده بقواته . وأخيراً نظم جيرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شنترين ، ورتب من جنده كمائن فى مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقائه الحافظ أبو يحيى فى قواته ، وماكاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالهزيمة والفرار ، فتبعه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكمائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقاتلوهم بشدة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم جملة بينهم عدة من الأكابر ، افتدى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ (أواخر ١١٦٨م)[١].

وفى هذه السنة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ — استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق إبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام (فبراير ١١٦٩ م) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزمع الخليفة تسييرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥هـ ثم انصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقى الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حيناً آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين واليا لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

---

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٢٨ أ و ب و ١٢٩ أ ، والبيان المغرب ص ٨٣ .

أبو يحيى بحزم وقوة . وقمع بذور الفتنة ، واستمر فى حكمها أعواماً طويلة ، وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث فى هذه السنة — سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) — إغارة القشتاليين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضى الإسلامية قد انقطع حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريموندیس ، واضطرام الحرب الأهلية بين الممالك الإسبانية النصرانية ؛ وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرتى لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذى اشترك فيه فرناندو ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبى ألفونسو الثامن تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسرة الكونت نونيو دى لارا (سنة ١١٦٦م) . ولم يمض قليل على ذلك . حتى اعتزم الكونت نونيو — ويسميه ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بطاغية أدفونش الصغير » — أن يقوم بغزوة للأراضى الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيبته . فخرج فى قواته من طليطلة ، واخترق موسطة الأندلس ، وسار جنوبا ، وهو يثخن أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادى الكبير ، وشنيل ، وانتهى فى غزوته إلى فحص رُندة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، أو أنه استطاع بعبارة أخرى ، أن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب الصلاة ، إنه وصل فى سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين فى تلك الأراضى ، واستولى على كثير من السبى والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسر جمود الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجرىء خصوصاً وقد كانت لديهم فى قرطبة قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ، وادخارها لمحاربة ابن مردنيش[1] .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التى حدثت فى تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أوبعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ . ومنها توقف المطر وحدوث الشرق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٠ أولى المطبوع ٣٩٧

الأمطار بعد ذلك . وفى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ هـ ، حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها فى عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص فى مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرائى يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة فى البلاد المذكورة وصوامع مساجدها »[1] .

وفى شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ (أبريل سنة ١١٧٠ م) ، كثرت غارات جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد فى إرهاقها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون فى إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافراً من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراستها الحافظ أبو يحيى زكريا بن على فى قوة من الجند الموحدين بإشبيلية ، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينة بطليوس ، خرج إليها جيرالدو فى قواته وقوات أهل شنترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة ، وأبيدت صفوفهم ، وسقط قائدهم الحافظ أبو يحيى ضمن القتلى ، واستولى النصارى على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك فى يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ (١٤ مايو سنة ١١٧٠م) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدين بإشبيلة وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بخبرها إلى الخليفة فى مراكش[2] .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً فى ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ هـ يزمع تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدين بها فى ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه فى هيئة الغزو ، وخرج من مراكش ، ونزل بوادى تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

---

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ ب . وفى المطبوع ص ٣٩٧

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣١ ا ، وفى المطبوع ص ٣٩٨ والبيان المغرب القسم الثالث ، ص ٨٤ .

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل فى إشبيلية فى نفس الوقت الذى كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط فى أيدى البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار فى تنفيذ حركة الغزو التى وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه فى استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسى. وكان تطور الحوادث فى الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تتم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التى يزمع الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو فى ناحيتين ، الأولى فى شرقى الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله فى طاعة الموحدين، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقله تباعاً ، ويلح فى طلب النجدة من حلفائه الجدد ، الموحدين ، ويبعث بصريخه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبى حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراكش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقشى ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدوة ، وقصد إلى الخليفة بمراكش (٥٦٥ هـ) مؤكداً طاعته ومكررا صريخه . وكانت الناحية الثانية من مواطن الصراع ، فى غربى الأندلس، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصارى المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرقى الأندلس تتطلب تدخلا عاجلا ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التى غدت جزءاً من أراضى الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة فى جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى ، ومقاتلته فى قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص فى عسكره من حضرة مراكش فى أول شهر

ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ (أغسطس سنة ١١٧٠ م) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدراى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم فى تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل فى قواته إلى إشبيلية فى أوائل سنة ٥٦٦هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، تقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا فى عسكر إلى مدينة بطليوس ، لتقوية جبهتها الدفاعية . فسار إليها فى جيش من الموحدين والعرب ، ومعه من زعماء الأندلس سيدراى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة فى الواقع فى الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس فى تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثانى ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر فى مهاجمة بطليوس ، وإلحاح جيرالدو سمبافور فى إرهاقها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينتهى الأمر بسقوط المدينة فى أيدى البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة فى نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح فى هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو فى قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط فى أيدى البرتغاليين ومليكهم ألفونسو هنريكيز ، وفى الوقت الذى وصل فيه إلى سهل الزلاقة الواقع شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر وادى يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السيد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدراى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصرانى ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإمساكها لأمير المؤمنين » فاقترح الرسل أن يجتمع الملك النصرانى بالسيد أبى سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم . وسار فى نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس ، والتقى بالسيد أبى سعيد وكلاهما يمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك فى قواته إلى بلاده .

أما السيد أبو سعيد فقد سار فى عسكره توا إلى حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، والذى اتخذه البرتغاليون بقيادة جير الدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقشعت بذلك غمته ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد فى صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية[١] .

— ٢ —

وما كاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأى على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه فى شرق الأندلس.

وكان محمد بن سعد بن مردنيش ، قد اضطربت شئونه خلال ذلك ، وأخذت تخبو قواه ، وموارده ، ولاسيما منذ هزيمة فحص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل فى انحلال سلطانه الشامخ الذى استمر منذ قيامه فى شرق الأندلس فى سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاما يتحدى سلطان الموحدين ، وينبذ سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة ، عاملان يتلخص أولها فى مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش فى أية موقعة يخوضها . والثانى ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تمليها فضلا عن الأطماع السياسة ، بواعث وطنية ، هى التى دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين فى التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولا على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش فى هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، فى اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة لوحات ١٣١ ب و١٣٢ و١٣٣ ، وفى المطبوع ص ٤٠٠ – ٤٠٢ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٥ و٨٦ .

وحشدهم فى صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش فى البداية بسائر أمراء اسبانيا النصرانية ، روابط المودة والصداقة ، ولكنه لما توفى رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثانى فى حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلائق بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالجزية التى كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين ، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش فى معركة فحص الجلاب[1] . ثم تحسنت العلائق بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهد ابن مردنيش بأداء الجزية وتعهد ألفونسو الثانى بألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحتفظ فى بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيثون فى المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحياؤها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون سخطاً على أميرهم المسلم ، الذى مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذى أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى[2] . وقد كان لهذه السياسة فى اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاق المسلمين بالمغارم والفروض ، وهى السياسة التى سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق فى النيل من هيبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرقى الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثانى فى تضعضع قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قادته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين ، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قادته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك فى الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته ، وروعة وسائله ، واستهانته بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة فى هذا العصر ، ان لم يكن

---

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 542

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٦

أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنيش غير ابن همشك ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنيش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضى ، ثم فسد ما بينهما ، فثار ابن هلال ، ولحق بمورتله (موراداال) وتحالف مع أمير برشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينتزع بعض حصونها . وأوقع الهزيمة بابن مردنيش . ولكن حدث لسوء طالعه أن وقع ذات يوم أسيراً فى يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلائها ، وإلا نزعت عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود ، ولما تمادى فى رفضه نزعت عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطبه ، حيث بقى بها إلى أن توفى[1]. وكانت هذه الوسائل المثيرة فى الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنيش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيريه ابنى الجذع وذلك ببنائهما فى الحائط .

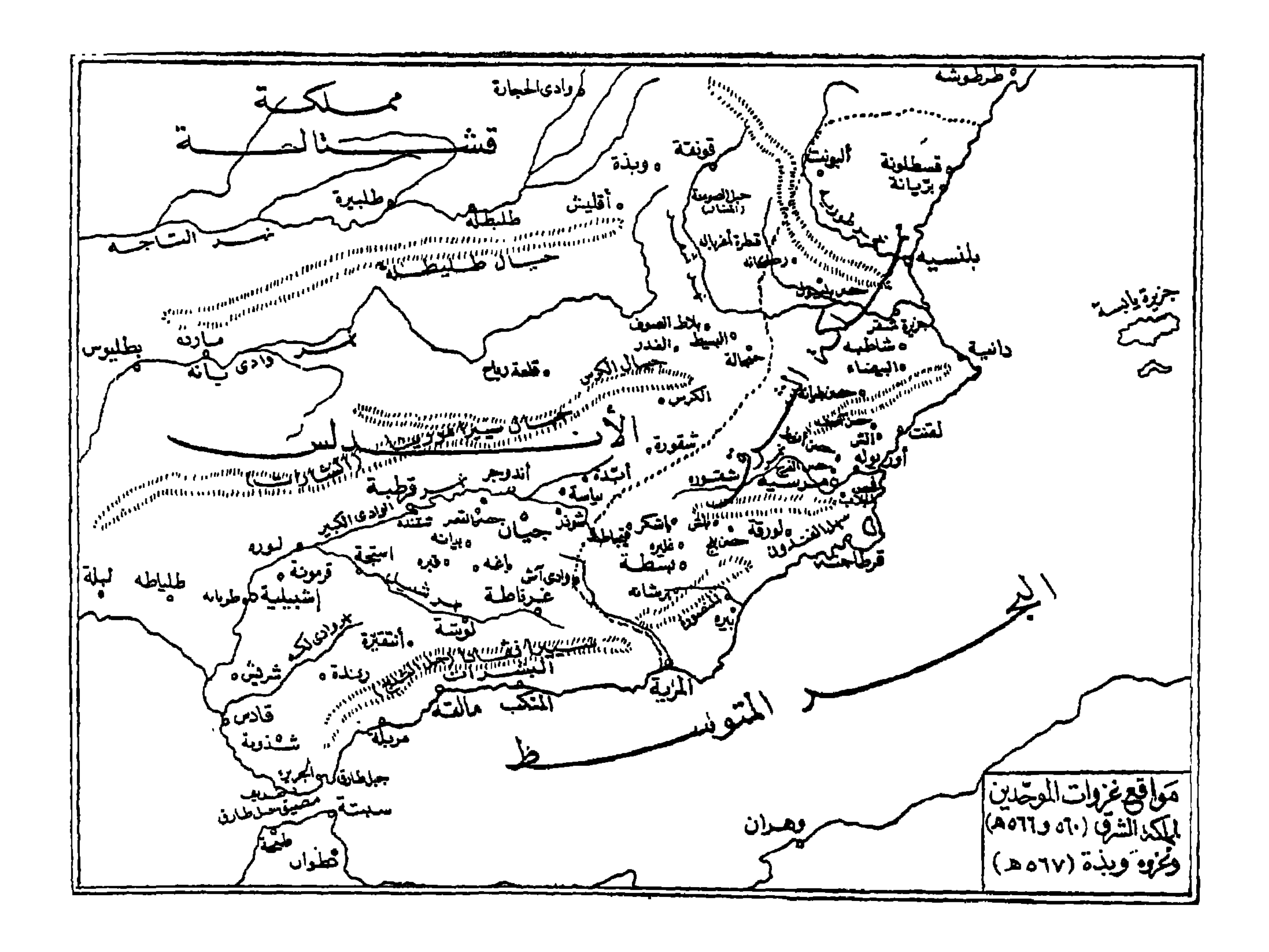
كان ابن مردنيش يعانى من هذه الظروف العصبية والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خطتهم لإنزال ضربتهم الأخيرة به .

فنى شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ (مارس سنة ١١٧١ م) خرج السيد أبوحفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص فى جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت القوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنيش مدينة قيجاطة[2] الواقعة شرقى جيان ، بينها وبين لورقة . فاقتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرقى وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق فى طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فحصها ، فنازلوها لاختبار مقدرتها الدفاعية ، وتغلبوا على حصن الفرج فى ظاهرها ، وقد كان متنزه ابن مردنيش ، ومنزل لهوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القرى والبسائط الخضراء فى تلك المنطقة ، وابن همشك يقود الموحدين ويدلهم

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦٢

(٢) وهى بالإسبانية Quesada


مواقع غزوات الموحدين
لمملكة الشرق (٥٦٠ و٥٦٦ هـ)
وغزوة وبذة (٥٦٧ هـ)
مملكة قشتالة
وادي الحجارة
قونقة
وبذة
أقليش
طلبيرة
طليطلة
نهر التاجه
جبال طليطلة
طرطوشه
البونت
قسطلونة
بريانة
بلنسيه
جزيرة يابسة
دانية
شاطبه
البيضاء
لقنت
الش
أوريوله
قرطاجنة
لورقة
بسطة
وادي آش
غرناطة
جيان
بياسة
أبذة
شقورة
الكرس
قلعة رباح
ماردة
بطليوس
وادي يانه
الأندلس
نهر قرطبة
أندوجر
الوادي الكبير
لوره
قرمونة
إشبيلية
طلياطه
لبلة
استجة
لوشة
أنتقيرة
رندة
شريش
قادس
شذونة
مربلة
مالقة
المنكب
المرية
البحر المتوسط
سبتة
طنجة
تطوان
وهران

على خير الطرق والمسالك . وكان ابن مردنيش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاءه النصارى لإمداده ، فلم يلب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأمامى ، لتأمين الدفاع عن قصبتها ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقته أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها أمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه ، وهو فى عزلته . وذاع بين الناس ما يعانيه ابن مردنيش من اضطراب الأحوال والقلق ، وشعروا أن عاقبته قد دنت ، فعندئذ ثار أهل لورقة ، ودعوا للموحدين ، وهاجموا النصارى وأنصار ابن مردنيش ، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القصبة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلته بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القصبة بمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفد ، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصبة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القصبة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو حفص فى قواته إلى مرسية ، ليمضى فى حصارها ، وفى أثناء ذلك أعلن أهل ألش طاعتهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فمنحوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبتها الجزيرة — جزيرة شقر — الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعلن أهلها التوحيد بزعامة عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان المخزومى ، وطردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيماً نابهاً من بيت عريق ، وزاهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،

فلما رأى اختلال أمر ابن مردنيش وضغط الموحدين على قواعده ، دعا للموحدين وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنيش لقتاله ، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه فى بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، فى منتصف شوال سنة ٥٦٦ هـ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى إرسال الجند لتشديد الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبى حفص بمحلته بمرسية فى طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقى والياً عليهم ، وكان قد دخل فى دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنيش ولحق بمرسية عليلا ، وتنفس مختنق الجزيرة[1] .

وكان ابن مردنيش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشتبك مع المحاصرين فى معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد ، يتولى الدفاع عن بلنسية ، وأحوازها . وقد اختُلف فى موقف يوسف من أخيه فى هذا المأزق العصيب ، ففى رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدين[2] ، ودخل فى دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفى رواية أخرى ، أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا فى بلنسية لبنى العباس ، وكاتب الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدين (سنة ٥٦٦ هـ)[3] . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد (ابن مردنيش) لمدافعة الموحدين فى مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنيش يكتنفها شىء من الغموض ، وفى بعض الروايات القشتالية ، أن ألفونسو الثانى ملك أراجون انتهز فرصة ضغط الموحدين على ابن مردنيش ، وغزا أراضى بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستولى منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها[١] .

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنيش . وكان ابن مردنيش قد انتزع ألمرية من الموحدين ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاح الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنيش على أخته ، هو محمد ابن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنيش ، وأعلنا بطاعة الموحدين ، وبعثا إلى السيد أبى حفص فى طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الجند الموحدين ، فقبض على الوالى ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنيش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بمرسية ، وقتل ابنته منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلا جديداً على ماكان يتسم به ابن مردنيش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه فى ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنيش فى أثر ذلك ، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليل الحالك ، وفزع من أذايته أهله وقرابته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »[٢] .

والواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه ، فى تلك الآونة العصيبة ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته ، ومن استيلاء الموحدين على معظم قواعده ، وتشددهم فى حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس فى جموع جرارة من الموحدين والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائى . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذر الخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر فى أن يختتم ثورته العتيدة وسلطانه العريض ، الذى استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء رأمته وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيته المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

---

(١) A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 532

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٦ و ١٣٧ . وفى المطبوع ص ٤٠٦ و ٤٠٧

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخبل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذى كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ (٦ مارس سنة ١١٧٢ م) فى الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر[١].

وفى رواية أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم[٢] ، أو أنه توفى مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فنهرها وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم[٣] . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان ، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش فى بلنسية فى عهد حفيد يوسف بن مردنيش ، يذكر لنا أن ابن مردنيش ، مرض خلال محاصرته ، لجزيرة شقر ، فغادرها عليلا إلى مرسية[٤] . ويقول لنا المراكشى أيضاً إن ابن مردنيش توفى « حتف أنفه » خلال حصار مرسية[٥] .

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنيش . وكان موته نذيراً بانهيار دولته الشامخة ، التى استطاع بعزمه وجرأته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها فى شرقى الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالا وألمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتى لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومى ، وتتحدى سلطان الموحدين وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنيش يكاد يبسط سلطانه على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيّان وبيّاسة وأبدّة ووادى آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (لوحة ١٦٥) . ويأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية (الإحاطة ج ٢ ص٩٠) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنيش توفى فى التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ (٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana p. 228

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

(٥) المعجب ص ١٤٠

إشبيلية ، وحينا اجتاح نائبه ومعاونه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدين فى مرج الرقاد واستولى على غرناطة . ولو لم تضع موقعة السبيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدين فى الأندلس عرضة للانهيار ، ولكللت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش فى الواقع يمثل بثورته ضد الموحدين ، كل ماكانت تبطنه الاندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التى لبثت تجيش بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدين بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القومى ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجانب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التى لم تستطع منذ مثولها القوى فى شئون الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تحرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التى كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون، وماكانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله فى سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة اسبانيا النصرانية ، لتقضى تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تلطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجرأته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدين ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان يجنح إليه من الإفراط فى مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم فى حروبه ، وتمكينهم من قواعده، وتشبهه بهم فى زيه ، وفى حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يتسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً فى الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى «كان يراقد منهم جملة تحت لحاف واحد» ، منهمكاً فى حب القيان والزمر والرقص[1] ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة، مسرفاً فى الانتقام، مستهتراً بالدماء، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور[2].

وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش فى سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بذكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه «كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأى ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة» .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (المطبوع) ج ٢ ص ٨٦ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبالرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا فى كتابه « المن بالإمامة » فى صور قاتمة، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء، فإنه فى كتابه « ثورة المريدين» الذى يفصل فيه سير الأندلس ، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »[1] .

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش ، فتختلف الرواية فى تصويره . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أنه على أثر وفاته ، بادر قواده وأشياخه ، بإعلان الطاعة للموحدين ، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالا بذلك ، فصدع برأيهم ، وبادر إلى إعلان توحيده ، وطاعته ، وسار إلى إشبيلية ، ليؤكد ذلك لأمير المؤمنين أبى يعقوب . وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أخا ابن مردنيش ، قد أعلن توحيده ، قبيل وفاة أخيه[2] .

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشى ، أنه لما توفى ابن مردنيش ، خلال الحصار ، كتمت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من بلنسية ، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه ، واتفق رأى الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وأن يسلموا إليه البلاد . ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمدا بن سعد حين شعربدنو أجله جمع بنيه ، وكان له من الولد الذكور ثمانية ، هم هلال أبو القمروهو أكبرهم ، وإليه أوصى ، وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وقال لهم أنى أرى أمر هؤلاء القوم ، من الموحدين ، فى صعود ، وقد كثر أتباعهم ، ودخلت معظم البلاد فى طاعتهم ، وأنه يظن أنه لاطاقة لهم بمقاومتهم ، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختيارا فيحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التى دخلوها عنوة ، على أن عبد الواحد لايجزم بصحة أى الروايتين[3] .

وعلى أى حال فإنه يبدو من المقطوع به ، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش ، بادر ولده أبو القمر هلال ، بإعلان إذعانه وطاعته لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وبالتخلى له عن مدينة مرسية قاعدة الإمارة . فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة ، فسار إليها فى عسكر متازل من الموحدين

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥ . وفى المطبوع ص ٤٧١

(٣) المعجب ص ١٤٠ .

فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآنس أهلها ، ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية فى مستهل شهر رمضان (٥٦٧ هـ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحيي صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعلية أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أجمل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفى اليوم التالى قدم قادة الشرق وأجناده ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبذة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة[1].

وينقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمدا بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصيير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه بإقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — عدوه — وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما نقل ذلك إلى الخليفة رق لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك . وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائعة الجمال ، وتم زفافها إليه فى ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء « المردنيشية » . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب[2] ، وأغدق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرق الأندلس ، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً لبلنسية وجهاتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائدا لأساطيل العدوة بسبتة ، واستبقى هلالا لديه ، فعاش فى كنفه ، أثيراً ، رفيع الرتبة[3].

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و ١٦٦ أ . وفى المطبوع ص ٤٧٢ — ٤٧٤

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٤٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧١

وأما إبراهيم بن همشك ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنيش ، نذيراً بانهيار مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيّان وأراضيها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتّى أوائل سنة ٥٧١ هـ ، (١١٧٥ م) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدوة ، فعبر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتّى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالا من آلامه المروعة[1].

(١) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٣٠٣ .

الفصل الثالث

حركة الجهاد بالأندلس

والإخفاق فى غزوة وبذة

مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف . عنايته باستدعاء العرب وحشدهم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل فى حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش فى ذلك . استجابة العرب للنداء . مسير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز عسكر العرب والتوسعة فى أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والسلاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة فى قواته من مراكش . وصف الموكب الخلافى . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الأندلس . المسير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتهنئة . مسير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قنطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء البستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبذة. موافقة الخليفة . خروجه فى قواته من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره صوب القصر فأندوجر . استيلاؤه على حصن بلنج . تسليم حصن الكرس . المسير إلى وادى شقر . مسير السيد أبى سعيد فى جيش إلى وبذة. معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة فى قواته إلى وبذة . هجوم الجيش الموحدى على وبذة . التفافه بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتناعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين للهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبي محمد الناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسعى . قرار الخليفة بالرحيل . مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونقة . عطاء الخليفة لأهل قونقة . مسير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضى بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تسريح جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة فى شئون مرسية . المسير إلى إشبيلية . نزول آل مردنيش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للغزو . تأملات عن فشل الموحدين فى حملة وبذة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتخاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال فى مدينة باجة . تربص النصارى بها . مسير ألفونسو هنريكيز وجيرالدو لافتتاحها . مداهمة النصارى لها واستيلاؤهم عليها . تخريبهم لها ثم مغادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة فى إشبيلية بإتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحدب لأحواز قرطبة . مسير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القومس . الاحتفال بالنصر فى إشبيلية . غزو الموحدين لأراضى قشتالة . وصولهم إلى طلبيرة وتخريب بسائطها . سعى النصارى إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سمبافور وجنده فى خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد الغرب . تعمير مدينة باجة . نكث فرناندو ملك ليون وغزوه لأراضى الأندلس . سير الموحدين إلى مدينة ودريجو . زواج الخليفة بابنة أمير الشرق محمد بن سعد . نكبة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبى على والياً لإشبيلية وأخيه أبى الحسن والياً لقرطبة . مغادرة الخليفة لإشبيلية وعبوره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء ، لنتتبع مراحل الغزوة الأندلسية التى وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التى بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته فى استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طبيباه ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل[1] . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المخاطبات الواردة فى مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدرة ، والقاضى أبو محمد عبد الله المالقى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدبيره ، وبعض الثقاة من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عنى به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة فى الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية (تونس) الجنوبية ، وهم من بنى هلال ، وسُليم ، وزغبة ، ورياح ، والأثبج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وماكان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالتهم إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالتهم وحشدهم فى صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جبلوا

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٨ ب . وفى المطبوع ص ٤١٠

عليه من التقلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب فى ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، فى استمالة أولئك العرب إلى مؤازرته فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى فى جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ فى نفس العربى من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى فى نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طبيبه الفيلسوف ابن طفيل، تحقيقاً لتلك الغاية، قصيدة طويلة تفيض بلاغة، وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف فى نفس الوقت ، من منزلة عالية فى النظم ، تضعه فى صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء فى تلك القصيدة الرائعة التى أوردها لنا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب	لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنى	ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهول ركّابٌ ظهور المصائب

ومنها فى استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية	تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومُضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبتغى خلاص جميعكم	دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبغى لنفوسنا	ونؤثركم زُلفى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبى وآله	ومهديّه منكم بلا عيب عائب
ومن ذا الذى يسمو ليبلغ شأوكم	إذا كنتم فوق النجوم الثواقب

ومنها فى الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله إنها	هى الحَرَم المنّاع من كل طالب

نعدّكم السيف الذى ليس ينثنى   إذا ما نبا سيف براحة ضارب
ونجعلكم صدر القناة إذا غدت   تأطّرُ ما بين الحشى والترائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى   ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب
وما خلق الأعْراب خلاف موعد   ولكن صدق الوعد خلق الأعارب
سنعلم من أوفى ومن خان عهــده   ومن كان من آت إلينا وذاهب(١)

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر يوجه إلى العرب، استعجالا لهم واستنهاضاً لهممهم، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيّاش هذا مطلعها:

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل   وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر   وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح   يفوت الصبى فى شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنــــده   على المــاء منسوج وليس بسائل
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية   من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شُدت إلى الغزو نيــة   عواقبها مقصورة على الأوائل(٢)

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة، فى نفوس العرب فى إفريقية، ولاسيما فى منطقتى الزاب والقيروان، فاجتمع زعماؤهم، وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة. وكان شيخ بنى رباح وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبى العيش، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن من إفريقية، فيمن فر من أشياخ العرب، حين دهمتهم القوات الموحدية فى جنوبى القيروان، قد عاد من المشرق فى هذه الآونة بالذات بعد أن تجول فى ربوعه حيناً، ورأى أن يقتدى بزملائه فى الاستجابة إلى «الأمر العزيز». فجمع قومه، وسار إلى بجاية، وقصد إلى أميرها السيد أبى زكريا يحيى أخى الخليفة، فأكرم وفادته، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ، وتحرك الجميع فى صحبة السيد

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة فى «المن بالإمامة» لوحات ١٣٩ أ وب، و١٤٠ أ، وهى تحتوى على أربعين بيتاً، ونقل ابن عذارى معظمها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٨٨ و٨٩. ونشرت فى العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٣).

(٢) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٤٠ ب. وورد قسم منها فى المعجب ص ١٢٥.

أبى زكريا إلى حضرة مراكش ، ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من عتاق الخيل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من العمال والأموال والخيل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل، فلما بلغته أنباء مقدم العرب ، واقترابهم من الحضرة ، سر بذلك أيما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، فى جو يسوده الحبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضر ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب فى هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضى أبو يوسف ، والفقيه أبومحمد المالقى ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراكش فى ضحى يوم السبت الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزى والهيئة ، وفرقت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام . وفى صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدة ، وانتظمت صفوفهم جُملا جملا ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب ممتطياً صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا إدريس ابن جامع ، سائراً على قدميه لصق ركابه ، وهو يراجعه فيما يعن من الأمور ، وفى ساقة الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علما ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد . وتقرر أن يكون اللقاء فى الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تقرع بشدة ، والجيوش تبدو فى أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبوعمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلا ، وتجاولا وتصاولا حتى العصر ، والطبول

تقرع ، وقد أبدع كل منهما في حركاته ومناوراته . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك في عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلتهم في الفحص . وفي اليوم التالي ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرقت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة (البستان) خارج الحضرة ، ومدت المآدب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياما ، وقد أربى ما كان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام المماثل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار في إطعامهم وإكرامهم[1].

وكانت آخر خطوة في هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التميز لعسكر العرب والموحدين ، ففي اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتميز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تميزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس في مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب ، يحرض العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفاني فيه . ولما انتهى التميز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التميز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت في التميز الجديد زيادة كبيرة في الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة في الاعتداء على الأموال وخطف العمائم والثياب والسروج وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات في « المن بالإمامة » لوحات ١٤٦ ب إلى ١٤٩ ب . وفي المطبوع ص ٤٢٨ – ٤٣٤

وأن يستميلهم إلى طاعته ومؤازرته : ثم بدئ بتمييز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تمييزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعُدد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التمييز بما يسمى فى المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة فى مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدم الموحدون فى تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومُنح أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسى من القباطى والتفاير والعمائم ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحماسة بين الأشياخ والجند ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المنشود فى عزم وثقة[1] .

— ١ —

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبى يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التى اعتزمها ، والتى عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذى أفاض فى وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجرى استعداد الخليفة الموحدى للغزو . وفى اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١م غادر أبو يعقوب حضرة مراكش فى حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكّاله ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرؤيته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولا على جمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع فى تابوته الفخم المرصّع بنفائس الجوهر والياقوت والزمرد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٠ ب و ١٥١ أ و ب . وفى المطبوع ص ٤٣٤ - ٤٣٨

عثمان ، مصحف الإمام المهدى ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدى ، وأبو محمد عبد الله المالقى شيخ طلبة الحضر ، وقاضى الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة فى وادى تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراكش ، وهو أول منازل الرحلة، وعساكره محدقة به من كل صوب . ثم غادره فى اليوم التالى إلى جسر الخطابة إلى توبين ، ثم إلى تودجين . واستمر فى سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادى أم الربيع ، وهو فى كل مرحلة ينزل فى الدار التى أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادى تباعاً فوق القنطرة التى عملت لذلك ، وقد خصص يوم لجواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهدية، وهى التى سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التى غدت فى عصرنا عاصمة المغرب ، سهلا براحا به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشتراه الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد فى قواته على سلا فى سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين ، أمر حسبما تقدم ، بأن ينشأ فى ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التى أنشأها ، فتم ذلك فى بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقى منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الجنات والرياض ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرِّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأخص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل فى فحصها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس فى أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، فى أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطع بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذى سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .

فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيما لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ، فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعا لهم ، وأمرهم بالنزول فى السهل الشاسع ، ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح فى اليوم العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ ﻫ ، وبذا استغرقت رحلته إليها من مراكش ، سبعة عشر يوما[1] .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التى أنشأها والده عبد المؤمن ، وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ إلى جانبها صهريج عظيم لمدها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبى رقراق ، إلى جانب الجسر الذى كان قد أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى بالحجر والجيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء فى بناء أسوار المدينة من جهتى الجنوب والغرب ، وهى الأسوار التى أكملت فيما بعد فى عهد ولده الخليفة يعقوب المنصور . وفى اليوم الثامن من نزوله أمر بتحرك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد عبد الله المالقى لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسى على الأشياخ من كل قبيل ، وعلى طلبة الحضر ، والعرب ، وخص كثير منهم بأخبية وخيل عتاق ، وكذلك وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت الأهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفى عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ ﻫ ، صدرت الأوامر بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفى صباح اليوم التالى تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفى الخامس عشر من شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذى تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف بالجمام على مقربة من وادى سبو تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى الوادى ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ ا إلى ١٥٤ ب . وفى المطبوع ص ٤٤١ ـ ٤٤٦

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيى ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أخا الخليفة ، تلاه فى جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة فى قواته الجرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة[1] ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، فى مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ (٨ مايو سنة ١١٧١ م) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفى اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة فى خاصته ، واستقبله فى طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، ثم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال (١٨ يونيه) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة فى الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها فى غرة ذى القعدة (٥ يوليه) . ونزلت القوات الموحدية فى داخل قرطبة وفى خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطالت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفى يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقيت الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفى اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيهم ، وكان فى مقدمتهم أبو بكر بن المُنخّل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرّف الخلافة أن ملكتَ زمامها   وعدوت من عقب الامام إمامها

---

(١) قال الإدريسى فى وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨) .

طبع الإله لها حساما صارما يحمى جوانبها فكنتَ حسامهـا
ورأت عداة الله أن حمامهـــا من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشقّ جيوبها وعلى سيوفك أن تفلّق هامها[1]

وفى خلال إقامة الخليفة بقرطبة سُيرت حملة موحدية بقيادة عبدالله بن أبى حفص ابن تفرجين وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضى قشتالة ، وكان القصد من تسييرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دى لارا من العيث والتقتيل فى أراضى المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجُه ، وعاثوا فى منطقة كبيرة من أراضى قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسبى والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش فى عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه فى شرقى الأندلس ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة، وهو بقرطبة، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والهزائم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائى فى تلك المعركة الحاسمة .

— ٢ —

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها فى الثانى من محرم سنة ٥٦٧ هـ (٥ سبتمبر ١١٧١م) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلا للوافدين إليه ، وذلك رفقاً منه بأهل المدينة[2]، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدوة ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

---

(١) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ ا و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب وفى المطبوع ص ٤٥٢

الجيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها ومؤنها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصرانى للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال الجديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسى بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أيدته فى الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكيز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيا بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية فى هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحابا ، ولاسيا منذ أيام بنى عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن المعلم ، وكان يتولى أعمال المخزن أو إدارة الشئون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لمحاسبته ، والتحقيق فى سير أعماله ، وكانت قد علقت به وبتصرفاته فى تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لمحاسبته الفقيه أبو محمد المالقى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم إعدامه فيا بعد . وقدم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، فى تنفيذه بأعظم قسط .

وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طُريانة ، ضاحيتها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات فى اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم إنشاؤها فى نحو شهر ، فى السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، فى حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وينوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفى خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنيش وانقضاء أمره بأشهر قلائل، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيما يجب عمله لحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر فى ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدين تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة فى الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الجديدة إلى طريانة، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما اقتربت من المدينة، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرقى بطايوس على ضفة وادى يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جيرالدو سمبافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حمولتها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية .

ولما كللت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفى ابن مردنيش ، وانتهت مملكة الشرق ، قدم هلال بن مردنيش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضى النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسى فى العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة : هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهى التى بدأها ببناء القنطرة على الوادى الكبير . والظاهر أن أبا يعقوب ، كان يحبو هذه المدينة العظيمة ، التى اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب، ومن ثم فإنا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الجارية . وكان أول ما عنى به بعد إنشاء القنطرة ، هوإنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدان بعدد من القصور الملكية ، هى قصور بنى عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، فى هذا العصر ، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدى ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زياراته لإشبيلية بعض الدور فى وادى إشبيلية خارج باب الكحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، فى أرض الجنان المنسوب

لأبى مسلمة القرطبي بعد أن عوض أصحابه جنانا فى مكان آخر . وأقيمت فى هذا الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها العريف أحمد بن باسُه عريف الأندلس ، والخبير بشئون القصور ، فجاءت على أبدع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الحيار والرمل والحصى. وعهد الخليفة إلى أبى القاسم أحمد بن محمد الحوفى القاضى ، وأبى بكر محمد ابن يحيى الجد ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوما بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن (الأموال العامة) تُجلب إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعُوض أهل الأراضى التى أدخلت فى البستان عن أراضيهم تعويضاً مرضيا . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى أبى داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين الخليفة ، وجلبت إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغُرست فيه على أجمل نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص (الكمثرى) وغيرها من غرناطة ووادى آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلازمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال الجارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة كعادته فى وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها[1] .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر فى استجلاب الماء لتوفير السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسى البارع الحاج يعيش المالقى ، وهو الذى تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذه القديم من الوادى على مقربة من قلعة جابر[2] ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع فى سربه القديم إلى البحيرة ،

---

(١) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و١٦٢ ا وب و١٦٣ ا . وفى المطبوع ص ٤٦٣ — ٤٦٨

(٢) وهى تقع فى جنوب شرقى إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم البلدة الإسبانية الصغيرة التى تسمى (Acalá de Guadaira) .

والقصور والرياض الخليفية ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة لسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو فى اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧هـ ، وحضر الخليفة حفل إجرائه فى جماعة كبيرة من الجند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية ، هو الجامع الأعظم ، الذى مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه فى شهر رمضان سنة ٥٦٧هـ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باسُه ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبناؤون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدوة ولاسيما مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت فى أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمرانها ، وأهميتها كمقر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العدبّس أو ابن عدبّس وهو المنسوب للقاضى عمر ابن عدبّس ، والمشيد فى سنة ٢١٤هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثف سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بنى عبّاد أيام دولتهم ، فى إنشاء مثل هذا الجامع لانهماكهم فى شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصف ، وإهمالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر فى بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطانة تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة

مما لايقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وبقى فى ميزانه ذخيره ورحمة له مقدمة ، قارب له جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته » .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باسُه ، والنظر على النفقة أبوداود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الجوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصناع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشياخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالجد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراكش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم . على أن هذا الجامع لم يفتتح للصلاة بصفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢م) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيلت الخطبة من جامع ابن عدبّس من ذلك التاريخ[١] .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ أ و ١٦٨ أ و ب ١٦٩ أ ، وفى المطبوع وروض ص ٤٧٤ — ٤٧٩ القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين فى بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولاسيا المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى فى هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحالت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط يمتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وسخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التى أنشئت فيما بعد بتفافيحها الذهبية الثقيلة[1] .

وسنرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهى المنارة الشهيرة التى مازالت قائمة حتى عصرنا فى مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبى يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضى النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبذة هدفاً لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثة البنيان قريبة الإسكان »[2] أو بعبارة أخرى لم يتأثل عمرانها ، ولا أهباتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدهم فى نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم[3] . وإنه ليبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أى حال ، فقد اتخذ الخليفة أهبته لتلك الغزوة ، وخرج فى قواته من إشبيلية فى فجر يوم الاثنين الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ (٦ يونيه سنة ١١٧٢ م) ، فوصل إلى قرطبة فى السابع عشر منه ، وأقام محلته فى جبل

---

(١) وقد أبدى العلامة جولدسيهر مثل هذه الملاحظة فى بحثه : Materiallen zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morgenl. Geselsch. 1887; p. 106)

(٢) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا وفى المطبوع ص ٤٧٣

(٣) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا .

فحص السرادق المطل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفى اليوم التالى دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة فى ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار فى قواته صوب مدينة القصر[1] ، فأندوجر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهنالك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج[2] القريب من بياسه ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انضوائه تحت لواء الموحدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصارى ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة فى جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير فى الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت فى ظاهره ، وعاين الموحدون ضخامته ومنعته : وروعت حاميته النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة ليمنحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم ووافق الخليفة ، ورأى فى تسليم الحصن فاتحة النجح والنصر ، وتم تسليم الحصن فى يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سار الخليفة فى قواته شمالا نحو حصن الكَرَس[3] وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصارى . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبسائط الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصارى تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجيبوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك فى اليوم السادس من ذى القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقى هذه الحملة الموحدية[4] ، سير الحملة وتنقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

---

(١) وهى بالإسبانية Alcocer .

(٢) وهو بالإسبانية Vilches . (٣) وهو بالإسبانية Alcaraz .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك فى أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ا ، ١٧٨ ب .

الخليفة فى قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[1] وهو المتصل بفحص جنجاله، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغُدُر قرب منابع نهر وادى يانه، ونزل فى سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء . ثم غادره إلى مرج البسيط ، وأقام فيه يوماً آخر ، وسار منه إلى مقربة من وادى شُقر ، حيث ارتوى الناس والدواب من ماء النهر ، وقضوا فيه يومهم للراحة . وفى يوم الخميس الثانى عشر من ذى القعدة ، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد ، أن يسير من وادى شُقر فى عسكر ضخم من الموحدين والعرب ، يبلغ نحو اثنى عشر ألف فارس، ومعهم قوة من الرّجالة والرماة ، إلى أراضى قشتالة ، صوب مدينة وبذة[2]، فسار السيد أبو سعيد فى هذا الجيش ومعه أبو العلاء بن عزون « قاضى الدولة المهدية » فى جنده ، وإبراهيم بن همشك فى جنده ، فوصلوا فى صباح اليوم التالى إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج حمل » وفيه حصن يحتله النصارى ، فافتتحوه فى الحال ، وأفنوا حاميته قتلا وسبياً ، وهدموه . وفى اليوم التالى — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة ، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين ، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة ، حتى خرج إليهم القشتاليون ، ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية ، ظهر فيها تخاذل من بعض الجند العرب ، فقتلوا ، وأسفرت المعركة حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام » . وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة[3] .

وفى خلال ذلك وصل الخليفة فى قواته إلى وبذة فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة ، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب ، فانحاز كل عسكر إلى قبيله ، واجتمع تحت رايته ، وأمر الجميع بالسير ، والصعود إلى التل الذى نزل به السيد أبو سعيد بجنده ، ليتم اجتماع القوات الحاربة ، فصعد الجند على الترتيب المذكور ، وصعد بعدهم الخليفة فى كتيبته ، ومعه أبناء الجماعة، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد ، وخلفه السيد أبو حفص وباقى الإخوة ، ومن ورائهم الرايات والطبول وعددها مائة ، وفى الحال بدأ الهجوم تحت قرع الطبول وصيحات التكبير ، بين الموحدين والقشتاليين ، واستولى الموحدون على

---

(١) وهو بالإسبانية Balazote .   (٢) وبذة هى بالإسبانية Huete .

(٣) تراجع مواقع غزوه وبذة فى الخريطة المنشورة فى ص ٤٩ .

ما كان لصق السور من مداخل أرباض المدينة ، وأحرقت الدور وهدمت ، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بخيولهم فى الجنات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفى مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزعماء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى فى أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الخشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفى صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الجرارة ، وقد اتخذت أهبتها للقتال ، وقرعت الطبول ، وخفقت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبته الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبو بكر بن الجد ، والفقيه أبو محمد المالقى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطرمت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وامتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا فى الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله فى قبته بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا النجع ، إذ كان فى نحو مائة ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخبيتهم ، وقد همهم الحال »[1] .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة فى تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

(١) المن بالإمامة لوحة ١٧٨ ا . وفى المطبوع ص ٤٩٧

العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفى اليوم التالى اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادى ، وأمر الخليفة بصنع السلالم والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى فى جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء فى ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان، فلم يُلتفت إليه ، فكرر مسعاه فى مساء نفس اليوم، فصرف بغير طائل .

وفى صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة (١٤ يوليه) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأخبية ، وفاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم فى التحوط ضد عصف الريح . وفى صباح اليوم التالى قدم الشيخ أبوحفص عمر بن يحيى من مرسية فى جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالا حافلا. ثم نزل جند الشرق بالجبل المجاور لوبذة ليعاونوا فى تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الجديد فى توجس وفزع . وفى مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار . ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت « فى أشد ما يكون من الحر » فى شهر يونيه العجمى (وصحته يوليه) .

وفى صباح اليوم التالى — الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة — هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدأون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفزع الناس من تكرر هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا فى التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ؛ وقد اكتسحت السيول المحضبة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون الى القتال وفق ترتيبهم السابق، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفى ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذى يحتله جند هسكورة ، ففروا منه منهزمين ؛ فلما علم الخليفة فى الصباح ، أمر بضربهم

بالسياط عقاباً لهم . وفى صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبى محمد عبد الله بن أبى تفرجين ، وإبراهيم بن همشك ، ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار فى المعسكر الموحدى ، وكاد أن ينعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكدرة المثبطة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض هممهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا لله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبنتم وحنثتم الله عز وجل ، ونكلتم وما نصحتم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعاينوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم فى حق الله تعالى من الجهاد على كثرتكم من الأعداء »[1].

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسليم بالأمان ، فوجه عبد الرحمن بن أبى مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا[2] ، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته فى تسليم المدينة بالأمان ، وكرر هذا المسعى مرتين فى نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأشياخ من الموحدين والعرب إلى خيمته — القبة الحمراء — للبحث فيما يجب عمله ، وفى نفس الليلة — ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة — أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفى الصباح ضرب الطبل الكبير إيذاناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج فى المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا فى الانسحاب ، خرجوا فى قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجموا الموحدين وأشعلوا النار فى البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب المحلة ، وقتلوا

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٨٠ أ وفى المطبوع ص ٥٠١

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرقو » .

الضعفاء والمرضى ، ونشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد الهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص فى أهل تينملل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت فى المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك وأبو العلاء بن عزون فى عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة (قونقة) ونزل فى فحص به الماء على قيد بضعة أميال من وبذة ولحقت به قوة المؤخرة فى المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب فى سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات فى طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، فى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفى عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه إخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشياخ من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة . وكان يرافق هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة فى جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الحوف خندق عميق قد حفر فى الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائل ، وفى فحص المدينة تقوم الكروم وأشجار الجوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرّح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سألهم عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعمائة ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالا ، وللراجل ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين

بقرة لم يكن فى محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسى والسهام ، والسلاح ، وأمر بأن يمدهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس الأكابر والأشياخ فى تزويدهم بمختلف الأعطية والصلات .

وفى اليوم التالى أمر الخليفة بحصد الزروع ، التى للنصارى فى تلك المنطقة وسوقها ، ولكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دى لارا ، فلما علم الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادى شُقر ، وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفزع كذلك الذى حدث يوم الإقلاع من وبذة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شُقر ، ونزل بالجبل المتصل بمدينة قونقة لحصانته ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت فى فى جبل تونيس ، فى الناحية المقابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ، وفى صباح اليوم التالى ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأى على أن يقاتل الموحدون النصارى فى الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجبنوا عن اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبى العلاء ابن عزون للموحدين فى نية القتال ، وفى الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبى العلاء واشتبكت مع النصارى فى عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفى اليوم التالى تأهب الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء فى بعض قواته ليستطلع أمر العدو ، ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أقلعوا عن محلتهم منصرفين إلى بلادهم . فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ، وفى اليوم التالى استأنف سيره حتى وصل إلى وادى تامطة ، وقد ظهر الإعياء على الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادى برج قُبالة فى طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرح الجوع بالناس ، ومات الكثير منهم . وفى اليوم التاسع من ذى الحجة عبر الموحدون الربوة العالية المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قنطرة « أغربالة »[1] وقد اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

(١) وبالإسبانية Puente del Cabriel

وفى ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تميزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفى صبيحة اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد فى ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضى تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحى ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبذاق على مقربة من حصن ركّانة ، ووصلوا فى اليوم التالى إلى ركّانة ، وقد اشتدت المجاعة بين الناس . وينوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، فى غير موضع ، بما كان يعانيه الجيش المنسحب من نقص فى المؤن ، وغلاء شديد فى أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركّانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر فى شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والألم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذى يلتقى فيه نهر شقر ونهر أغربالة (كبريل) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير فى اليوم التالى ، ونزل الخليفة قريباً من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة[1] .

ووصلت إلى الخليفة فى هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه والى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوت والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئاً سوى بعض التين الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونضرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان بادياً عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزداد . وقضى الخليفة فى محلته ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره فى قواته فوصل إلى مدينة شاطبة فى السابع عشر من ذى الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتهز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير فى ظل العهد الجديد .

---

(١) تراجع مواقع غزوة وبذة وارتداد الجيش الموحدى فى الخريطة المنشورة ص ٤٩ .

وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة[1] على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف ، ثم إلى ألش ، ووصل إلى أوريولة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وغادرها فى اليوم التالى ، قاصداً إلى مرسية ، فنزل أولا بحصن أنوط[2] على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تخفق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالا ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسرارى البارعات فى الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزيلة .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة فى الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا فى هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معاقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف فى مجلسه ، وأبدى لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر فى الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والثغور ممن ثبت إخلاصهم وصلاحهم .

وفى أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

---

(١) هو بالإسبانية **Villena** .

(٢) هو بالإسبانية **Monteagudo** ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .

فى طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ (نوفمبر ١١٧٢م) . ومعه الإخوة وفى مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجد ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش فى الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا فى قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكناهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد بإشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وعيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالى ، ويشتركون فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى تقريباً لهم وتشريفاً وتأنيساً ، وكان غانم يخرج فى قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيها بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلا طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفاصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والتى سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلى به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التى لم يطل أمدها أكثر من شهرين ما تجلى تحت أسوار مدينة وبذة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز فى أسطع صوره متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبذة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسبما أسلفنا فى موضعه . وهذا غير المتطوعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنعة مثل وبذة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولا وقبل كل شىء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الذين يلتفون حول الخليفة الموحدى، ويديرون دفة الغزوة، هيئة قيادة مقتدرة ، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح ، وكان مجلس القيادة يتخذ فى معظم الأحيان صورة اجتماع عائلى ، تغلب فيه الآراء الفطيرة ، والقرارات المرتجلة ، وبدلا من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه ، أو ليحثهم على التفانى فى القتال، نراه فى اللحظة الحرجة التى هزم فيها أهل الأندلس ، وأجلوا عن مواقعهم ، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم فى بعض المسائل الفقهية . ويجدر بنا ونحن نتحدث فى هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلا إلى الوراء ، لنذكر ما كانت عليه القيادة المرابطية فى شبه الجزيرة من المقدرة والكفاية ، وما كان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدربة العسكرية العالية ، وهى التى مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة فى مواقع مثل إقليش وإفراغة .

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبذة ، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك ، وانعدام التناسق بين مختلف العناصر التى تتكون منها . وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعة هذا التفكك ، فقد رأيناهم يضنون بتعاونهم ، ويحجمون عن القتال فى الساعات الحرجة ، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى ، وينال من مقدرته وقواه المعنوية . أضف إلى ذلك ما كشفته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات، وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية(١)

— ٤ —

فى الوقت الذى نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية ، ليستريح من وعثاء حملته المنكودة على وبذة ، كانت تحدث فى الجانب الآخر من شبه الجزيرة فى غربى الأندلس ، حوادث هامة ، موسفة فى نفس الوقت . وكان ملك البرتغال منذ فتت فى عضده نكبته فى معركة بطليوس فى شعبان سنة ٥٦٤ (١١٦٩ م) قد لزم السكينة حيناً ، وهو يرقب الحوادث والفرص ، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها فى إشبيلية فى غزوتها إلى وبذة ، شعر بأن الفرصة قد سنحت

---

(١) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبذة من كتاب « المن بالإمامة » نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ أ إلى لوحة ١٨٩ ب . وفى المطبوع ص ٤٨٧ – ٥٠٢

للعمل ، وكان يطمح بعد فشله فى افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواعد ولاية الغرب فى تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقيل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصلت التينملى مدى حين ، ولكنه لم يفلح فى تهدئة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقربهم وأدناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلا بدوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونه فى طغيانه وعسفه قاضى البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار فى كل شىء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلما وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة فى أواخر سنة ٥٦٧ ﻫ (صيف سنة ١١٧٢ م) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير فى جيوشه إلى غزوة وبذة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يحتلون يابرة وقصر أبى دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكيز عدته لافتتاح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونه جيرالدو سمبافور فى قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار (حراس) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبة المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . فنى ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ ﻫ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢م) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لإنزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلالم على برج القصبة دون أن يشعر بهم أحد من السُّمَّار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبة ، ثم احتلوا القصبة فى الحال . وساد الذعر فى المدينة ،

وتدلى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم يمكثوا طويلا بباجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك فى أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثيراً من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم هؤلاء فيما بعد بالفداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراكش[١] .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب منذ وصوله إلى إشبيلية بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسبما تقدم فى موضعه . وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية . بيد أنه لم يمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

فنى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ (مارس ١١٧٣ م) خرجت من مدينة آبلة حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بالقومس « سان منوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحدب عظيم النصارى بآبلة — وقد كان بالفعل أحدباً — وتسميه أحياناً « بأبى بردعة » إذ كان لعاهته يركب على بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر[٢] . وكان الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

---

(١) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى (البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموجزة التى يقدمها إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينسب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر سنة ١١٦٢ م) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . (كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ ب) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

فى بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيثه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبلة واخترق قلب الأندلس جنوبا ، حتى عبر نهر الوادى الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث فى واديها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلا ، ثم سار بغنائمه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القُصير . وكان الخليفة فى تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غارتهم ، فخرج من إشبيلية فى الثالث عشر من شهر شعبان (٥٦٨ هـ) جيش موحدى بقيادة السيد أبى زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجالة العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادى الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها فى السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبى حفص عمر ، واستقر الرأى على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو فى أراضى قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالمِيرة والعلوفات ، وخرج الموحدون فى أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبى عمران موسى بن حمّو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تباعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا فى سهل متسع يعرف بفحص «كركوى» على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء فى هذا المكان ، فاستعدوا للمعركة فى عزم وثقة ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لامفر من القتال ، لجأوا إلى جبل وعر فى نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته فى أعلى الجبل ، ويحث جنوده على التفانى فى القتال ، ولكن ما كاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا فى مختلف الأنحاء . وفنى فى هذه المعركة معظم أهل آبلة ، واستولى المسلمون على عتاد

النصارى ، وأسلابهم وخيولهم ، واستنقذوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبي حفص وابنى الخليفة « ومبزت» رأس الكونت خمينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشبيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أبي العلاء بن جامع فوصل إليها فى ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الموقعة المظفرة ، وفى الحال قرعت الطبول إيذاناً بالنصر ، وأقبل الناس للتهنئة . وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الموقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشبيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أبى حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأشياخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهنئون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولا باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الجد ، فالقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبو محمد المالقى. ثم أنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلات ؛ وكان يوماً حافلا[1] .

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة إشبيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سامت أحمال الميرة إلى واليها أبى غالب بن أبي الحسن ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجُه غرب طليطلة ، فعاثت فى بسائطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشبيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطلة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشتد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، ثم تلاه

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب وفى الموضوع ص ٢١٨ — ٥٢٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٩ .

ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله فى طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصارى ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨ ﻫ (يوليه سنة ١١٧٣ م) . وكان مما حمل الخليفة على إيثار الصلح والمهادنة رغبته فى التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التى خربت أو أقفرت من جرّاء العدوان والغزو ، مثل باجة وغيرها[1].

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جيرالدو سمبافور أو جراندة الجليقى ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت فى وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول فى خدمة الخليفة ، فسار فى صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية (سنة ٥٦٨ ﻫ — ١١٧٤ م) والتمس قبوله « عبداً وخديماً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكيز ، الذى لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سراً ، أن يتحيل فى الارتداد والعود ؛ فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جيرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سجلماسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جيرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفى رواية أخرى أن جيرالدو لبث فى خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة إشبيلية إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ ﻫ (مارس ١١٧٦ م) ، فسار فى ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة فى « السوس » وهنالك اتصل جيرالدو بالمكاتبة سراً بمليكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولا لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل[2] ، وأصدر الخليفة أوامره سراً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جيرالدو

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ ا و ب وفى الموضوع ص ٢٥٢ — ٥٢٧ . وهنا ينتهى السفر الثانى من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذى وصـــل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شىء من السفر الثالث الذى يبدأ بحوادث سنة ٥٦٩ ﻫ .

(٢) أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيذق إن مصرع جيرالدو كان فى سنة ٥٦٥ ﻫ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع H. Miranda : Imperio Almohade, T. I. p. 271

وأصحابه على القبائل ، ثم يقتل جبر الدو لما ثبت من خيانته ، وبعث بجبر الدو إلى درعة فسار إليها مع أصحابه ، وهنالك نفذت فيهم أوامر الخليفة .

وكانت أهم الحوادث فى العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص فى اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفى تجدد الحرب مع ملك ليون .

وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرقى إشبيلية على النهر المتفرع من الوادى الكبير[1] ، وكان قديماً حصنها الشرقى ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقى خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبنائه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك فى صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفى العام التالى كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التى خربها وهدمها ألفونسو هنريكيز قبل إخلائها . ففى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفداً من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكى يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتى شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصلت والى شلب فى نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا فى بناء أسوارها فكملت فى نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل فى التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد والى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصلت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمرانها ورونقها[2] .

وفى أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدين وبين فرناندو الثانى ملك ليون المسمى «بالبيوج» ، وكان فرناندو قدعقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، وعاونه الموحدون فى حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

---

(١) وهو بالإسبانية **Alcalá de Guadaira** ويسمى كذلك قلعة جابر .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٧ .

عليها ، صدق ولائه ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البرتغاليين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبهه الموحدون إلى الحلف المعقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته فى عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ (٣ سبتمبر ١١٧٤ م) ، وسارت تواً إلى مدينة ردريجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسميها الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط »[1] ، ومعه الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى صحبه ، وهاجم الموحدون مدينة ردريجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة[2] . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سنرى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضى المسلمين .

• • •

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسناء زائدة إبنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيش ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهداه إليه إخوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان يضرب المثل بهذا الحب للحسناء ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيش لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كنفه رفيع

---

(١) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة elbdad القشتالية ومعناها المدينة .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٤ .

المناصب والرتب ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذى شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو فى بلاط عدوه القديم المتغلب عليه[1] .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام، منذ مقدم الخليفة فى رمضان سنة ٥٦٦هـ . ولم تدون الرواية فى الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته فى الوادى الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أوثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبى على الحسن على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبى الحسن على ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية فى ركبه فى يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ (٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م) ومعه الخواص والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادى الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة، وأقام بها أياما ، ثم غادرها إلى مراكش، فوصلها فى منتصف شهر رمضان من نفس العام (٢٨ مارس سنة ١١٧٦م) .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ . وكذلك : A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 552

الفصل الرابع

أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشائر صنهاجة وإخمادها . غزو النصارى لمدينة قونقه وحصارها . غزو الموحدين لأراضى طليطلة وطلبيرة . استمرار النصارى فى حصار قونقه . سقوطها فى أيديهم . غزو ملك ليون لفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جند باجة للغزو وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلاؤها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبنى جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لثغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضى يابرة . غزو البرتغاليين لأراضى إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحصن القصر . غزو القشتاليين لأراضى قرطبة . توغلهم فى وادى إشبيلية وجنوبى الأندلس . استيلاؤهم على حصن شنتفيلة . غزو الموحدين لحصن شنتفيلة وحصاره . صموده وإقلاعهم عنه . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحواز طلبيرة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبى حفص . ثورة بنى الرند بقفصة . مسير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المنتصر مع بنى الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين فى اصطناع العرب . دأبهم فى التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . مسير الخليفة إلى تينملل . زيارته لقبر المهدى وقبر أبيه . قصيدة فى مناقب المهدى وصحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبى الحسين وأسره . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبى يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة فى أول شهر ذى القعدة (سنة ٥٧١ هـ) واشتد حتى بلغت ضحاياه كل يوم نحو مائتى شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوهم السيد أبو زكريا والى بجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسن ، وكان الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفى بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفيا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبى على الحسن ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم فى القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروع حاضرة مراكش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أو يخرج منها أحد، وكان كل من خرج منها فارا ، أدركه الوباء فى الطريق . ولم يكن عصف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضى أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضى مراكش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلا وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقى ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن على بن زيد الإشبيلى ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلح ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين فى مختلف القواعد[١] .

وما كادت تنقشع غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبلية ، وذلك فى أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها فى الرابع من شهر ذى القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة فى منطقة الأطلس ، جنوب شرقى مراكش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراكش فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، ولم تلبث العشائر الثائرة أن أذعنت وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد[٢] .

وفى تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء فى الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دى لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، فى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣م) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ما كاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصارى على نقض الهدنة ، واستئناف الغزو . فى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) وهى السنة التى عصف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .

ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، واتجها بقواتهما صوب مدينة قونقة (كونكة) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهرى شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعة ، وضربا حولها الحصار (يناير سنة ١١٧٧ م) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وان ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبلة ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم[1]. فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والنجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على الحسين والى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على والى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقه . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال (أبريل ١١٧٧) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثخن فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة. وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر إشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالا صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبى والغنائم ، وعبر نهر تاجه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إنجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولا مناعة المدينة المحصورة ، ولا ضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهاقها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد ماشرة لإنجادها ، لكن هذه الأمداد عاقتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

---

(١) Mariana : Historia General de Espana; Lib. Undecimo, Cap. XIV.

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، جرياً على القاعدة المأثورة ، ثم جعلت قونقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قونقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدين أوقصورهم فى إنجادها وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكرى خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية[١] .

وانتهز فرناندو الثانى ملك ليون (الببوج) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، وغزا فحص إشبيلية ، ووصل فى سيره حتى أحواز مدينتى أركش وشريش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طلبيرة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضيهم ، فأحدق بها الموحدون وأبادوها ، واستنقذوا ما كان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانين ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهنالك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشياخ[٢] .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو زميليه ملكى قشتاله وليون ، وقد اعتزم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) ، وانتسف زروعها ، ونازلها أياما حتى كاد أن يتغلب عليها . ثم تركها وسار بقواته ، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فدخلها وأثخن فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدها خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابتهم محنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن واليها عمر بن تيمصلت خرج منها بجندها وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزير حاكم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحص أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شنترين فجأة ، وانضموا

---

(١) راجع البيان المغرب — القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :
M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١١١ .

إلى إخوانهم فى مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرا مع جملة من الفرسان والرجالة، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم فى الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٥٧٤ (يوليه ١١٧٨ م) وحُمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، وافتُدى ابن وزير بأربعة آلاف دينار[1] .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة فى صورة أخرى ، فتقول إن الذى قام بغزو وادى إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكيز وولى عهده ، وذلك فى سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأنه بعد أن هزم الموحدين فى ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لَبلة، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت الهاجمين ، ثم لحق بها بباقى قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة فى حوزة البرتغاليين[2] .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا على الحسين والى إشبيلية ، وأبا الحسن على والى قرطبة إلى حضرة مراكش ، فغادرا إشبيلية فى اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ (٢٧ فبراير ١١٧٨م) ، ومعهما أبو على بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية ، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلا فى شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصارى ، والدفاع عن أراضى المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها فى المحرم سنة ٥٧٤ هـ (يونيه ١١٧٨ م) .

وفى نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنيه ، فقبض عليهم ، واستصفى أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها فى فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفى الخليفة أبو يعقوب، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف. وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدى ، منذ بداية حكمه ، أى منذ خمسة عشر عاماً ، وعميدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

---

(١) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278

المهدى ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فنكبهم أبو يعقوب ليتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العمال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف سجلماسة ، وأبو الحسن على بن حنون ، وغيرهم[١] .

وفى سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابنى السيد أبى الحسن والى قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى أخو الخليفة السيد أبو على الحسين والى إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان واليا لمدينة سجلماسة . وتوفى من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبى يعقوب ومجلسه ، وهما أبو على بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبو محمد المالقى شيخ طلبة الحضر بمراكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظى لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبى يعقوب ، وعلت مكانته فى الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتح ، ويتقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء فى المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة فى الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيما فى الزهد[٢] .

— ١ —

وفى العام التالى أعنى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتد عدوان البرتغاليين فى البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكيز قد نقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادى إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسبما قدمنا ، ثم تفاقم عدوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العدوان ، فبعث أسطوله المرابط بسبتة تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبتة . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ ا .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة فى مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا فى الأسر حتى افتداهم الخليفة أبو يعقوب[١] .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء، وأمر لانشغاله بغزوة قفصة التى نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، فى حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، ورست عند سان مارتن دى بورتو شمالى أشبونه ، ونفذ المسلمون إلى الداخل، وحاولوا مهاجمة « بورتو دى موس » . التى تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالى الأميرال روبينو استنفر لمعاونته أهالى مدينة شنترين ، وألكانينا التى تقع فى شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كيناً للمسلمين فى جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فمزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الموقعة فى منتصف شهر المحرم سنة ٥٧٦ هـ (١١ يونيه سنة ١١٨٠م) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغوث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر فى فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصارى ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[٢] ، ولكن سنرى أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن افتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يُتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولا ضخماً سار بحذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روبينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدى . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذى تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج فى نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبى العباس الصقلى ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بثغر قادس ، ثم سارت منه مجتمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبى ، ثم انعطفت لتسير شمالا بحذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالى قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب ، فالتقى الفريقان قبالة رأس إسبكل

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبى أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ (أواخر مايوسنة ١١٨١) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذى وقعت فيه موقعة « بورتودى موس » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روبينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبادر القائدان الظافران ابن جامع والصقلى ، فسارا إلى الحضرة فى الأسرى ، والغنائم وقدماها إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقين(١) .

وقام القشتاليون فى نفس الوقت ببعض الغارات فى أراضى الأندلس من ناحية طليطلة ، وأثخنوا فيها كالعادة تخريباً وسبياً ، بيد أن المعركة الرئيسية ،كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضى البرتغال الداخلية ، ففى فاتحة سنة ٥٧٧هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبى عبد الله محمد بن وانودين الهنتاتى ، وسارت نحو الشمال الغربى صوب مدينة يابرة وعاثوا فى أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يثخنون فى كل ناحية من نواحيها . وفى ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولجأ الباقون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم فى طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبى رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلا بالغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧هـ (يونيه سنة ١١٨١ م)(٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعبرت نهر وادى يانه ، وسارت حتى فحص الشرف من أحواز إشبيلية ، فخرج

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .

إليهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصارى مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك فى المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون فى نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضى قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علما بما حدث[1] .

وفى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضى الأندلس . فخرجت حملة برتغالية قوية قوامها فرسان شنترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادى يانه ، واجتاحت الشرف جنوبى إشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوقة[2] ، على مصب الوادى الكبير ، فنازلتها فى ألف فارس وألف راجل ، واقتحمتها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر[3] وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لبلة ، دون أن يقف فى سبيلها أحد . وتفاقم فى نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية فى قواته ، وسار أولا صوب قرطبة ، وعسكر فى ظاهرها ، وذلك فى الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب فى تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحدين الدفاعى حول إشبيلية ، والتحوط لحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يثخنون فى الأراضى الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يردهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازلة مدينة إستجة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكومى استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث فى تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفى خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) وهى بالإسبانية سان لوكار Sanlucar la Mayor

(٣) وهو بالإسبانية Aznalcázar

فى أراضى رندة والجزيرة ، واسـتولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة[1] أخطر ما حققه القشتاليون فى تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون فى السابع عشر من صفر (٢٢ يونيه ١١٨٢ م) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بين رجال ونساء، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف راجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالأقوات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية» . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك فى قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨هـ (١٧ يوليه ١١٨٢ م) بعد أن قضى فى غزوته خمسة وأربعين يوماً[2] .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس برسم الجهاد ، وخرج فى قواته فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ هـ . وحدث فى نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها، وقاتلوها وهزموها، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، واستاقوا الأسرى إلى السيد أبى إسحاق فأمر بإعدامهم فى الطريق . وشجع هذا النصر المحلى، الموحدين على منازلة حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والدواب ، وفى خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن فى قواته من طليطلة قاصداً إنجاد الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدين فى السادس من جمادى الأولى، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية. وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجد به سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

---

(١) وهو بالإسبانية **Santafila**

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩

الرجالة سمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك فى الخامس عشر من جمادى الثانية (١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م)[١] .

وما كادت تنتهى غزوة شنتقيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبوعبد الله بن وانودين بحشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ ﻫ (٩ سبتمبر ١١٨٢ م) ، غادر إشبيلية فى عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بتة ، وهنالك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طلبيرة الواقعة غربى طليطلة على نهر التاجُه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قاتماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طلبيرة دون أن يفطن النصارى إلى مقدمه ، وهنالك التقى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأحدقوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجُه ، لم يجدوا أمامهم مغنما ، فعلموا أن الدليل الفار قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طلبيرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا محلتهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة منصرفين ، بعد ما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجد النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسبما تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم . وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين ، وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبى إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التى نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله فى خطابه إليه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التى أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبى يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتاتى من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ فى مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن فى مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه فى سائر غزواته فى إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر فى محاربة ابن مردنيش ثم فى هزيمته لنصارى شنترين ، وفى قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم فى رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً فى غزوة طلبيرة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لأتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية فى العام التالى ، حيث وشى فى حقه الوشاة ، فأمر بتغريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نزح إلى تونس واستقر بها[1] .

— ٢ —

نرجع الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض ما حدث فى المغرب فى تلك الأعوام القلائل التى اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتى شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، فى تلك الفترة ، وفاة السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبى يعقوب ، وكان أبوحفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسبما تقدم حرة هى زينب بنت القاضى موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ ﻫ (أغسطس

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣٢ .

١١٧٩ م) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة فى الدولة الموحدية ، وقد تولى فى فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومى . ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بثغر سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهنتاتى كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبى يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له فى البداية منصب الحجابة على نحو ماكان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط فى حملة شرق الأندلس، وفى الأعمال الحربية التى انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل فى دولة أخيه الخليفة أبى يعقوب أعظم مكانة ، وفى تدبير الأمور والبت فيها أعظم نصيب.

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبى القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة منذ ضعفت دولة بنى باديس الصنهاجيين بإفريقية ، منزل إمارة محلية فى ظل بنى الرند ، وعميدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تباعاً ، وبسط سلطانه على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه فى الإمارة ولده المعتز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعتز . ولما قام عبد المؤمن فى سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بنى الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة واليا موحدياً . وكان والى قفصة الموحدى حينما وقعت الثورة، عمران بن موسى الصنهاجى ،وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لفيف من أهلها إلى بجاية فى دعوة على بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل، فقدم إليهم، واضطرمت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه فى ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد على بن المنتصر من بجاية[1].

فلما نميت هذه الأنباء إلى الخليفة أبى يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج فى قواته من مراكش فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ (مارس سنة ١١٨٠م) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التى كانت تعطى للعسكر فى تلك الغزوة كانت تبلغ فى كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذى حشد[2]، واستمر الخليفة

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

فى سيره وئيداً ، واحتفل فى الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسبقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة فى قواته إلى تلمسان فى أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبئته ، خرج من تلمسان فى الثانى عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الثائر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار فى الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثول لديه ، وتأكيد ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالمجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيذق ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك فى رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد على أبى الحسن ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبى موسى[(١)].

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه فى استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم فى الجهاد بالأندلس . وقد شرح لنا هذه المساعى فى رسالة الفتح التى وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبراؤهم من جميع الأنحاء ، ذُكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابغ فى نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يحذوا حذو أسلافهم فى الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه فى ذلك هو المساهمة فى الجهاد بالأندلس ، وغزو النصارى بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم فى الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل فى الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التى تفضلها وتراها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ فى الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٤١ ، و ١٤٢ .

قومه ، وبادر الجميع بالامتثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد فى سبيله . وينوه الخليفة فى رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ، وكوتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا فى نفس الوقت ، أملا فى استمالتهم واستجلابهم إلى مشاركة إخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية فى استمالة القبائل العربية النازلة بإفريقية وحشدها فى الجيوش الموحدية ، وهى الخطة التى وضعها الخليفة عبدالمؤمن منذ افتتاحه لثغر المهدية فى سنة ٥٥٥هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبو يعقوب وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو أولا تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك لما كان من استطالتهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانيا لاستنفارهم إلى الجهاد والاستعانة بهم فى تدعيم الجيوش الموحدية المرسلة إلى الغزو بالأندلس . وقد استطاع الخليفة أبو يعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية فى غزوة وبذة وفى محاربة النصارى فى مختلف الميادين فى شبه الجزيرة . ولما أراد أبو يعقوب العودة إلى المغرب فى سنة ٥٧١هـ ، فرق العرب الباقين فى مختلف القواعد ، فأنزل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى نواحى إشبيلية الجنوبية ، مما يلى مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تجن خيراً من هذه الخطة فى استمالة العرب وحشدهم إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يتسمون به من حب التقلب ، ومجانبة الولاء ، والسعى إلى اجتناء المغانم المادية بأى الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها فى منطقة إفريقية[1] .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ، النورمانى ، وهو يومئذ وليم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

---

(١) راجع رسالة الخليفة أبى يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه فى حشد العرب فى كتاب « مجموع رسائل موحدية » . الرسالة السادسة والعشرون ص ١٤٩ — ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب للمراكشى ص ١٢٤ و١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهدية ، وقضى على سلطانهم فى شواطئ إفريقية قبل ذلك بعشرين عاما ، يخشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها .
ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً وذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع فى تابوت مصحف عثمان ، الذى كان يبالغ الموحدون فى تكريمه[١].

وعلى أثر افتتاح قفصة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراكش ، وإلى الأندلس — إلى إشبيلية وقرطبة — وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طبيبه العلامة الفيلسوف أبى بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالجيش الموحدى ، وقد جاء فى أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى ... أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت ... مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق ... كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ... ولم يتركوا بالشرق علقة آيب
وأذعن من عليا هلال بن عامر ... أبى ولبى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض الفيافى وطولها ... وقد زحموا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبى إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية للتهنئة ، وخطب بين يديه الفقيه ابن الجد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حلى المنى ... بقفول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لخائف ... وانهل أثر المحل سكب غمام[٢]

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراكش ، فوصل إليها فى شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدوة لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٢ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهنئة ، وأقامت هـذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفى خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهى قبيلة المهدى ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذى يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة فى بعض عسكره من مراكش فى أول صفر سنة ٥٧٨هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدى وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بقليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبى بكر بن زهر ، وأبى الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلا عن القبرين الغار الذى فى جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدى والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسرى ، وكان الناس يأخذون التراب منهما للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم فى رثاء المهدى ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة (١) .

وكان مما قيل بهذه المناسبة ، فى ذكر مناقب المهدى ، وشرح أسطورته ، والإشادة برسالته ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وفد على أبى يعقوب بتينملل ، وأنشد قصيدته على قبر المهدى ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام الممجد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبه فى خلقه ثم فى اسمه	وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيى علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا	بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً	ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وإنه	علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان واسم والمكان ونسبة	وفعل له فى عصمة وتأيد

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ – ١٢٢ .

وتتبعه للنصر طــائفــة الهدى ... فأكرم بهم إخوانُ ذى الصدق أحمد
هى الثلة المذكور فى الذكر أمرها ... وطائفة المهـدى بالحق تهتــدى
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطــع أيـام الجبــابرة التى ... أبادت من الإسـلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنـوة ... ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمــة ... ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويغـــدون للدجال يغزونه ضحاً ... يذيقــونه حد الحسام المهنــد
وينزل عيسى فيهم وأمـــيرهم ... إمام فيــدعوهم لمحراب مسجد
يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم ... بتقـديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجــوههم ... ويخـــبرهم حقاً بعز مجــدد
وما أن يزال الأمر فيه وفيهم ... إلى آخر الدهر الطــويل المسرمد
فأبلغ أمـــير المؤمنين تحيـــة ... على النأى منى والوداد المؤكــد
عليه سـلام الله مادر شــارق ... وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعد الشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام ، وكان نظمه إياها أيام حياة الخليفة عبد المؤمن[١].

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٧٩ هـ ، كانت توسعة مدينة مراكش . وكانت العاصمة الموحدية ، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب ، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن ، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط ، وعلية القوم ، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس ، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها ، وحركة عمرانها الضخمة . وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم ، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكناها ، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم ، فشكوا إلى الخليفة أمرهم . فعندئذ رأى الخليفة أنه لابد من العمل على توسعة المدينة ، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبى يوسف

---

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ — ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها ، وينفرد المراكشى بذلك بين المصادر الموحدية .

يعقوب بتلك المهمة ، فركب فى يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ إنشاء الدور والرباع بسرعة فى هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية[1] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكدر . ذلك أن طوائف العرب من بنى سُليم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبوالحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر الفرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأحدقوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . (جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر فى الحال غزو بنى سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس[2] .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبى زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذى كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبى زكريا وحوسب مدة ، ثم نفى إلى بطليوس بالأندلس ، وبقى ابنه على فى السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير .

ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيرى من مراكش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشى بطش ولاة الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنصور .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ (٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

الفصل الخامس

غزوة شنترين

ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس. ولاة الأندلس وقضاتها الجدد . قسمة السلاح والعتاد . مسير الخليفة إلى رباط الفتح . الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس . مسير الخليفة إلى مكناسة ، ثم إلى فاس . تعيين السيد أبى حفص لقيادة العرب ، وبعض السادات لقيادة الموحدين . مسير الخليفة إلى سبتة . جواز قبائل العرب فقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة . عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية . أقوال ابن صاحب الصلاة . اختيار مدينة شنترين هدفاً للغزوة المنشودة . حكمة هذا الاختيار وبواعثه . منشآت الخليفة بإشبيلية . خروج الخليفة فى قواته إلى بطليوس . تحالف ملكى قشتالة وليون ضد الموحدين . ملك ليون يحاصر قاصرش . الرواية النصرانية عن خطة الموحدين . رفع الحصار عن قاصرش مسير الموحدين إلى شنترين . عدد الجيش الموحدى . شنترين وموقعها . أشبونة هدف الغزوة الموحدية. محاصرة الموحدين لشنترين . اقتحامهم الربض الخارجى . اعتصام النصارى بالقصبة . المعارك بين الموحدين والبرتغاليين . أمر الخليفة بالكف عن القتال . تحول الجيش الموحدى عن موقعه . صدور الأمر بالرحيل . غموض بواعث هذا الأمر . رواية فى تعليله . رواية أخرى فى شرح ما حدث فى المعسكر الموحدى . شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب . ما حدث خلال الانسحاب من الفوضى والاضطراب . مهاجمة النصارى لساقة الجيش المنسحب . وصولهم إلى محلة الخليفة . جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير . بعض روايات عن هذا الحادث . رواية أخرى عن مرض الخليفة ووفاته . أسباب نكبة الجيش الموحدى . مسير الجيش وكتمان وفاة الخليفة . التوقف فى طرش . اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبى يوسف يعقوب . الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة . انقضاء الغزو والأمر بالرحيل . مسير الركب الخليفى إلى طريف . عبوره إلى العدوة . المسير إلى رباط الفتح . الخليفة أبو يعقوب . حزمه وتقواه وعلمه . حرصه على تنفيذ حكم الشرع . مطاردته العمال الظلمة . خبرته بشئون المملكة . شغفه بالجهاد . علمه وأدبه . تمكنه من الحديث والفقه واللغة . دراسته الفلسفة والطب . صلاته بابن طفيل وابن زهر وابن رشد . كيف وضع ابن رشد شروحه لأرسطو . ابن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء . شغف أبى يعقوب بجمع كتب الفلسفة . أثر من آثاره العلمية . كلفه بالمنشآت العمرانية . وزراؤه وقضاته وكتابه . أبناؤه وصفته .

كان من الواضح للخليفة أبى يعقوب وأعوانه من أقطاب الموحدين ، أن حوادث الأندلس ، قد أخذت فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، تسير نحو اتجاه مكدر ، وأن عدوان الممالك الإسبانية النصرانية ، قد أخذ يشتد ويتفاقم ، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب ، وما أحرزوه من انتصارات فى البر

والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسّطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لابد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩هـ ، حينما أمر الخليفة بتمييز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمى أمامه، فى منطقة البحيرة خارج مراكش، واستمر تمييز الجند طوال شهر جمادى الثانية (سبتمبر ١١٨٣م) . وفى شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضى أبى الوليد بن رشد ، والسيد أبوزيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو. وأصدر أمره فى نفس الوقت بتوليه أبى المكارم ابن الحسين المصرى لقضاء إشبيلية ، وأبى الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبى عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة فى السابع والعشرين من شعبان .

وفى منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، وخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجّالة . وفى يوم السبت الخامس والعشرين من شوال (فبراير ١١٨٤ م) صدرت الأوامر بالحركة، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دُكّالة ، وهو الذى يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب — والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة[1] — موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجّالة، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته المرصع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانته ، ويليه مصحف المهدى يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

---

(١) يدفعنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة فى السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجعة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة فى مواطن كثيرة .

إخوته خلفه ، ووصل الخليفة فى ركبه الضخم إلى سلا فى الثالث عشر من ذى القعدة ، ونزل بمدينة المهدية (رباط الفتح) ، وهنالك وفد عليه أبو محمد ابن أبى إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شغبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شرهم واستتبت السكينة والأمن .

وفى أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإنعام عليهم بالكسى والبركات والصلات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا فى هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة فى مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف يعقوب ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم فى أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد فى سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأى[1] . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأى حاسم فى شأن الغزوة التى ينوى القيام بها ، وهذا فى ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفى اليوم الثامن والعشرين من ذى القعدة ، بدأت العساكر فى الجواز على قنطرة سلا ، وفى اليوم الثلاثين غادر الخليفة فى موكبه، رباط الفتح إلى مكناسة ، فوصلها فى السادس من ذى الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرفها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمائة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفى الثانى عشر من ذى الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتا هتانة وتينملّل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٠ ، وكذلك فى روض القرطاس ص ١٣٩ .

بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم فى جموعهم فى هيئة استعداد للجهاد .

وفى يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ (٨ أبريل ١١٨٤ م) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس فى موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر فى أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحدين ؛ فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقى من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره فى الخامس من صفر (١٧ مايو) ونزل بجبل الفتح (جبل طارق) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشريش ، فوصل إليها فى عساكره فى اليوم الثالث عشر من صفر (٢٥ مايو) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفى مقدمتهم قاضيهم ابن الجد . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً فى هذا اليوم ، وإنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وانه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وان الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفى اليوم التالى لوصوله أمر بتمييز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلى بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو[1] .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادت وتنظيم الحشود ، والنظر فى كل ما يلزم للقيام بالغزوةالمنشودة ، وضمان نجاحها .

أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأى على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال فى عهد

---

(١) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص١٣٢ . وكذلك روض القرطاس ص١٣٠ .

أبى يعقوب أول مملكة نصرانية فى شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان ، وكانت مدينة شنترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فمنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التى شنها الفارس المغامر جيرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها فى قطاع بطليوس ، وهى ترجالُه وقاصرش ، ومنتانجش وشربة ، وجلمانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلائهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدين على إنقاذ المدينة ، لبقيت فى أيدى البرتغاليين . وكانت شنترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التى شنها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتى وصلت فى سيرها مرة إلى طُريانة ، وأخرى إلى الشرف ومدينة شلوقة ، وعلى الجملة فقد كانت شنترين هى المركز الرئيسى لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندها بأعظم دور فى هذه الحملات العدوانية ، والغزوات المخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شنترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكيز ضربة شديدة ، ويقضى على أهم مراكز العدوان فى البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى.

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبا يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامج منشآته العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهو الذى بدأه حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والقصور الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الرى والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته فى الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وببناء صومعة للجامع فى موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل[1] . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت فى موطنه المناسب .

— ١ —

فى صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيه سنة ١١٨٤م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ أ . وفى المطبوع ص ٤٨١

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وئيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة[1] فى طريق بطليوس ، وهنالك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت فى أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول فى ظاهرها ، وأن يجرى تميز الجند ، واستكملت الجيوش ماكان ينقصها من الزاد والميرة . وكان الوزير السابق إدريس بن جامع منفياً فى بطليوس ومعه فى المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتمسا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لها بالاشتراك فى الجهاد فأذن لها .

وكان الموقف بالنسبة للممالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضى الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسبما فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسبما تقدم ، وحذا حذو زملائه فى انتهاج هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفتهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا المعهد (يونيه سنة ١١٨٣ م) . وكان فى الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضى الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش[2] الواقعة شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر التاجُه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصارى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء فى موقفها العدوانى من الموحدين ، وفى الإغارة على أراضى الأندلس. بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان يبغى ، بعد الاستيلاء على شنترين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالا حتى نهر دويرة ، ثم يسير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

---

(١) وهو بالإسبانية Alanje .

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres .

حاضرة قشتالة[١] ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقترابها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرته مدينة ردريجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث .

وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس، وسار نحو الشمال الغربى مخترقاً الناحية اليسرى من وادى التاجُه، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شنترين ، فعبروا نهر التاجُه بقيادة السيد أبى إسحاق والى إشبيلية، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شنترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يونيه سنة١١٨٤م) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة[٢]، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شنترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه وهو يوم القديس خوان[٣] .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضخامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده[٤]، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مدهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعطار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس[٥] ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال، وافتتاح شنترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبذة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضخامة الجيش الموحدى، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسبما نشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شنترين ، وقد أتيحت لنا زيارتها ، فى شمال شرقى أشبونة على

---

(١) H. Miranda : ibid, cit. Chronicon Lusitanum p. 292

(٢) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٣) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شنترين فى السابع من ربيع الأول (ص ١٤٠) .

(٣) راجع فى ذلك H. Miranda : ibid, p. 297 & 300 .

(٤) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر (ص ١٣٥) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٥) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شنترين » ص ١١٤ .

قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت فى العصر الذى نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت فى عهدها الإسلامى ، نظراً لحصانة موقعها فى منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت فى أيدى النصارى لأول مرة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت فى حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المجاورة ، كانت شنترين وأشبونة من القواعد التى استولى عليها ، وذلك فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقيتا بيد النصارى إلى ذلك الحين. وكان الموحدون يتوقون إلى استرداد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد ولاية الغرب .

وهنالك فى الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونه كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسى [١] . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان فى نفس الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الموحدية صوب شنترين ، يسير إلى مياه أشبونه ، ثم يحاصرها [٢] . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شنترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

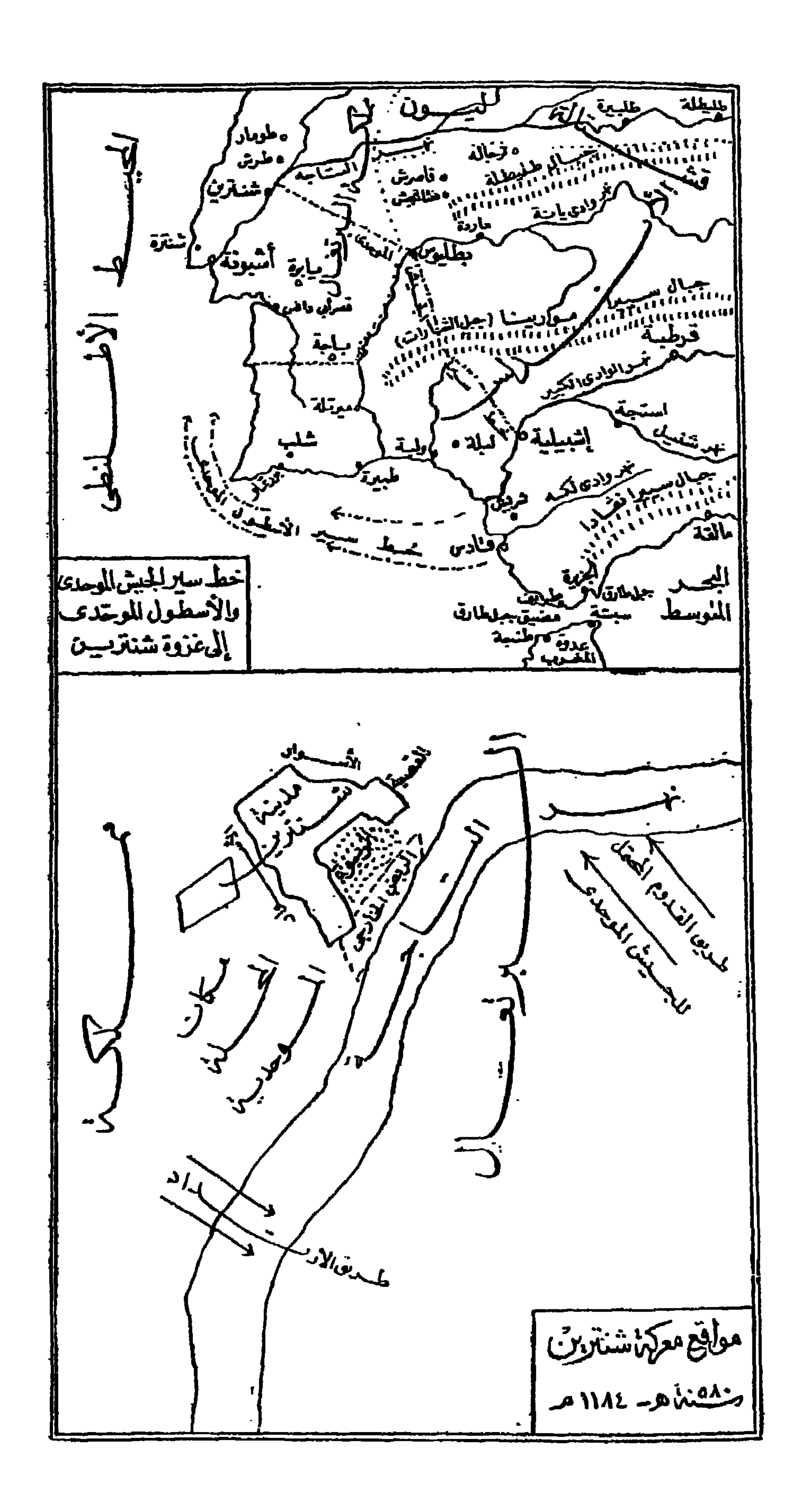
ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شنترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون فى الريض الواقع فى جنوبها الشرقى والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ملكهم ألفونسو هنريكيز ، قد احتشدوا داخل شنترين وقصبتها وجدوا فى تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها [٣] ،

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

(٣) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .


خط سير الجيش الموحدى
والأسطول الموحدى
إلى غزوة شنترين
البحر المحيط الأطلنطى
شنترين
أشبونة
شنترة
طلبيرة
طليطلة
ترجالة
قاصرش
بطليوس
ماردة
نهر وادي يانة
باجة
ميرتلة
شلب
قرطبة
نهر الوادى الكبير
استجة
نهر شنيل
إشبيلية
لبلة
ولبة
طبيرة
قادس
شريش
نهر وادى لكه
مالقة
الجزيرة
طريف
جبل طارق
سبتة
مضيق جبل طارق
طنجة
عدوة المغرب
البحر المتوسط
مواقع معركة شنترين
سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م
طريق القدوم الجيش الموحدى
مدينة شنترين
الأسوار
القصبة

وكان المدافعون عن الربض الخارجى قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فاقتحم الموحدون الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور ، وهدموا الكنيستين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السبيل ممهد لاقتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلالم اللازمة لاقتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول (٢٩ يونيه) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى — السبت — تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصرانية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربض الخارجى للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجددون هجماتهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض ، وأضحى الموقف مستحيلا ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقترب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصرانية تقدم إلينا مزاعم لايستطيع أن يسيغها العقل ، ولاسيما الرواية المنسوبة إلى الحبر الإنجليزى راؤول دى ديستو ، وخلاصتها ان الموحدين وصلوا إلى شنترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلمة أحدثوها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً ، وسدوا تلك الثلمة بجثثهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين(١) .

بيد أنه وقعت فى اليوم الختامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول (٢ يوليه) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحرك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أومن شرقى شنترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

---

(١) H. Miranda ; ibid ; C.R. de Dicelo y Crónica de Alfonso Enriquez p. 297 & 300

روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن فى هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائى الذى لم يدرس ؛ ولم تتضح مبرراته . فما الذى حدث فى المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائى فى حركة الجيش الموحدى ، ولمّا لم يمض على مقدمه إلى شنترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا فى هذا الموطن أى شرح واضح أو أى تعليل مقنع لهذا الارتداد الفجائى لجيش ضخم غاز يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها فى أيدى الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولجأت فى النهاية إلى القصبة ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحماة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال بقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى فى الانتقال والارتحال ، وتعطلت فى النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل فى جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث فى هذا اليوم — أى يوم صدور الأمر بالارتحال — على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة فى بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزموهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس فى المحلة على حذر ، ومن الوجل فى ألم وضرر »[1] .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شنترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استراءت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلا »[2].

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

---

(١) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شنترين وبالغ فى التضييق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزماً فى الدفاع ، وجلداً فى تحمل مشاق الحصار ، فخشى الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شنترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغيرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمر هين ، وأن المدينة تعتبر غنماً فى يده لا يمنعه عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصحهم ، وقال نحن راحلون غداً إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ بأهبة الرحل ، أبو الحسن على بن عبد الله المعروف بالمالقى ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبر النهر فى تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث[١] . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفاصيلها فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب[٢] .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شنترين لم يقع فى أواخر الخريف، ولكنه وقع فى أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعنى فى أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقاً لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقاً للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام[٣]. وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهنالك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث فى المعسكر الموحدى ، هى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٠هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شنترين مدة شهر (ج ١١ ص ١٩٠) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية (ج ٢ ص ٤٩٢) .

ولم يعلموا له سبباً ،وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق والى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل فى جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفى هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحق ، وأقلع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك »[١] .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ماوقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين فى ربض شنترين فى سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولابد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفى أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم فى تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثانى ملك ليون فى قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثانى يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقى بطليوس محاولا الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شنترين وحصارها ، سار فرناندو فى قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً فى البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص[٢] . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هـذا النحو

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) p. 676

هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى ، ولاسيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شنترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فإنا لانستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن المحقق أن الخليفة ومعاونيه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقى الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكده لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والأثقال ، وتتلخص إلى السعة من المضايق والأوحال »[1] . بيد أن الذى حدث هو العكس تماما . وهو الفوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شتى المسالك ، فلاترى سميعاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذها . ذلك أن كثيراً من الأشياخ ورؤساء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل ، فهرعت طوائف غفيرة من الجند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والفوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فما رأيته فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هوله » ، وأقلع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جنده عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقلع فى السحر ، واستمر عبور الجند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحدى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت الفلول الباقية ؛ وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه أبو يوسف يعقوب مع بقية الساقة ، فى موضع المحلة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شنترين أدركوا عندئذ ماوقع فى العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة ، وأدركوا ساقة الخليفة ، ودافعت الفلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفرق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغوير مائه ، وحرق كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا فى نواحى الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبى والغنائم . كل ذلك الخليفة الجريح ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل[١] وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول فى محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجُه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك فى الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٩ يوليه سنة ١١٨٤ م)[٢].

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شنترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال فى بقية جيشه ، خرجوا من المدينة فى خيل كثيفة ، وحملوا على المحلة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت سرته طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

---

(١) وردت فى النص «ابن مقبل» ولكنا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة الخليفة فى شهر ربيع الآخر على خلاف فى اليوم الذى توفى فيه . ولكن المراكشى يتفرد بالقول بأن الخليفة أبا يعقوب توفى فى اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٤ م) المعجب ص ١٤٧ . ويجاريه فى ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ (الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤) .

جريحاً فى محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أوثلاثة حتّى توفى متأثراً بجراحه[١].

وهنالك رواية أخرى مماثلة تقترب فى جوهرها من رواية المراكشى ، وهى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلا ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصارى ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى تبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »[٢] أعنى الملك ، فاقتحموا محلة العبيد ، حتّى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتّى قتل منهم ستة رجال ، فطعنه أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبين عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض ، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس ، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصارى قتالا عنيفاً حتّى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزموهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق ، وكانت وفاته فى يوم السبت الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يوليه سنة ١١٨٤ م) وذلك على مقربة من الجزيرة الخضراء فى طريق جوازه إلى العدوة[٣] .

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبى يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين ، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخليفة توفى بظاهر شنترين من سهم أصابه فى خبائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكتم موته . بيد أنه يضع تاريخ مصرعه فى الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونقل ابن خلكان هذه الرواية فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) "El Rey El Rey" .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م [١] .

ويوجد أخيراً رواية مفادها أن الخليفة أبايعقوب لم يمت متأثراً بجراحه، ولكنه توفى من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه ، وهذه هى رواية ابن الأثير ، حيث يقول إن الخليفة حاصر شنترين شهراً ، فأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول (٥٨٠ هـ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية[٢] ، ويأخذ صاحب الروض المعطار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة ، وهو مقيم على شنترين عرض له المرض الذى توفى منه ، وأقام الرحل به مضطجعاً على فراشه ، وضعفه يتزايد ، إلى أن تُفقد فى بعض أميال فوجد ميتاً وذلك فى سنة ٥٨٠ هـ[٣] .

ويتردد ابن خلدون بين الروايتين ، فيقول لنا إن الخليفة توفى من سهم أصابه فى حومة القتال عندما اقتحم النصارى محلته أو أنه توفى من مرض أصابه[٤] .

وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته فى السابعة والأربعين من عمره، إذ كان مولده ، حسبما تقدم فى سنة ٥٣٣ هـ بتينملل .

وإنه ليبدو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة ، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب ، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب فى الموقعة التى نشبت بين النصارى وبين محلته ، وأنه توفى متأثراً بجراحه . ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول فى مثل الظروف التى أحاطت بالجيش المنسحب ، وفى غمرة الخلل الذى أصابه ، والفوضى التى سادته . ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شنترين نكبة مؤلمة، تفوق فى نتائجها الخطيرة المروعة ، نكبة انسحابه من وبذة قبل ذلك باثنى عشر عاما . ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب ، ونفس وجوه الضعف التى التابت الجيش الموحدى ، وعصفت بتماسكه ونظامه ، وجعلته بالرغم من ضخامته ، ووفرة استعداده وعدته ، أشبه بكتلة بشرية مفككة ، لا تجمعها أية قيادة حازمة، ولا هدف مشترك ، وفتت فى قواه المعنوية ، فانهارت لديه فكرة الجهاد التى حشد من أجلها ، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها ،

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال الذى سبقت الإشارة إليه لوحة ٣٩٥

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرقى وجنوبى شنترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون ، لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ما كان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يخترقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حامة وبذة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدها على التفوق العددى دون سواه .

— ٢ —

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجُه بقليل ، محمولا على محفته حسبما تقدم ، كتمت وفاته ، وحُمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهنالك ضربت أخبية الخليفة كالعادة ، وأحدق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفية وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه[١] ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة ، وكشف لهم عن جثمانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شىء على

(١) روض القرطاس ص ١٤١ .

حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج فى تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبوره لنهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحقت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت فى أكناف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأخذت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثانى جمادى الأولى[١] وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبا زيد بهبة جليلة قدرها عشرة آلاف لما بذل فى خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبى يوسف فى هدوء وسلام ، ودون أية معارضة : أولا لأن أباه الخليفة الراحل أبا يعقوب كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين[٢] ، وثانيا لأنه كان أكبر أولاده[٣] ، فكان هذا الاعتبار فى ذاته مبرراً لتقديمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبى حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كمل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة فى اليوم الرابع والعشرين من جمادى الألى (٢ سبتمبر سنة ١١٨٤) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبوالعباس الصقلى إلى ثغر طريف ، فى ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

---

(١) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ فى ١٨ ربيع الثانى سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة فى نحو منتصف شهر جمادى الأولى لا فى غرته (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و ١٤٢) .

(٢) المعجب للمراكشى ص ١٤٧ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٢٠ .

بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفى فجر اليوم التالى ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادى فى جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادى الكبير) ، ونظم الموكب الخليفى ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة فى ضحى اليوم ، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش ، تتبعه الجيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أومدينة ابن السليم[١] ، حيث التقى بالسيد أبى زكريا ابن أخيه السيد أبى حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعمائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطىء حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإبل[٢] ، وهى ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطىء ، على قدم الأهبة لنقل الخليفة وجيشه ، وفى اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ (١٢ سبتمبر) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى ، وفى ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان ، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هنالك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهنالك تسمى لأول مرة بأمير المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتفى بلقب « الأمير يعقوب » ، وكتب فى الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه فى الرباط ، أبوعبد الله بن واجاج فى وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالمثول إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبى يعقوب مؤقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدى ابن تومرت[٣] . وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراكش[٤] .

— ٣ —

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

---

(١) وهى بالإسبانية Medina Sidonia

(٢) وهى بالإسبانية La Pena del Cierro .

(٣) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق فى ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحى الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحرى الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى[1] ، وترجع هذه النزعة إلى ماكان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة ، وإلى سائر الطلبة الموحدين بالأندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بذلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بألا يقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أوعسف أواغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم[2] ، وماقام به فى جوازه الأول إلى الأندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والمخزن من المختلسين وغيرهم ، وماقام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين استأثروا بالوزارة دهراً ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متسماً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب . وفى المطبوع ص ٢٣٣ و ٢٣٤

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٣١ .

على النظر فى الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته[١] ، وربما كانت هذه المقدرة فى فهم الشئون وتدبيرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردحاً من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلى هذا الحزم فى حكم أبى يعقوب فى شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غمارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى مواضعه .

والخلة الثانية التى امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هى شغفه بالجهاد فى سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب فى فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية فى عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها فى حملتيه العظيمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موفقاً فى حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبذة ، ثم سجل فشله الثانى أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لها ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد فى ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيما « شديد الملوكية » على حد قول المؤرخ ، بعيد الهمة ، وافر البذل والجود ، عمت صلاته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين فى الإعطاء والمواساة ، وفى أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت فى أيديهم الأموال »[٢] .

على أن ألمع وأعظم خلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة فى التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويجمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبى يعقوب وخلاله ، مواهبه العلمية ، فى تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملا فاضلا عدلا ورعاً جزْلا مستظهراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

متقناً للعلوم الشرعية والأصولية ، متقدماً فى علم الإمام المهدى رضى الله عنه »[١] .

على أن ما يجمله ابن صاحب الصلاة فى تلك الكلمات القليلة ، يفصله لنا المراكشى بإفاضة فى حديثه عن أبى يعقوب . وقد عاش المراكشى قريباً من عصر أبى يعقوب ، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبى زكريا يحيى ، وأبى عبد الله محمد ، وأبى إبراهيم إسحق ، روابط وثيقة .

يقول المراكشى إن أبا يعقوب كان « أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، فى الجاهلية والإسلام » . ثم يقول : « إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية »[٢] .

ويجب لكى نقدر روعة هذه الصفات فى أبى يعقوب ، أن نذكر أولا أنه كان بأرومته من صميم أصول البربر ، وذلك سواء من ناحية أبيه أو ناحية أمه : وقد ولد ونشأ بتينملل عاصمة المهدى ، فى بيئة بربرية محضة ، ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التى امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن على ، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب قضى زهرة فتوته فى إشبيلية مذ عينه أبوه والياً لها فى سنة ٥٥١ ﻫ ، وهو فى نحو الثامنة عشرة من عمره ، حتى وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨ﻫ ، حينما استدعى لتولى الخلافة من بعده . ففى هذه الأعوام الثمانية التى قضاها أبو يعقوب فى المدينة الأندلسية العظيمة ، التى كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية ، تفتحت مواهب أبى يعقوب العلمية والأدبية ، وقد كانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية ، وكان أبو يعقوب منذ حداثته حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث ، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى . وكان فى نفس الوقت بارعاً فى الفقه ؛ وفى إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها ، وفى مقدمتهم العلامة اللغوى أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون ، وبرع فى النحو والأدب . ولما ولى الخلافة ، وعاد إلى إشبيلية فى جوازه الأول إلى الأندلس ، واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى ، تجلت فى هذه الفترة روعة مواهبه العلمية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٤٦ ب . وفى المطبوع ص ٢٣٣

(٢) راجع المعجب ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طبيبه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد[١] ، والطبيب العبقرى أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ، ولايصبر على فراقه . وهكذا أتيح لأبى يعقوب أن يطلق العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلا عما رواه له أبو بكر ابن يحيى القرطبى عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف القرطبى إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد حسبما يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل ابن رشد وبراعته[٢] .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ، والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الجليلة ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً وأموالا جمة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت قرب ماكانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبى الحجاج المرانى ، وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس[٣] .

---

(١) كان ابن رشد قاضيا لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

(٣) المعجب ص ١٣٢ و ١٣٤ .

وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبى يعقوب العلمية، بحث دينى يكشف لنا عن براعته فى علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب « الجهاد » الذى ألحق بكتاب المهدى ابن تومرت أوكتاب « أعز ما يطلب » وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التى وردت فى فضل الجهاد فى سبيل الله ، والحث عليه ، وتبيان محاسنه . ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل . ويحمل هذا الكتاب فى خاتمته اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين ، وتاريخ الانتهاء من وضعه ، وهو العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعنى قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر(١) .

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة ، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة ، والصروح الجليلة ، التى خلدت اسمه ، وجعلته فى مقدمة خلفاء الموحدين ، بل وفى مقدمة ملوك المغرب قاطبة فى هذا الميدان . ويكفى أن نذكر هنا ما قام به فى إشبيلية حاضرة الأندلس ، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع ، وصومعته العظيمة التى أتمها ولده يعقوب المنصور ، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء ، وتجديد أسوارها التى خربها السيل ، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية ، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء ، وهى التى ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة . وماقام به أخيراً من توسيع حضرة مراكش وتجميلها ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى مواضعه .

* * *

وتولى الحجابة لأبى يعقوب أول ولايته ، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص ، ولما تنحى عنها وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، واستمر فى منصبه نحو خمسة عشر عاما . ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصفى أمواله ، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ . فخلفه فى الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومى، ليعمل تحت رياسة ولده وولى عهده أبى يوسف يعقوب ، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبى يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده(٢) .

---

(١) راجع فصل الجهاد فى كتاب المهدى ابن تومرت ص ٣٧٧ — ٤٠٠ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

وتولى القضاء فى عهده أبو محمد المالقى ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفى المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة فى البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر فى منصبه حتى وفاة أبى يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى فى أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبى يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبى كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسى ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها فى أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبى حفص بن عبد المؤمن فاختاره لكتابته ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابته . ولبث ابن عياش كاتباً للخليفة أبى يعقوب حتى توفى فى سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبى يعقوب أيضاً أبو القاسم القالمى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسن الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفى مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدل بما كان لهذين الكاتبين من مقدرة راسخة فى أساليب البيان[١] .

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله . وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهير الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الخلال[٢] .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريبا من عصر الخليفة أبى يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

الكتاب السابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور حتى موقعة العقاب

الفصل الأول

عصر الخليفة يعقوب المنصور

وبداية ثورة بنى غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية فى معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر فى المظالم . إنشاؤه لضاحية الصالحة الملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بنى غانية بإفريقية ، فتح المرابطين الجزائر الشرقية . ولاية وانور اللمتونى عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسحاق . الجزائر تغدو مثوى لبقايا المرابطين. تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطىء الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وجنوة والبندقية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصانعة الموحدين بعد وفاته. اهتمام الموحدين بأمر الجزائر. مطالبتهم لإسحاق الاعتراف بالطاعة . وفاة إسحاق وولاية ولده محمد . مقدم على الربرتير سفير الخليفة إلى الجزائر . اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدين . خطتهم لمحاربة الموحدين فى إفريقية . تدبيرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسحاق إليها فى حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطأة بعض أهلها. نزوله بها ودعوته لبنى العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لواليها الموحدى السيد أبى الربيع . هزيمة السيد وفراره . استيلاء على على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهابهما فيها . مسيره إلى قسنطينة ورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبى زيد . تسييره للأسطول فى نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدى على مدينة الجزائر. القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطى . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدين إياها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسحاق فى اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وقفوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدين عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهبه لحلاتها . استمالته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى فى بجاية . اقتحام غزى الصنهاجى قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدين لإنقاذها ونجاحهم فى استردادها . مصرع غزى وأخيه . مقتل رشيد الرومى . مقتل وتشريد أنصار بنى غانية فى بجاية . زحف على بن غانية على قفصة واستيلاؤه عليها . دعوته للخليفة العباسى . استمالته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمنى . كيف نزح قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث فى الجزائر الشرقية . مؤامرة الربرتير لخلع طلحة بن إسحاق وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة الربرتير الخليفة الموحدى . مغادرته لميورقة . محاولة الموحدين تملك الجزائر. فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انتزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدين لافتتاح الجزائر . فشلهم فى أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يبسط حكم الإرهاب

على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحدى . مسيره فى قواته إلى رباط الفتح ثم إلى فاس. عنايته بالشئون خلال مسيره . مسيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس .استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبى يوسف . اللقاء بين الموحدين والميارقة وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبى يوسف وقلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه فى قواته من تونس . مسيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . مسيره إلى الحمة قرب قابس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للعرب حلفاء ابن غانية . تخاذلهم وتبددهم . مهاجمة الموحدين للميارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة الميارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قابس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الغز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تآمر أخيه الرشيد وعمه سليمان ضده . نكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامهما . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداده للجهاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التى وقعت عقب نكبة شنترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعة الخليفة أبى يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبوره من الأندلس إلى العدوة عائداً إلى حضرة مراكش .

وكان الخليفة الجديد فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ (يناير سنة ١١٥٩) أو فى سنة ٥٥٥هـ على قول آخر . وأمه أم ولد كان قد أهداها سيدراى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبى يعقوب[١]. لقبه المنصور بفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهو فى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته فى صباه ، وأنه لقى منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعته من كان قد تخلف من أعمامه بنى عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة[٢].

---

(١) البيذق فى أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ١٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت فى أسر الفقراء والضعفاء فى سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين[١] . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التى بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، فى الدعة ، وانهمكوا فى ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمور والقيان والغانيات ، فأريقت الخمور فى كل مكان ، ونفذت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأنذر المخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من المغنين ، فتفرقوا فى كل مكان ، ولاذوا بالتكبرة والا ختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس فى مجالسهن ، وبعث الخليفة بهـذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة فى فى عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرُّب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة مايوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها[٢] . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الحفيلة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ماكان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التى كانت ذائعة بها[٣].

وعنى الخليفة فى نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التى وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفذت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأنيس الرعية ، والعمل على إرضائهم فى اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهاقهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظلمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطوالعه ، وأملوا تحقيق العدل والخير .

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية (ص ١٦٤ — ١٦٧) .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٣ ، و١٤٤ ، و١٤٥ .

ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه فى المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه فى غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ ه ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويفد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤنسهم برفقه ولينه ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوقة والتجار ، قبل السادة والأشياخ والأكابر ، بطالب الحقوق والأموال ، وكثر فى ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح فى معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تمادى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدا تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفك والبهتان[1] .

وفى العام التالى ، اعتزم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم — قصر على بن يوسف — وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفية ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاختطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد فى جنوبى مراكش ، ما بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البدء فى إنشائها فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ ه (٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى فى إقامتها منتهى الإتقان والمتانة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل فى بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ ه (مايو سنة ١١٨٨ م) ، وبدت فى أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان ، والفخامة[2] .

وفى نفس هذا العام الزاخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعنى سنة ٥٨١ ه (١١٨٥ م) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرها ، فى ميدان الإصلاح المالى ، وذلك هو

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .

إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لايعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الجديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس[1] .

بيد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الجديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بجاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضى إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها .

ولابد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، منذ أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

— ١ —

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنويون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل سنة ١١١٥ م) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، بادر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦م) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر اللمتونى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرمت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب « الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٠) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا الوالى الجديد ، سوى محمد بن غانية المسّوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبى زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ ﻫ (١١٢٦م) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد فى تاريخها ، يتصل مدى أمد قصير بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغدو بعد ذلك مستقلا فى ظل بنى غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببنى غانية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ ﻫ (١١٤٨م) ، خلال غمار الثورة التى اضطرمت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين. أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراكش، فى شوال سنة٥٤١ ﻫ (مارس ١١٤٧) . وكان محمد ، مذ رأى انهيار الدولة المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولائه لقضية المرابطين ولمتونة ، واستمر يدعو فى الخطبة لأمير المسلمين وبنى العباس، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطال حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاما ، وكان يرقب من من مقره النائى بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى فى قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه فى شرق الأندلس ، عاملا يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعر بتوطد أمره ، فى تلك الجزائر المنعزلة، يعتزم أن يجعل منها ملكاً موثلا له ولعقبه : وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطلحة ، فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله : وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفى رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه فى حكم الجزائر حينما توفى سنة ٥٥٠ ﻫ (١١٥٥م) ، وأن أخاه إسحاق خلفه فى الحكم بعد وفاته[١] .

وعلى أى حال فقد تولى اسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٢ ، وراجع أيضاً :
A. Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 19.

وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من فلول لمتونة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحدين . وكان أولئك المرابطون الوافدون على الجزائر يمدونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحدين ، بقوى ذات شأن . وفى عهد إسحاق نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ، وأضحت أساطيلها القوية عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى البحرية فى هذا الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجير دى ترّاجونا ، وهو من أشراف برشلونة ، وكان قد لجأ إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ، إلى ألفونسو الثانى ملك أراجون فى سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ماكانت عليه ميورقة الإسلامية فى ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات إسحاق البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتثخن فيها ، وتحرز مقادير عظيمة من الغنائم والسبى ، ويقول لنا المراكشى إنه كان يغزو هذه الشواطئ فى العام مرتين[1] . وفى الروايات النصرانية ، أن مسلمى ميورقة فى عهد إسحاق غزوا ثغر طولون فى جنوبى فرنسا ، واستولوا عليه فى سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأسروا الفيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ، وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ، وتوالى غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزة والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسحاق ، فعقدت بين الفريقين فى سنة ١١٧٧ (٥٧٣ هـ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر فى البر ولا فى البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفى إسحاق فى أوائل سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)[2] .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحدين ، استطالت زهاء ربع قرن حتى وفاته فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، وفى خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر على شرق الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرقى الأندلس من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالبث أن أخذ فى التصدع ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 24 & 25

(٢) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Cit. Espana Sagrada) p. 144 - 145.

ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوى إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سلطانهم على شرق الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يراسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسبيه ، وكان الموحدون فى البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولايحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحرى ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول فى طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له فى الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج فى أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل فى بعض المعارك ، وقيل أنه طعن فى حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهنالك مات فى قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)[١] .

ولما توفى إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه فى حكم الجزائر أكبر أولاده العديدين محمد .[٢] وكان قد اختاره فى حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه فى بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التى أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بما عمد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة فى بعض السفن الموحدية ، التى سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بنى غانية للاستجابة إلى الدخول فى الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلا من طراز خاص ، هو أبو الحسن على الربرتير ، وهو ولد الفارس النصرانى الربرتير El Reverter أو روبرتو القطلونى ، قائد جند الروم أو النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى أيام على بن يوسف ، وقد أبلى الربرتير وجنده الروم

---

(١) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك A. Bel : ibid; p. 24 & 25.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشى إن الذى خلف إسحاق هو أكبر أولاده على (ص ١٥٢) .

حسبما فصلنا من قبل ، خير البلاء فى محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفى قتيلا فى إحدى المعارك ، وذلك فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذى اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول فى طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس فى جيوشه الجرارة ، وذلك فى صفر سنة ٥٨٠هـ (أبريل سنة ١١٨٤م) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصارى ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لاتقاء الغزو الموحدى . ولكن إخوة محمد ، وهم على ويحيى وطلحة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا فى الوقت نفسه سفير الخليفة علياً الربرتير فى شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون الربرتير ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبى يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن على وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلى الربرتير إلى ظلام السجن[1] .

ولم يكتف بنو غانية — على وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك فى انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء فى ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فاتجهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التى كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتى كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً فى تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بنى غانية فى غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل على ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين فى المدينة ، من أولياء بنى حماد

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك : Campaner y Fuertes : Ibid, p. 146 : -A. Bel : Ibid; p. 29.

أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على مؤازرة بعض طوائف العرب من بنى هلال ورياح والأثبج . ونحن نذكر ماحدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بنى الرند فى قفصة ، وقيام الخليفة أبى يعقوب بإخماد هذه الثورة (سنة ٥٧٦ هـ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبى الحسن ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبى موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بنى سُليم على مقربة من قابس ، وأسرهم للسيد أبى الحسن وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بنى غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالميورقى أسطولا صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتى فارس وأربعة آلاف راجل، تحت إمرة القائد رشيد النصرانى ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته فى سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء فى المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله فى زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلا إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه فى طريقه إلى تلمسان، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فتقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة فى مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتدلى بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثغرات الدفاع . واجتمعت جماهير من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تخاذل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط الميورقيون عليهم القسىّ والسهام ففتكت بهم. ثم تقدم الفرسان والمشاه ، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبى موسى وآله وعلى سائر الموحدين الذى يخشى بأسهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو فى يد على بن إسحاق الميورقى فى السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٣ نوفبر سنة ١١٨٤ م)[١] .

---

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان =

وأقام على بن غانية أسبوعاً فى بجاية ينظر فى شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا فى الخطبة لبنى العباس ، وللخليفة العباسى أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الإشبيلى صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزمع قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفى غير بعيد ونجا من نقمته[١] .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومى ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبى الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بياميلول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فانخذلوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلته بأسرها فى يد العدوة وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فنزل بها على واليها السيد أبى الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وأخذا فى تحصينها ، والاستعداد فى الدفاع عنها[٢] .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة (قلعة بنى حماد) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصفى أموالهم. وكانت مليانة ، وهى أهم هذه البلاد ، فى الأصل مدينة رومانية ، جددها زيرى بن مناد الصنهاجى وحصنها ، وكانت فى ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروى معظم مزارعها وجناتها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبى خليل ، وكتامة ومطاطة ، وبنو مليلت ،

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية فى التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ (القسم الثالث ص ١٤٨) ويتابعه فى ذلك ابن خلدون (ج ٦ ص ١٩٠) وكذلك الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٠ .

(١) المعجب ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو وارتجان وبنو أبي خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها .
وطول هذا الجبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهي طرفه إلى مقربة من تاهرت[١] .
وقدم علي بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى بجاية ، وهنالك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول في طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامة ، واستخرج ماكان في المخازن من الأموال والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخلاط والكافة ، ولما رتب شئونه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومى إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار في قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها في قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، فضرب حولها الحصار ، مؤملا أن تسقط في يده[٢] .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال في بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك في الحال خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الجند المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها لابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص ، وسار في نفس الوقت أسطول موحدى كبير من سبتة ، تحت قيادة أبي محمد بن إسحاق بن جامع ، وأبي محمد بن عطوش الكومى ، وأبي العباس الصقلى ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين في البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولا إلى فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها السيد أبو الحسن بن أبي حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لجأ إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً بحذاء الشاطئ ، والأسطول يحاذيه من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعدهم فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو . واستطاعت الجواسيس

---

(١) الإدريسى في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و ٨٥ ، وكذلك الاستبصار في عجائب الأمصار (طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، و ١٧٣ . والبيان المغرب — القسم الثالث ١٤٨ .

الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جنح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالمحتلين ولاسيا بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدّر بن عائشة قد فر منها ، فاقتفى أهلها أثره ، وطاردوه ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسيق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبى موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، وسار الأسطول إليها فى نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله فى عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق سراح السيد أبى موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنقذت بجاية بضربة سريعة ، وكان استردادها فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ (٢٢ مايو سنة ١١٨٥) ، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر [١] .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط فى يد العدو ، ولكن ما كادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطرمت قواهم المعنوية وثبتوا فى معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الخسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياع أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، وتكول الأعراب عن مؤازرته ، وخشى من إدراك الموحدين له ، وهو فى هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وفلوله الباقية ، وتوغل فى الصحراء ، بعيداً عن

(١) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٦ — ١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 50-53

المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبو زيد فى قواته إلى تيكلات على مقربة من بجاية ، وهنالك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع فى الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو الفار ، وسيق إلى المحلة الموحدية كل من قبض عليه وأسر فى بجاية من أنصار الميورقى سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقى رهينة . وفى اليوم الثالث سار الموحدون فى أثر ابن غانية واستمروا فى مسيرهم حتى مقرّة ونفاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أثقاله فى الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدين بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد فى جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر فى حركة متواصلة لم تنعم خلالها بقسط من الراحة[1].

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى فى فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حنذة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبى ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب الحلات الغنية فى تلك المنطقة ، ويستميل بجزيل صلاته طوائف العرب النازلين فى تلك الأنحاء ، ولاسيما بنى رياح وبنى جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة تَوزَر ، فضرب حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومته المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصروه ومنحهم الأمان ، واستصفى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فمن استطاع أن يفتدى نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر فى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)[2] .

وكان السيد أبو زيد قد استقر فى تلك الأثناء فى بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأقفرت سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

(٢) رحلة التجانى (المنشورة بعناية المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨) ص ١٦٢ .

وجوههم ، ثم سرى الوباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة بمراكش ، وكثرت لديه الأقوال فى حق السيد أبى زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحاثا على العمل لتدارك الأمر ، وغادر الأسطول فى نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده فى سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقى عن بجاية وأحوازها ، وتوغله فى القفار الجنوبية فإنه بعث جملة من جنده تحت إمرة غزى الصنهاجى ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أبى حفص عمر فى قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش فى جملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزى وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزى وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعاق بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحريمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجى مكان أخيه غزى فى الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضى أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالوعود ، واستنزله من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب إزاء رأس أخيه[1] .

وكان من أحداث بجاية فى هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومى قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بنى غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن حملة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهامهم بالتواطؤ مع بنى غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بثمن بخس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم[2] .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبو زيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها فى جملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الوقيعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م) وأخمد بها ثورة بنى الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٣ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .

انضوا بها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدسائس والتيارات ، وولاؤها للموحدين غير ثابت ، ولامستقر ، ومن ثم فإنه ماكاد الميورقى يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى بادر أهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقى ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً فى سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقى على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسى ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه فى طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد فى خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقى استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سُلَيم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمنى مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية[1] .

ويجب أن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التى وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، فكر بعض أمراء بنى أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمونة مثل اليمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقى الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . ولكنه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتنفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بنى أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمنى مملوك تقى الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد) وإبراهيم بن قراتكين المعظمى ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أخى صلاح الدين ، فى تنفيذ المشروع ، وفرا فى طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، ولابن أخيه تقى الدين عمر ، ثم سار إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهوارين القائمة بها

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصلاح الدين وابن أخيه .

وقوى أمر قراقوش تباعا ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من بنى دباب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالا عظيمة فرقها فى حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بنى رياح ، وكان من الخارجين على بنى عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ، فاستولى عليها بأيسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً فى تلك الأنحاء « بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك » وأخذت نفسه تحدثه بالاستيلاء على سائر إفريقية [1] .

— ٢ —

وفى ذلك الحين حدثت بميورقة حوادث هامة . وكان من الطبيعى بعد أن خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقى فى مياه بجاية ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى على الربرتير منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب الفرص لكى يتحرر من معتقله ، وليقوم فى نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألفى على فرصته فى الاتصال بالجند المرتزقة النصارى من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم علىّ بأنهم متى عاونوه على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم فى أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم . وكانت أرومة الربرتير وأصله النصرانى ، مما يحببه إلى نفوس أولئك الجند النصارى ويجعله موضع ثقتهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن الربرتير استطاع أن يجذب إلى جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعزول وخصوم أخيه على . وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصارى لخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المعزول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجانى ص ١١١ — ١١٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ و١٩٢ .

فى يوم جمعة ، وفى وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً الربرتير من سجنه ، ووثبوا إلى مخازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القصبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن الربرتير وأنصاره بالقصبة ، فحاصرهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القصبة بالمجانيق وأرسلوا على من بها وابلا من الحجارة والسهام . فأتى الربرتير من داخل القصبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبناؤه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبة ، فعندئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود[١] .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه إخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم الربرتير إلى ميورقة ، واعتقل فى أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل الربرتير عن القصبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدى ، وجمع الربرتير من الأموال والذخائر ما استطاع ، وسرح المرتزقة النصارى بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراكش . ووقع ذلك فى أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) . وفى رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع الربرتير ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة[٢] . وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة فى ظل طاعة الموحدين الإسمية : ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبى العلاء بن جامع ، أبى محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمده بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلا بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفعوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفى رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث فى ميورقة ،

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٥ و ١٥٦ . وراجع :
A. Bel : ibid; p. 68 & 66 : وكذلك Cmapaner y Fuertes ; ibid, p. 148 et suiv.
(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله فى بعض صحبه، وركب البحر إلى صقلية، وهنالك زوده النصارى ببعض السفن فسار إلى ميورقة ، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باستمالة بعض أعيانها ، وأن ينزع الولاية لنفسه، وقبض على أخيه محمد، وبعث منفياً إلى الأندلس. فالتجأ هنالك إلى الموحدين فولوه على مدينة دانية، واستقر عبدالله فى ولاية الجزائر دون منازع. وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبى العلاء بن جامع ، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم المزرجى ، فقاوم عبد الله أشد مقاومة ، وقتل كثير من الموحدين ، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة ، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء ، على جزيرتى يابسة ومنورقة. وكان ذلك فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) . واستردت الجزائر فى عهد عبد الله قوتها ورخاءها ، واستمر فى رياستها أعواماً طويلة ، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة ، حتى كان افتتاح الموحدين للجزائر فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) على ما نذكر بعد[1] .

— ٣ —

عظم أمر على بن غانية بأنحاء إفريقية الجنوبية والوسطى، ولاسيما منذ تقاطرت طوائف العرب من بنى هلال وجشم وبنى رياح والأثبج إلى لوائه . وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمنى وأجناده الترك الوافدين من مصر ، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى المهدية وتونس ، ودعا على للخلافة العباسية حسبما أسلفنا ، وتلقب بأمير المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية[2] وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستضىء ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية ، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه، وبعث ديوان الخليفة صحبة عبد المؤمن إلى مصر، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام ، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية[3]، وكانت

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٥ و١٥٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ .

استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكين سلطان بنى غانية بها ، عاملا جديداً ، فى ذيوع أمر على وتوطيد هيبته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم إرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيثون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإيذاء والسلب والنهب والسبي ، لايرعون حرمة ولايرحمون ضعفا ، وعليٌّ لا يستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولائهم ومحالفتهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية فى ذلك الوقت بإيجاز فى قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شنائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس فى غضون سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) ، فسأله أهلها الأمان ، فمنحهم إياه ، ولكن ماكاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهتكوا الحرمات ، وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً[1] .

وتوالت أنباء هـذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور فأهمته ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبدالله الذى كان قد حل مكان السيد أبى زيد فى ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنفره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين فى إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهبته للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدى ، جرياً على تقليدهم المأثور ، فى التيمن بزيارته ، عند الملمات والحوادث الجسام ، ثم عاد إلى مراكش ، وجهز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة فى قواته عقب عيد الفطر فى الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦ م) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبا الحسن ، ومسنداً إليه فى نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهنالك وافاه ولاة الأندلس والمغرب ، فألقى إليهم بتعليماته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة فى تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه فى جيشه كتائب العرب إلا قلة من أشياخ بنى رياح مثل بنى زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

---

(١) رحلة التجانى عن ابن شداد ص ١٤ .

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة فى حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود الجرارة فى إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك[1] . وأصدر الخليفة أوامره المشددة فى نفس الوقت إلى سائر العمال بالمنازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور فى أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسيرون فى طرق ممهدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل فى مثل هذه الرحلات الغازية .

واستراح الخليفة وجيشه فى حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وغمر والى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة فى شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق دائب النظر فى شئون الرعية ، ومجتهد فى إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفى تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإخوة والأعمام قد اختصوا بلباس الغفائر الزبيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزى لكونه زى الخليفة فى حالتى ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد والى بجاية السابق باعتباره عميدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسيم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التى تحمل الألوان الخلافية[2] .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضى قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية فى قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سُليم ، على مقربة من القيروان ، وبدت طلائعهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا فى المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهنالك ينال قسطه من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس فى شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٨ و١٥٩ .

وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس، واستراح الجند من أثقالهم، وجددوا مؤنهم ولوازمهم، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين، والقائد على الربرتير ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية فى جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل « عُمرة » وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على الربرتير إلى الهجوم فمزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط الربرتير أسيرا وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبو على بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة، وأسر ابن يومور وقد أثخن جراحا . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وما انتهى النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبو يوسف فى فل من أصحابه صوب تونس، وهلك عدة من الأشياخ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد، وبقى معظم الرجالة ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسيما الجرحى، فلجأوا إلى قفصة، وشجعهم على ذلك ابن غانية، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بخباء السيد أبى يوسف ، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم، ففرقها فى جنده، واقتيد إليه على بن الربرتير وابن يومور ، فأمر بتعذيبهما ثم قتلهما، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الجملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصبهم مثلها منذ بعيد[1] .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعمق وقع ، فاعتزم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداده للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وسار جنوباً صوب القيروان ،

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التجانى ص ١٣٦ و ١٦٢ . وراجع A. Bel : Ibid ; p. 78 - 80

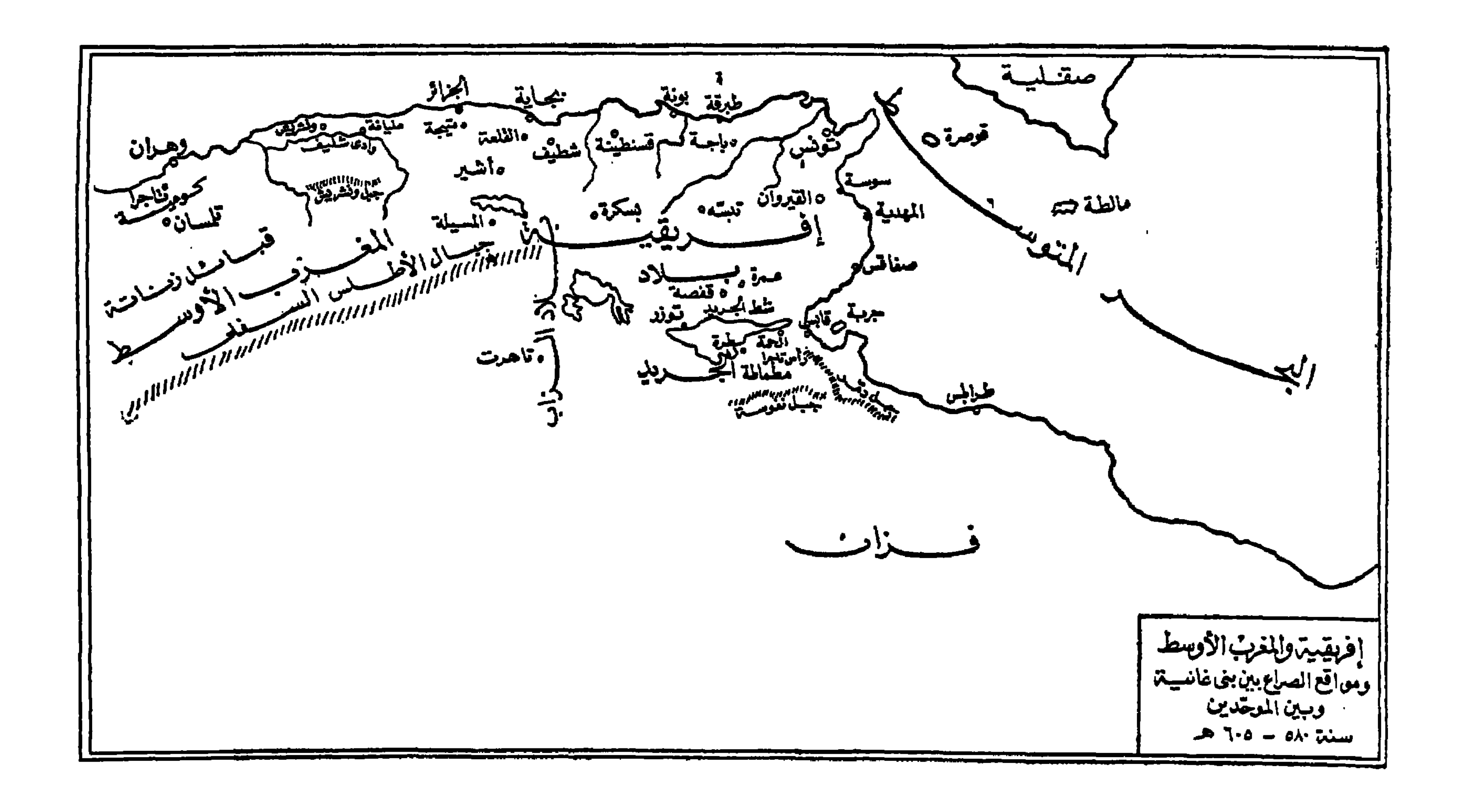
وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حلله واكمال عدته ، وسمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا ينذرهم فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبذ الشقاق والعدوان، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشيء [١] ولكنه جد فى أهباته . ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المقفرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العفاء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاة شرقى الأندلس ، بإعداد كساه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من « الحَمّة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلتهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشياخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشياخ قرابته وأكابر عشيرته . وما كاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلابهم ؛ وفتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغاض أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م) [٢] .

---

(١) الرسائل الموحدية — الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ١٦٢ و١٦٣ ، ورحلة التجانى ص١٣٦ ، و١٣٧ و١٦٢ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص١٨٨ . وكذلك :
A. Bel : ibid ; p. 81 & 82



إفريقية والمغرب الأوسط
ومواقع الصراع بين بني غانية
وبين الموحدين
سنة ٥٨٠ – ٦٠٥ هـ
صقلية
قوصرة
مالطة
البحر المتوسط
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
جربة
قابس
طرابلس
القيروان
تبسة
إفريقية
بسكرة
بلاد الجريد
قفصة
توزر
شط الجريد
مطماطة
جبل نفوسة
طبرقة
بونة
باجة
قسنطينة
بجاية
شطيف
القلعة
الجزائر
متيجة
مليانة
أشير
المسيلة
وهران
تلمسان
المغرب الأوسط
جبال الأطلس
تاهرت
فزان

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها فى اليوم التالى بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصفى أموالهم ، وأرسلهم ، رقيقاً إلى مراكش[١]. ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد فى طرق وعرة مقفرة ، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحَمّة ، ونفطة ، وأهمها هى توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلا وأسرا ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قفصة ، وكانت بها بقية كبيرة من صحب الميورقى وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانتها ، وأسوارها العالية ، فضرب الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ما حولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجا عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكماة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثلمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السبيل ممهداً لاقتحام المدينة ، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلا هائلا من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة فى اليوم التالى . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتمسين الأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القرابة والأشياخ ، فاستقر الرأى على أن يؤمن أهل البلد الأصليين فى أنفسهم وأملاكهم ، وأن يؤمن الأغزاز (الغز) فى أنفسهم وماملكت أيمانهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفى صباح اليوم التالى خرج سائر من بالبلد من الشيخ الهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، ومُيز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جملتهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذى سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً ، وزجوا إلى البرج الكبير ، ثم اقتيدوا بعد صلاة الظهر بين يدى المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الحفير ،

---

(١) الرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٠ .

ونقل المنصور محلته بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قفصة فهدمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قفصة فيما يرجح فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٨٣ﻫ (يناير سنة ١١٨٧ م) وليس فى شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ، إذ كانت موقعة الحمّة فى التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قفصة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها فى أسبوعين أو ثلاثة . ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسالته التى وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قفصة فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ٥٨٣ ﻫ[١] .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قفصة ، خطاب من قراقوش يعرب فيه عن خضوعه ورغبته فى دخول التوحيد ، وأنه على استعداد إذا ما قبلت توبته أن يأتى إلى الموحدين مستتيباً طائعاً . وفى اليوم التالى وصل خطاب مماثل من أبى زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذى استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها[٢] .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التى أحرزها المنصور على أعدائه فى إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهنئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مُجبر فى يوم الحمّة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهـــــام	طلائعـــه الملائكـــة الكـــرام
أتت كتب البشـــائر عنه تترى	كما يتحمـــل الزهـــر الكمـــام

ومنها :

لقد برزت إلى هون المنـايا	وجوه كان يحجبهـــا اللثـــام
وما أغنت قسى الغـــز عنها	فليست تدفع القدر السهـــام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص	وأمسوا بالصـــعيد وهم رمـام

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦ — ١٦٨ ، ورحلة التجانى ص ١٣٨ و١٣٩ ، والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

(٢) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفس يكون لهـــا بعصمته اعتصـام
حيـاة الدين دولته فدامت لأمر قد أتيح له الدوام
سلام الله من قرب وبعـــد عليه وحسب ما نزل السـلام

وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة فى قواته إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى إنه دخل تونس فى العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ هـ . ونحن نعتقد تبعاً لما سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك بقليل . ومكث المنصور فى تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، فقضى بها فترة يسيرة ، وبعد أن نظر فى شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلا إلى الحضرة ، وذلك فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ (مارس سنة ١١٨٨ م) .

فسار توا إلى تلمسان عن طريق تاهَرْت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم . وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تُدبر ، وعن بعض شخصيات من القرابة تتحفز للتمرد والوثوب . وكان أول من تلقاه بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُمى إلى الخليفة ، أن هذا العم يطعن فى آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولاسيما عقب هزيمة عُمرة ، فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بجفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به المرض ولم يلبث أن توفى .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة عُمرة التى مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قادته ، لاح لبعض السادة أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان فى مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجرأة ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول وهو الرشيد ، فقد كان يبسط على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان يسوم الناس الخسف ، ولاسيما التجار ، ويستصفى أموالهم بالإرهاب والقتل ، ويستنزف ما فى بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخديعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت مخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنباؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل فى أوهامه ، وارتد إلى شيء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراكش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله مختنق أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض فى توليته وتخلف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرقى مراكش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع فى مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القريبة لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مساومته . وسار إليه فى نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبى حفص فى سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبى ربيع وبين أية حركة أو نشاط يخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سبيلا سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة فى طريقه إلى الحضرة ، فقصد إليه فى محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد فى نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقالهما بالقصبة ، حتى يصدر فى شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراكش ، وانتهت مراسم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبى الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات فى الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان

ابن عبدالعزيز الكومى قائد قصبة رباط الفتح ، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما ، فقام بالمهمة ، وضرب عنقاهما ، وقُتل معهما فى نفس الوقت عدد ممن تحقق اشتراكه معهما فى محاولاتهما[١] . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته[٢] ، ووقع ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٨٤ هـ ، (١١٨٨م) . ويقول لنا المراكشى إنه كان لهذا التصرف الدموى وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه ، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه ، لأشياء كانت تصدر منه فى صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية[٣] .

وماكاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر فى شئون الأندلس . وكانت الأحوال فى شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملة إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ؛ ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ فى الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان النصارى . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنبات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل ، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبى حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكى يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين ، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبى حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة[٤] .

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧١ — ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .
(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشى أيضاً إن قتل السادة كان فى سنة ٥٨٣ هـ ، وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزوته الإفريقية ، كان فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ .
(٤) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٤ .

الفصل الثاني

حوادث الأندلس وإفريقية

أطماع البرتغال فى ولاية الغرب . تهيؤ الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها فى ذلك العصر . مسير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلاؤهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصارى الماء عنها . اضطرارها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها . غزوات القشتاليين فى منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبي يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . مسيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس، ومسيرها إلى شلب . مسير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكى ليون وقشتالة الصلح مع الخليفة . مسير الخليفة فى قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شنترين . استيلاؤه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبسائط تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن الغزو . عوده فى قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضى البرتغال . نظر الخليفة فى أمر المسجونين والعمال . فتنة الجزيرى ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوته الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلاؤهم على ثغور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك فى مضاعفة الغرب لأهباته العدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحدى . سفارته إليه على يد ابن منقذ . ما جاء فى رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية عن حركات السفير المصرى ومصير سفارته . استقبال الخليفة لابن منقذ وتسلم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعث هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه فى قواته من إشبيلية . مسيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصارى إياها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلالة والحصون المجاورة . مسير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العدوة ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبي زيد وأشياخ العرب . استجمام الخليفة بفاس . مسيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبتها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرف إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل الوالى فى القبض على العرب . اضطرار عشائرهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيثهم فى بلاد الجريد . وفاة على بن إسحاق ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراقش ومسيره إلى تونس . بواعث هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى مغامراته . استيلاؤه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراقش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .

لم يكن ثمة شك فى أن نكبة شنترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الجرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر فى إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز (ابن الرنق) فى انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفى مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، فى نفسه الوثابة المضطرمة . ولكن ألفونسو هنريكيز لم يعش طويلا ليقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفى فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م (أواخر سنة ٥٨١ هـ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطد أركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضى الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبى يعقوب يوسف عقب نكبة شنترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى فى العمل على إصلاح البلاد والحصون التى خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضى الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعضد مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدى ، بعيداً فى المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بنى غانية ، ومؤامرات الخوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث المحلية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدى ، أن يبعث بشىء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعُدد ، لاتكفى لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أمداداً طارئة لم تكن فى الحسبان ، هى الأمداد الصليبية ، التى عادت تتقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتنجد الجيوش الصليبية التى ضعضعتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس فى رجب سنة ٥٨٣ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٧ م) .

فى أوائل سنة ١١٨٩ م (أوائل ٥٨٥ هـ) ، وصل أسطول صليبى ضخم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه اسبانيا الغربية فى طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا فى مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التى يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من

الجانبين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم، فسارت بهم نحو الجنوب . وتقدم فى نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من انجلترا وبلاد الفلاندر ، ودفعته الأنواء والعواصف الجامحة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك فى مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألفى فى مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم فى غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتفاهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسيير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانتزاعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصارى[١]، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطماعهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضي المسلمين .

وكانت شلب ، فى ذلك الوقت ، بعد باجة ويابرة ، أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراناً وثراء ، وهى تقع فى أقصى جنوبى البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذى يصب فى المحيط جنوباً قرب ثغر بورتماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون، والحدائق والحقول اليانعة، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسى ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة فى بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من واديها الجارى إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد، والبحر منها فى الغرب على ثلاثة أميال، ولها مرسى فى الوادى وبها الإنشاء ، والعود بجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة بديعة المبانى مرتبة الأسواق، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »[٢].

تلك هى شلب الإسلامية التى أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص١٧٥، وأشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٣٢٩ و٣٣٠ ، وراجع أيضاً :

Huici Miranda: Impeio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reisde Portugal p. 842

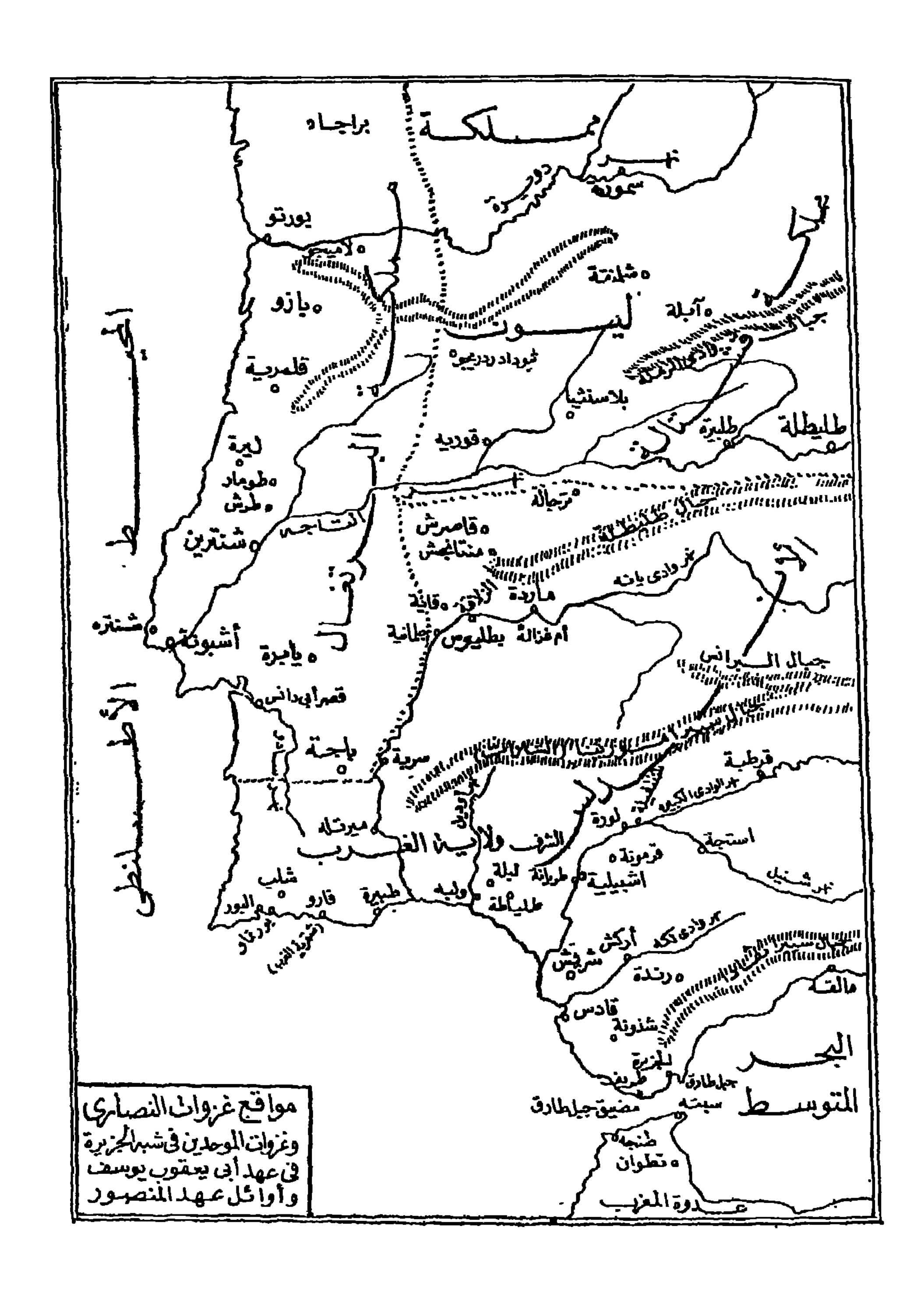
(٢) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ١٧٩ و١٨٠) ، ونقله صاحب الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٠٦ .

أن ينتزعوها من المسلمين : ففى أوائل سنة ٥٨٥ هـ (أوائل سنة ١١٨٩ م) ، بعث سانشو بقواته البرية جنوبا صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج التاجُه حذاء الشاطئ البرتغالى حتى مياه ثغر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد إثنى عشر كيلومتراً من جنوبى شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور[1] الواقع على مقربة من غربى بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف[2] ، ثم زحف سانشو بعد ذلك فى قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ، واستولوا عليها فى الحال . وكان والى المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبى حفص ابن على ، رجلا عاجزاً قليل الخبرة بشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ، معتمداً على حصانتها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة أسابيع أن يقتحم المدينة بالهجوم فى قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . فاضطر أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعى قوات جديدة لمعاونته قدمت فى أربعين سفينة جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب فى ٢١ يوليه سنة ١١٨٩ م (ربيع الآخر سنة ٥٨٥ هـ) . وحاول سانشو فى بدء الحصار أن يعاود اقتحام المدينة ، فضربها بالمجانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على تحصينات المدينة القوية ، وحاول الجند الفلمنك من جهة أخرى أن يحفروا السراديب تحت الأسوار وان يحدثوا بها ثلمات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ، مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج قوى ، ففكر المحاصرون فى هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلالم ، فلما رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها النصارى واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث أن حققت نتيجتها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

---

(١) حصن ألبور بالإفرنجية Alvor .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ .



مواقع غزوات النصارى وغزوات الموحدين في شبه الجزيرة في عهد أبي يعقوب يوسف وأوائل عهد المنصور

المروع فى أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى القلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق فى النهاية على أن يؤمن أهل المدينة فى أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، فى يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م)[١] .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين فى ولاية الغرب ، إذ كانت هى آخر معاقلهم فى تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب فى اتجاه ولبة ولبلة ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . ففى نفس الوقت الذى سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شلب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البسائط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيث فيها قتلا وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقائه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلا وأسراً . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتاً ثم تركها ، وسار إلى ربينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر فى حملته الغازية حتى قلعة جابر ، ثم حصن شلبر ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ (أغسطس سنة ١١٨٩)[٢] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ و١٧٦ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٦) وراجع: Huici Miranda : ibid; (cit. Relaciones). p. 342 - 346

(٢) البيان المغرب ص ١٧٥ و١٧٦ .

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة .

— ١ —

كان لتلك الحوادث أعمق وقع فى نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ فى التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد فى هذه المرة على التطوع فى جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج فى قواته من مراكش فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير سنة ١١٩٠م) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعتزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم ، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوما ، حتى وصلت باقى الحشود وقوات القبائل ، واستكملت أهبة الجيش الغازى .

وفى أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ (أوائل مارس سنة ١١٩٠ م) غادر المنصور رباط الفتح فى قواته ، وسار إلى قصر مصمودة (القصر الصغير) وجدد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبث مقيما بالقصر ، حتى كان بدء الجواز فى الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر فى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهنالك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر فى هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف فى غرة جمادى الأولى ، وسار شمالا صوب مدينة أركش ، وهنالك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبى حفص والى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصدع السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك فى غرة جمادى الأولى (٦ يونيه) وعسكر فى ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية

على مقربة من ثغر بورتماو ، ثم دنا الموحدون من أسوار شلب ، ونصبوا عليها المجانيق ، وآلات الرمى ، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً .

وأما المنصور ، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذى كان أنشأه السيد أبو يحيى . ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء، ليشاهد آثار القرون الماضية ، وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر ، وأمر بإنزال التمثال الذى كان منصوباً فوق بابها ، وقد كان وفقاً لقول البكرى تمثالا للعذراء . ويقول لنا صاحب البيان إنه هبت فى عصر ذلك اليوم ريح عاصفة أحدثت بعض الخلل فى محلة الساقة ، فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء ، وأن هذا التمثال كان طلسما لحمايتها ، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه ، وأنحى باللائمة على جهل أهل قرطبة[1] ، وأمر بالاجتهاد والتأهب .

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة ، جاءوا ليسعوا إلى عقد الهدنة ، وكان مقدم الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، قد بث حسبما تحدثنا رسالة الخليفة ، بين النصارى ، أسباب الجزع والفزع ، فبادر ملوكهم إلى إرسال رسلهم فى التماس المسالمة والتهادن ، وأنه بينما كان الخليفة على وشك العبور من القصر الصغير ، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية ، يعرضون السلم ويطلبون عقد الهدنة ، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى . وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة ، فاستجاب الخليفة إلى مطالبهم ، لأنه حسبما يقول لنا فى رسالته، رأى مصلحة المسلمين فى افتراق كلمة الكفر ، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة ، ولم يأبه بالحلف القديم الذى كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين[2] .

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبى حفص أن يسير إلى إشبيلية فى جيش خاص من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن إليهم ، ليتجهز هنالك وليلحق به وبإخوته فى طريق الغزو . وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتزقة ، والحشود الواصلة من العدوة، وفرقت فيهم البركة، ثم أمر بعقد الرايات، وخرج فى قواته من قرطبة متجهاً نحو الشمال الغربى إلى وادى التاجُه ، ولحق به السيد أبو زكريا فى قواته فى نفس الاتجاه . وكانت خطة المنصور، فيما يبدو هى العمل

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ .

(٢) رسائل موحدية — الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و٢٢٣ .

على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، فى الشمال بعيداً عن شاب ، لكى يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدية الضاربة حولها ، فتستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها . ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شنترين ، وأثخن الموحدون فى تلك الرقعة الخضراء ، فانتسفوا زروعها ، وخربوا ضياعها ، ثم عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرش[1] الواقعة على مقربة من شمال شنترين ، وهى قلعة عظيمة شديدة المنعة ، تقع فوق ربوة عالية ، فحاصروها بشدة ، ولم تمض أيام قلائل ، حتى عرض قائدها التسليم بالأمان ، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى ، وفى الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة ، تغص بالغراس والكروم . ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالا ، وهاجموا مدينة طومار[2] ، وهى قاعدة منيعة ، تقع فى بسيط مخصب زاهر ، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد (الداوية) فخرب الموحدون بسائطها ، ولكنهم اضطروا إلى حصارها ، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة فى الدفاع . ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار ، ويقول لنا صاحب البيان المغرب ، إن رسل ابن الرنك (ملك البرتغال) قدموا عندئذ فى طلب المهادنة والسلم ، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينعقد السلم ، وتنتظم الأمور[3] . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو مما يقصه علينا الخليفة فى رسالته أن الموحدين ، كانوا خلال هذا الحصار ، يوجهون سراياهم فى سائر البسائط القريبة تثخن فيها ، وتمعن فى تخريبها ، وأن سانشو ملك البرتغال كان فى ذلك الحين مرابطا بقواته فى شنترين ، لا يجرؤ على الخروج منها لملاقاة الموحدين[4] .

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا فى حصار طومار ، ولم يأخذوها ، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو . ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته ، أن الخليفة شعر بتوعك تمادى أمره ،

---

(١) هى بالإفرنجية Torres ، وتقوم اليوم مكانها بلدة Torres Novas البرتغالية .

(٢) هى بالإفرنجية Tomar وهى تقع على مقربة من شمال T. Novas .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

(٤) الرسالة الموحدية الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و٢٢٦ .

وأنه من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المؤن والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ماكان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصدوا معظم زروعهم ، وأن يختزنوا المؤن الكافية[١] . ولهذا كله قرر الخليفة أن يختتم أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر فى نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجه . وقضى المنصور فى هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية فى الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ (يوليه ١١٩٠ م)[٢] .

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تُسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تذرع به المنصور من الحزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلا بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شنترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب . وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد الوئيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية ، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نمى إليه من أنه كان فى موقعة المنار أول من بادر بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

---

(١) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

وفى ذلك الحين بالذات ، رُفع إلى المنصور أمر ثائر من نوع جديد ظهر بمراكش . ويدعى على الجزيرى . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر فى صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وإنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول فى الأقطار ، وهو يبث دعوته سراً ، ولاسيما بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسايرهم فى أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساعيه ، فأمر والى المدينة السيد أبو الحسن ابن أبى حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامتها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى واليها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، فقيل إنه ساحر قدير ، وإنه يتصور فى صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمير والكلاب والسنانير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عُثر عليه فى مالقة ، وقُبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفيهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضى المختص ، ويدعى الوانى . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضى بعدد الدنانير التى تقاضاها على سبيل الرشوه ، فهلك قبل أن يستوفى هذا العدد ، وقتل فى نفس الوقت فى مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسايرة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر فى بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحمل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعان إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مادار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة[1] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٢ .

ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة فى امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فمن ذلك ماقاله الجراوى من قصيدة طويلة :

نار من الفتنة العمياء أطفأها ‏ ‏ سعد الإمام وحد الصارم الذكر

مازال إبليس فى الأقطار يوقدها ‏ ‏ وترتمى من شرار الخلق بالشرر

زاد الشقى على الخفاش مشبهه ‏ ‏ ضعف البصيرة إذا ساواه فى البصر

جارى إلى سقر أصحابه فهووا ‏ ‏ فيها سراعا ووافاهم على الأثر

تلك هى رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهى فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهى رواية بلاط لاتمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك الدجال المشعوذ ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان ينُعى على الدولة الموحدية ما جنحت إليه من الأخذ بأسباب الأبهة والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدى الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدى ابن تومرت ، ويبث دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً . ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

فى أم رأسى سر ‏ ‏ يبدو لكم بعد حين

لأطلبن مرادى ‏ ‏ إن كان سعدى معينى

أو لا فأكتب ممن ‏ ‏ سعى لإظهار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور فى صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعى أن تفزع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح الثائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته فى الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاد فى كل مكان . وكان ينجح فى الإفلات من المطاردة فى أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً فى بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

وأرسل إلى مراكش . وكانت ثورة الجزيرة فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م)[1] .

— ٢ —

وفى هذا العام بالذات أعنى فى سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ . ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولابد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التى كان الشرق الإسلامى يجوزها فى تلك الفترة ، والتى حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) ، يواجه عدوان الغرب المنظم فى صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية فى بيت المقدس . وكانت مصر فى تلك الفترة المؤلمة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) هرع الغرب فى حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبي الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحى ، أن يضعف عن مدافعته . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى فى الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً بجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، — يعقوب المنصور — فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستصرخه ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

---

(١) هذه رواية صاحب المغرب فى حلى المغرب (ج ١ ص ٣٢٣ و ٣٢٤) . وقد نقل المقرى هذه الرواية وهذا الشعر فى نفح الطيب .

يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر فى تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربته ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشطر من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل فى الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى فى مهاجمة مصر ، ويعتقله بذلك فى جزيرته . ثم يقول صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لاترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة ، يُطلع بها شمس النصر من مغربها »(١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ما كاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه فى موقعة شنترين ، حتى أخذ يواجه حسبما رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء فى المغرب أو الأندلس . فأما فى المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بنى غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما فى الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد عدوان النصارى عن أراضى الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العدوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبيعى ، فى تلك الظروف الدقيقة التى يجوزها الموحدون ، فى المغرب والأندلس ، أن صريخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدى ، وان رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من الفوز بعون الخليفة الموحدى. ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريخه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم فى المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها فى المشرق، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحدون ضد اسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر فى المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد فى العام التالى فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، فأرسل إلى الخليفة

(١) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ – ٥٣٠ .

يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهير شمس الدولة ابى الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، وممن يصطفيهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام براً وبحراً ، وفى مقدمتهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التى حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجهود فى البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزمة الفادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح »[1] .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية فى تاريخ وصول السفير المصرى إلى المغرب ، وفى ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراكش فى شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة فى العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة فى نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصرى بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصرى إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم فى جيوشه إلى الأندلس معتزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان فى تلك الآونة بالذات مقيما بإشبيلية ، يجد فى الأهبة ، ويترقب الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهى رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصرى ،

---

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٣ . وراجع مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال) ج ٢ ص ٣٦١ و٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بثغر تونس، ثم بثغر بجاية، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبوالحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام، وكتبا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه فى شهر رجب سنة ٥٨٦هـ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمرا فى مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتمان رسالته حتى يستقبله الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرما ، حتى يتم هذا الاستقبال[1] .

ولبث ابن منقذ مقيما بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور فى تلك الأثناء ، حسبما نفصل بعد ، قد نظم غزوته الكبيرة لأراضى البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبى دانس أو قصر الفتح فى جمادى الأولى فى سنة ٥٨٧هـ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها فى جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية، ثم غادرها عائداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ (يوليه ١١٩١م) ، ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت اليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم فى ربعة مخيشة بالمسك، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجوهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها. ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار» إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان فى السادس من محرم سنة ٥٨٨ هـ (يناير ١١٩٢ م) وإنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام[2] . وأفضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضمون سفارته ، فتلقى جواب المنصور عنها مجملا. ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعارة الأسطول[3] وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراكش فى العاشر من المحرم سنة ٥٨٨ هـ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته فى القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من هذا العام[4] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار (المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١٩٥٨) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و١٨٤ .

ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمه من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فمنحه المنصور صلة سخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، وهذا بعض ما جاء فى القصيدة المذكورة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نداك الغمر بالنجح كافل
فلازلت للعليـــاء والجود بانياً تبلغك الآمال ما أنت آمل[١]

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفى بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريخ صلاح الدين ، لأنه لم يلقبه فى رسالته بألقاب الخلافة[٢]. وهى رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدى، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التى كان يجوزها الغرب الإسلامى . أعنى المغرب والأندلس ، فى تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهى منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بنى غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التى كان يواجهها الشرق الإسلامى، من عدوان النصارى والصليبيين . وبالرغم من نجاح الموحدين فى غزو البرتغال، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربى الأندلس، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التى كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ، ترابط باستمرار فى مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لمؤازرة الجيوش الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشارقة ، بقوات كان هو فى أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه فى رد العدوان الذى يواجهه .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التى انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى . أن تقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التى تعرض فيها كلاهما لمحنة العدوان الصليبى .

— ٣ —

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، منذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٩١م) فى قوات كثيفة، حسنة الأهبة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه مخترقاً أراضى البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصد الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أوقصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرق أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر[1] ، فلما وصل إليها قسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص، وقام العبيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجمين وابلا كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الجند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بجنده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة، بعزائم أشد . ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال — فى خلال يوم وليلة فقط — نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٧ هـ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

---

(١) كانت قاعدة القصر Alcacer do Sal فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة حسنة متوسطة على النهر المسمى شطوبر (Sadoa) وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية بكثرة . وفيما استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلا (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، بادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا فى المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح. واستولى الموحدون على المدينة ، وشرع المنصور فى النظر فى شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية، فى مخازن إشبيلية وسبتة ، وندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبى محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق، أيام ثورة ابن قسىّ ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)[١] .

وسار الموحدون بعد ذلك إلى حصن قلماله [٢] ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم فى الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأخلى سبيلهم ، فساروا آمنين الى بلادهم ، ونهب الموحدون سائر ما فى الحصن من من الأثاث والأقوات والسلاح. ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى محيت آثاره. وزحف الموحدون على حصن المعدن[٣] القريب ، فاستولوا عليه، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثراً بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية فى شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة، وهى حصون قلماله ، وكوينا ، والمعدن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا باخلاء حصونهم ، وفروا فى مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحدون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض[٤] .

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى فى هذه الغزوة، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها فى يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م) . وفى الحال طوقها الموحدون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

---

(١) البيان المغرب ص ١٨٥ .

(٢) حصن قلماله ، وهو بالبرتغالية **Palmela** .

(٣) حصن المعدن هو بالبرتغالية **Almada** .

(٤) **Huici Miranda: ibid; (cit Crónica de Sancho 1, p. 537)**

المحيطة بها ، ونصبت حول أسوارها المجانيق ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، ففى فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون الفرص . وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة فى مثل هذه الفترة . ولكن الموحدين بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلمة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يثخنون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلا قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب فى يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية (٢٣ يوليه سنة ١١٩١م) ودخلها الموحدون فى الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت فى أيدى البرتغاليين ، منذ سقوطها فى رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين[١] . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير[٢] .

تلك هى الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا المجانيق حول المدينة ، وأخذوا فى ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطر أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى فى ظاهر شلب ، ثم غادرها فى قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية فى الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ يوليه سنة ١١٩١ م) .

وأنفق المنصور فى إشبيلية شهرين آخرين ، عنى خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفاء القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

وفى غرة رمضان ، جلس بحدائق البحيرة خارج إشبيلية ، لتلقى تحيات المودعين ، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر إشبيلية ، ميمماً شطر العدوة ، وعبر البحر فى الخامس عشر من رمضان ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى حضرة مراكش[١] وماكاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الجراوى :

إياب الإمام حيـــاة الأمم توالى السرور به وانتظم
وجاد به الأرض صوب الحيا وجلى الظلام به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان لذى همم دونهن الهمم

على أن المنصور ماكاد يستريح من وعثاء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال أشهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحُمل إليها فى محفة ، واستمر بها أشهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشى بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى والى إشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلكأ فى العود مؤملا أن يموت أخوه ، وأنه قام فى ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الجزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب : وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس[٢] . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائتمار السادة بالخليفة وقع فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتآمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

---

(١) يقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين للبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف والى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب فى جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى نزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبى دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمس عشرة ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك فى شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة (ص ١٤٤) وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .

(٢) المعجب ص ١٥٨ و١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبى عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان سنه نحو عشر سنين[1] ، وهو الذى تسمى بالناصر فيابعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القرابة كالسيد أبى زيد والى إفريقية ، وولده السيد أبى يحيى والى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين مؤيدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد[2] .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبى عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتنويه بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبى ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدى ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ؛ وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

« وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العميم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحد . . . المؤهل المؤثل ، الحائز لشرف الانتساب . . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتماء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماه » .

ثم تقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الجلى ، بيعة مباركة سعيدة ، استقبلو بها آمالا فسيحة مديدة ، وأعمالا من البر والتقوى جديدة : أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأسحبت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالا معالم الإسلام والإيمان . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

---

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمير الأجل السيد السعيد الأوحد . . .بيعة إخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمائرهم ، وتوافق من بواطنهم ، وظواهرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من من السمع والطاعة فى السر والجهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالاة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وإيمانهم ، وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم»[1]

وفى العام التالى سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وصل السيد أبو زيد والى إفريقية ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفى صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم[2] ، وكان الخليفة قد تحرك فى تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصح أطبائه ، فالتقى به السيد أبوزيد ومن معه فى تانسيفت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراكش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأمضت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمير المؤمنين فى طريقه لتزجى إليه آيات الشكر ، والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر فى شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون بما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بنى غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سليم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البر بحسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التى أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكناها والاستجمام بها . وكان فى تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

---

(١) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذى سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت بخططها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وألقى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراكش فى منتصف هذا العام (٥٨٨ هـ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهبات ، واستكمال العدد[١] .

وفى العام التالى سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج إشبيلية ليكون منزلا للمجاهدين ، وأن يكون موقعة فى وسط الشرّف . ويقدم إلينا المراكشى بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبْنى له على النهر الأعظم (نهر الوادى الكبير) حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء ، وإيثار التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو ينقل فيما يرجح عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كمل بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل مايتعلق بهذا الصرح وطرازه وصفاته[٢] .

ووقعت فى تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبى إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس فى الرواية الموحدية ، ما يلقى ضوءاً على شخصية هذا الزعيم الثائر ، ولا كنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شرذمة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقى فى روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه (الوفيات ج ٢ ص ٤٣١) وهو قول تطبعه المبالغة .

(٢) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره . وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه فى تلك المناطق ، وتوالت على الخليفة المنصور أنباؤه ، فبعث إلى السيد أبى زكريا والى بجاية ، بأن يبذل كل ما فى وسعه للقبض على هذا الزعيم الثائر . فخرج السيد أبو زكريا فى عسكره من بجاية ، وهو يتحسس أخبار الأشل ، ويتقصى آثاره : ولما توغل بعيداً فى الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادى ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنفذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الثائر ومكان وجوده . وحاول فى نفس الوقت أن يغرى بعض الأعراب بالصلات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسله الثقاة ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الثائر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو فى ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التف حوله لفيف من شيعته وهو يحدثهم بلسان حضرى : وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهو يبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على مخادعته وغدره : ثم سار السيد فى قواته ميمماً شطر قلعة بنى حماد ، وهى من أعمال بجاية ، ودخلها بعسكره : وهنالك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يحل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لا يستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتمى بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تدخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحى بأبنائنا فى سبيل شقى منافق : وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر فى مختلف الأحياء ، ووقف الأشل على ما حدث فأراد الفرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحملوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته ، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الثائر وصاحبه ، وحملت رأسه إلى بجاية ، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخمدت بذلك ثورته فى مهدها[1]

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .

ولم تكد تنتهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور فى سنة ٥٩٠ هـ ، أنباء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بنى غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيثون فساداً فى أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، بطل هذه الحركة التى كادت تقضى على سلطان الموحدين فى إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة فى معركة الحمة (سنة ٥٨٤ هـ) قد فر جريحاً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية فى مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفى بعد قليل متأثراً بجراحه التى أصابته فى معركة الحمة[١] . ويقول ابن خلدون إنه توفى فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه فى بعض المعارك ، وذلك فى نفس العام (٥٨٤ هـ) فدفن هنالك ، ثم حمل رفاته إلى ميورقة[٢] . ويقول التجانى فى رحلته إن على بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمة ، توغل فى صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات على بعد ذلك على توزر من سهم أصابه فى ترقوته فقضى عليه[٣] .

ولما توفى على بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مُثُله ، ويرمى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدين ، والقضاء على سلطانهم فى إفريقية ، معتمداً فى ذلك ، مثل أخيه على محالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذى كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده . ذلك أن قراقش مالبث أن جنح إلى طاعة الموحدين ، فسار إلى تونس واجتمع بواليها السيد أبى زيد ، فتلقاه بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً فى كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ[٤] . وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن منقذ التى أوفدها صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدى ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقى الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، ابن أخى السلطان

---

(١) المعجب ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٣ .

(٣) رحلة التجانى ص ١٦٢ .

(٤) رحلة التجانى ص ١٠٤ .

صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيحاء السلطان ، حتى لاتعتور الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأى ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين فى الظروف التى كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإنا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم المحاميد ، وحميد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس[1]. ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق،فالتقيا بموضع يعرف « بمحسن» من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراكش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقى وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى[2] .

ونحن نقف فى حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يمضى فى قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاما ، وهو ينزل بقواتهم الضربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعا .

---

(١) رحلة التجانى ص ١٠٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) رحلة التجانى ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

الفصل الثالث

موقعـــــة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . مسيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاة الأندلس وإبلاغهم بانقضاء المدنة مع النصارى . غارات النصارى وعيثهم فى أراضى الأندلس . تعديل المنصور لخطته وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواعث هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . مسير المنصور من مراكش إلىقصر المجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلىشبه الجزيرة . مسيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . مسير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . مسيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته فى ربوة الأرك . مسير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد فى خطة القتال . تقسيم الجيش الموحدى وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الغفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة فى ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدى . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعته . مقتل القائد العام أبى يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى. اضطرار النصارى إلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حملة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة فى سائر قواته نحو النصارى . ارتياع النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة فى فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليم حصن الأرك . استنقاذ الأسرى المسلمين وتسريح حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالى وخسائره . خسائر المسلمين . الغنائم والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة فى المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب نصر الموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للغنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهانى الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومعته . قضاؤه الشتاء فى إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . مسير المنصور من إشبيلية إلى منطقة استرمادورة . افتتاح الموحدين لحصن منتانجش . استيلاؤهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسنثيا وأسر حاميتها . مسيرهم إلى طلبيرة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الغزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبسائطها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزو الموحدين والليونيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلبية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعداده للغزوة التالية . مسيره إلى قرطبة ونزوله بها .

لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص عن استفحال أمر بنى غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيثهم ، اعتزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هنالك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاة الأندلس بالحضور لتلقى تعليماته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التى عقدت مع ملك قشتالة فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أى ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينذرها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقماطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويثخنون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية[1]. فصرف المنصور ولاة الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية . ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته : وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لوبث فى حملة تخريبية محضة إلى أراضى الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو فى مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يُعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاة إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين فى العبور إلى الأندلس أشد لقربها ، وتيسير المؤن والأقوات بها[2].

تلك هى البواعث والظروف التى أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية . ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

---

(١) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لغزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يضمر الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التى قام بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، والرسول فى محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر (أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجنى فى كتابه « رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة » (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٢) .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩١ و ١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

على أثر انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين ، غزا أراضي الأندلس ، وتوغل في غاراته حتى الجزيرة الخضراء . وهنالك وجه إلى الخليفة المنصور كتابا من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار ، يتحداه فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة ، أن يأتي لقتاله ، فإن جبُن أوعجز ، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه ، ويقاتله في أعز مكان لديه ، وأن المنصور غضب لذلك ، واستنفر الناس للجهاد ، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس[1] . على أنه يبدو من نص هذا الخطاب ، ومن تحدثه عن « تواكل رؤساء الأندلس ، وإخلادهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين ، وليس إلى الخليفة الموحدي .

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) كانت أهبات الحملة الموحدية ، قد تقدمت تقدماً كبيراً ، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة . وفي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش ، والجيوش تتلاحق في أثره من سائر النواحي ، وسار توا إلى قصر المجاز (القصر الصغير) ، وهنالك عني بتنظيم تموين الجيوش ، ثم بدأ الجواز ، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ، فغمارة ، فالجيوش المطوعة ، ثم الموحدون ، فالعبيد ، ولما تم جواز الجيوش على هذا النحو واستقرت بأراضي الجزيرة الخضراء ، عبر الخليفة المنصور البحر في جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء ، والعلماء ، وكان عبوره إلى طريف[2] في يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (أول يونيه سنة ١١٩٥ م) .

وأقام المنصور بطريف يوما واحداً ، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية ، ولقيه في الطريق والي إشبيلية السيد يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها ، ثم تقدمه ليعد له أسباب النزول في الحضرة الأندلسية ، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جَهور ، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه ، وعهد الخليفة إلى أبي بكر

---

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ ، وابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٤٥ ، والنويري طبعة ريميرو في مجلة (Revista del Centro de Estudios Historicos T. VIII ano 1919 p. 218) ج ٨ ص ٢٧٣

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢ ، وفي روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦) .

ابن زُهر وزملائه أشياخ المدينة ، بإنزال الأشياخ والأكابر فى الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفى الغد ركب الخليفة إلى حصن الفرج الذى كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روائه . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفى يوم السبت أمر بإجراء التمييز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقرابة والوزراء ، واستعرض الجند صفاً صفاً ، وقبيلا قبيلا ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود[1] .

وأنفق المنصور فى إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه فى أناة وروية ، وفى صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب (٢٢ يونيه) غادر إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، مخترقاً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب موراداال فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار فى قواته شمالا ميمماً صوب سهول شلبطرّة وقلعة رباح .

— ١ —

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » فى مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف فى قواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند ، وبعث إلى زميليه ملكى ليون وناڤارا فى طلب العون ، فوعداه بذلك ، وانتظر أياما بطليطلة حتى وفد أتباعه فى حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضى قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل فى قواته إلى طلبيرة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك ناڤارا (نبرّة) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، واثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد فى المحلة المسماة

---

(١) البيان المغرب ص ١٩٢ و١٩٣ .

« بالأرك » : وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً فى غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة[1]، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هى نقطة الحدود بين قشتالة وأراضى المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معتزما أن يلقى الموحدين وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه .

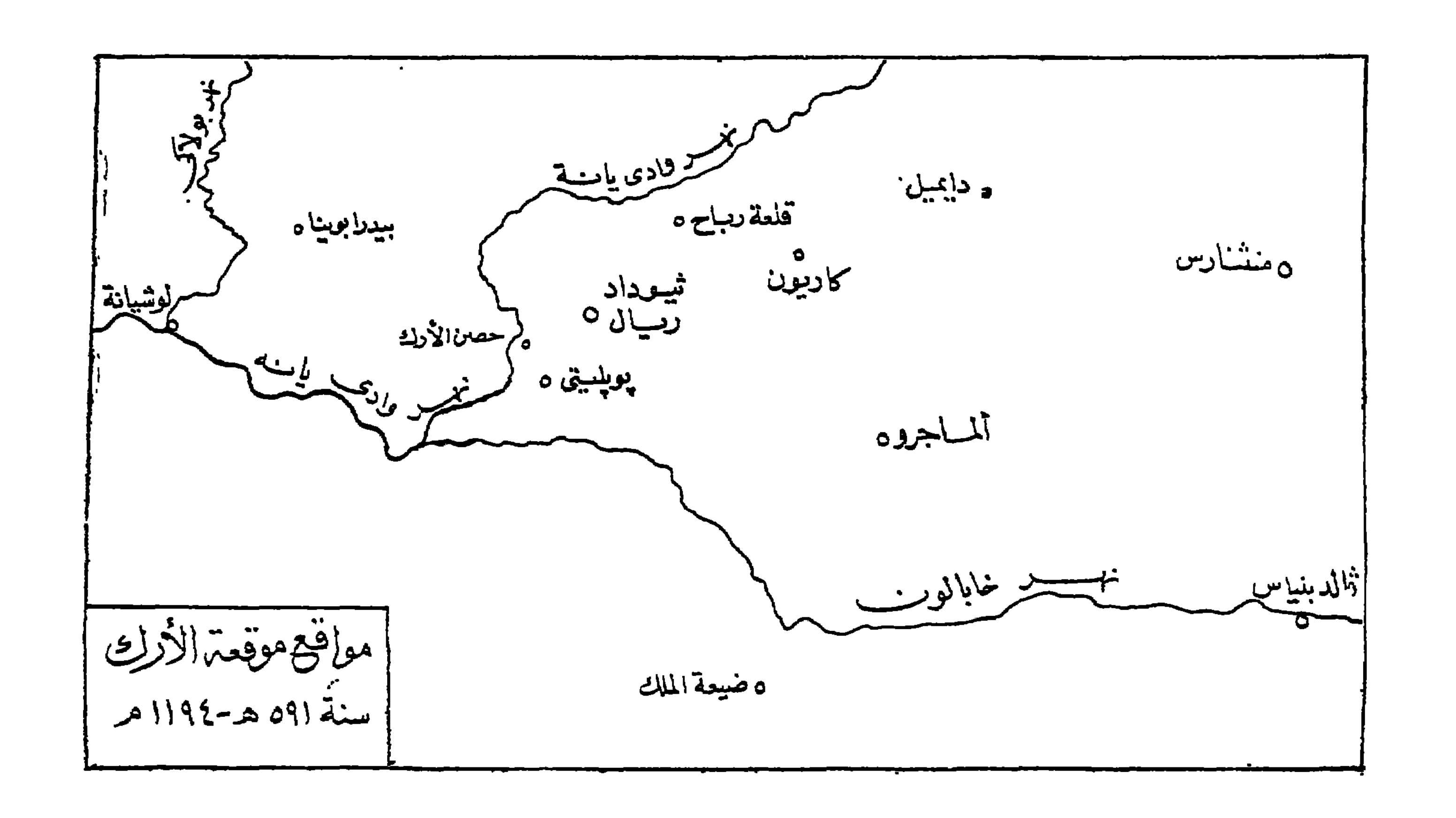
وأما الخليفة المنصور فاستمر فى سيره مخترقاً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالى المعسكر فى الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر فى سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإنه نزل هنالك، وذلك فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٣ يوليه سنة ١١٩٤م) : وماكاد الجيش الموحدى يستقر فى محلته حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدين وأبادتها قتلا : ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الخسارة تقع فى معظم الأحيان على القشتاليين : وفى خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويجرى مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحالوه على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة فى المؤخرة ومعه جيوش الموحدين والعبيد والحشم فى موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فبها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يبادر الخليفة فى قواته إلى لقاء العدو ، وليحمى ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأى وقرر اتباعه[2] .

ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

---

(١) الأرك هى بالإسبانية Alarcos ، وثيوداد ريال هى Ciudad Real ومعناها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos فى فحص قلعة رباح .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ .


مواقع موقعة الأرك
سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤ م
نهر وادي يانة
داعيل
قلعة رباح
منشارس
كاريون
شيوداد ريال
بيدرابونيا
لوشيانة
حصن الأرك
پوپليتي
نهر وادي يانه
الماجروه
نهر خابالون
ثالدبنياس
ضيعة الملك

الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فيقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبته الحمراء واستدعى الشيخ أبا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبى حفص الهنتاتى صاحب المهدى ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوى على قبائل مغراوة ، وعقد لمحيو بن أبى بكر بن حمامة على جميع قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوى التجينى على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبى خزر يخلف الأورينى على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبى يحيى بن أبى حفص ؛ واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدين والعبيد[1] .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قادته أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصارى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزلت فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان (١٧ يوليه) فلما رأى النصارى اقتراب الموحدين خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلا من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدين لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصارى المتقدمون جمود الموحدين ، عادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم[2] ؛ وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يوليه سنة ١١٩٥ م) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد « عبئت تعبئة حرب » ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناتة وسائر القبائل المغربية والعرب فى

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ .

(٢) الرواية النصرانية اللاتينية Chronique latine des Rois de Castille وقد أوردها الأستاذ هويثى فى بحثه عن معركة الأرك Campana de Alarcos المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد Vol. II. p. 62-67 ، ثم فى كتابه Grandes Batallas de la Reconquista, p. 152.

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز فى المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هنتاتة . وبقى المنصور فى خاصته ، وفى جند الموحدين والعبيد فى المؤخرة ، على أهبة للتدخل فى اللحظة الحاسمة[١] .

ووقعت قبيل المعركة بقليل فى المعسكر الموحدى ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم بيمن نيته وصدق طويته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضى أبو على بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، فى الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها فى إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء العزائم[٢] .

ويجدر بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التى وقعت فيها ، وقد أتيح لنا زيارتها ودراستها[٣] .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعينه وتحدده ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحدده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذى عرفت باسمه المعركة ، والذى تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التى كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى «كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك» Sta Maria de Alarcos .

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربى مدينة «ثيوداد ريال» الحديثة ، وشمال غربى بلدة «بوبليى» الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تخترق فى البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التى تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أو سيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى فى تلك الناحية Ermita

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ و ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ .

(٣) كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .

عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . وتوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة .

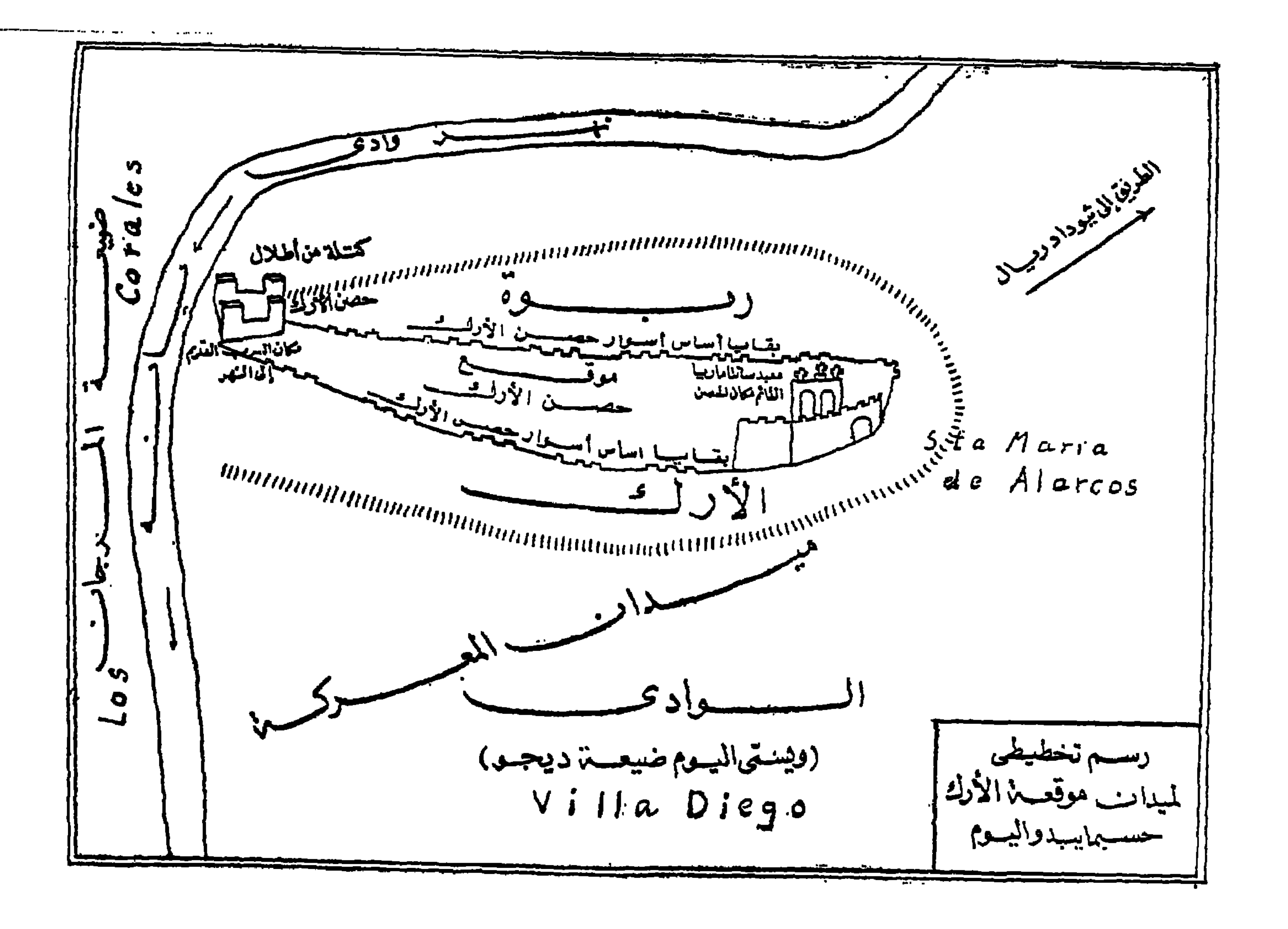
وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولا فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غربيه . وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المماثلة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

ويوجد عند نهاية الأنقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحتها أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيلها إلى النهر لتشرب من مائه . وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الأنقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الأنقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بحذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويدور فى انحناءة كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبليتى ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

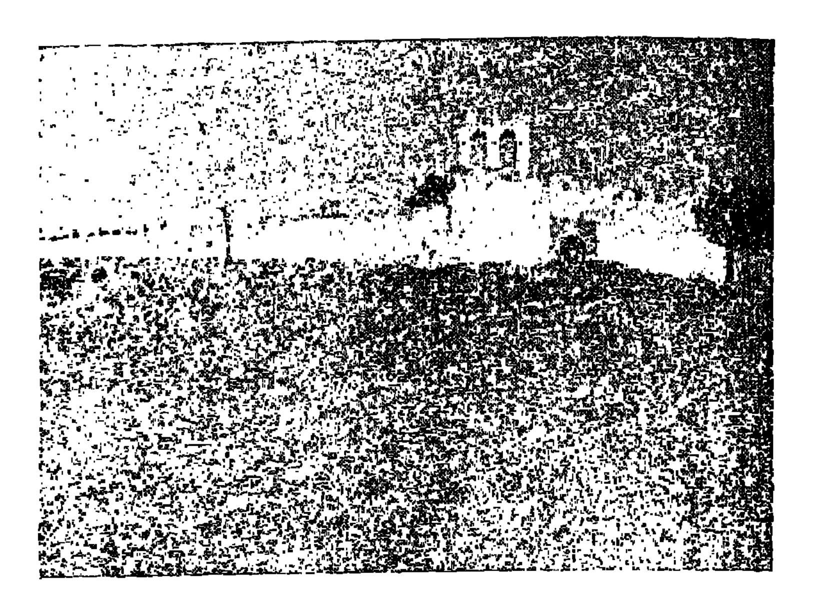
وفى ضحى هذا اليوم — التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يوليه سنة ١١٩٤ م) — نشبت المعركة المرتقبة . وكان القشتاليون حينما رأوا جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء ، وقد عبئت للهجوم أكمل تعبئة ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قاتمة ، أو حسبما تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس ،


ضيعة المرجان
Los Corales
نهر وادي
كتلة من أطلال
حصن الأرك
مكان السرب القديم
إلى النهر
ربوة
بقايا أساس أسوار حصن الأرك
موقع
حصن الأرك
بقايا أساس أسوار حصن الأرك
معبد سانتا ماريا
القائم مكان الحصن
الأرك
Sta Maria
de Alarcos
الطريق إلى ثيوداد ريال
ميدان المعركة
الوادي
(ويسمّى اليوم ضيعة ديجو)
Villa Diego
رسم تخطيطي
لميدان موقعة الأرك
حسبما يبدو اليوم

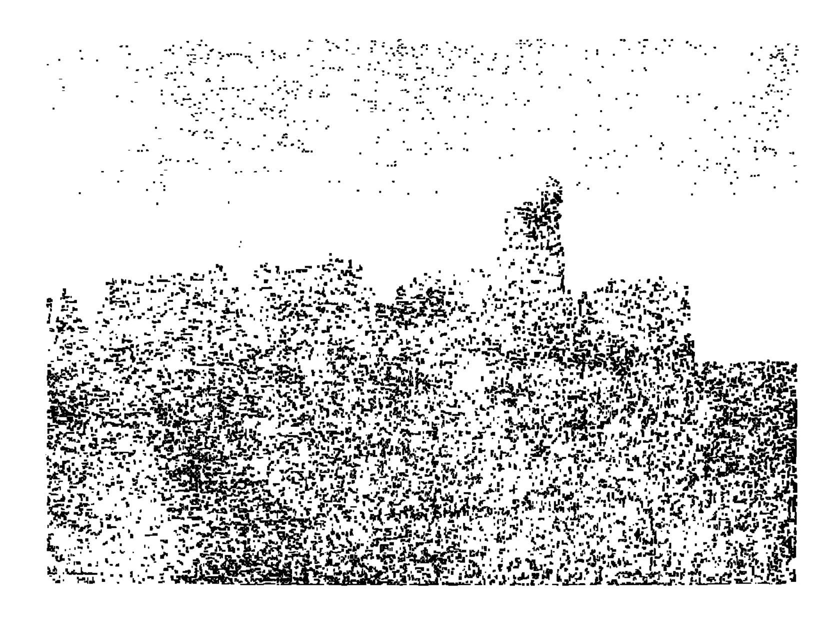
والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً » . ويقدر صاحب روض القرطاس، من هبط فى هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس «كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرد » . ثم يتتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أوكادت ، ثم تقهقرت قليلا ؛ وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلى ، وفى أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد ، يحث كل منهما الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التى يقودها القائد العام أبو يحيى ، معتقدين أنه هو الجناح الذى يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب ، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيى ، وقتل معه جماعة من هنتاتة ، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين ، التى اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التى تحتلها محلتهم ، وبدت بوادر الهزيمة على القشتاليين[1].

ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهى رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولا على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخلاط السوقة ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يحث الجند على الثبات والهجوم على العدو ، فكان لحركته أعمق وقع فى نفوس الجند، فاضطرمت هممهم وعزائمهم ، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل فى صفوف القشتاليين ، واضطروا فى النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع

(١) روض القرطاس ص ١٤٩ — ١٥٠ .



كنيسة الأرك (سانتا ماريا دى ألاركوس) التى أقيمت على أنقاض حصن الأرك



مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر فى نحو عشرين فارساً من من أصحابه ، فسار تحت جنح الليل صوب طليطلة لايلوى على شىء ، واعتصمت معظم فلول النصارى بحصن الأرك[1] .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين فى الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصما مع باقى قواته بربوة الأرك . فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو الربوة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة ، وحصدوهم حصداً ، وأفنوهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفى مقدمتها اللواء الخليفى الأبيض ، وزحف المنصور فى القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حينما رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقى ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حينما رأوا كثافة الجيوش الموحدية ، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدهم قتلا وأسرا ، وأحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار فى أبوابه ، واحتووا على جميع مافيه ، ومافى محلة النصارى ، من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء[2] .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالهجوم على الموحدين . وتؤيدها فى ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلا عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلتهم فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة فى معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون فى قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين . وفى الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .
(٢) روض القرطاس ص ١٥٠ .

ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون فى المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يثخن مع طائفة من رجاله فى المسلمين يميناً وشمالا . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدية ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تخلى عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة فى نفر من الفرسان وقلوبهم تنفطر لما حدث حزناً وأسى[١] .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت فلول القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون ديجولويث دى بسكاية . وتقدر الرواية الإسلامية هذه الفلول بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه وخديمه القشتالى دون پيدرو فرنانديث دى كاسترو الموجود بمحلته ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن فى الحال ، وأن يُعطى اثنى عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون ديجو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون پيدرو فرنانديث (وتسميه ببطره ابن فراندس) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون ديجولويث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه فى طليطلة[٢] .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية يطبعها شيء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا فى حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

---

(١) الرواية النصرانية اللاتينية **Chronique Latine des Rois de Castille** التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ و١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التى سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٤) .

قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطة من سقطات الملوك[1]

تلك هى تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التى أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المغرقة ، وهى قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالى أرقاماً لا يسيغها العقل لكى تتفق مع هذه النتائج . وهى لاتقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدى ، وتكتفى بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء[2] . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل[3] . ويقول الضبي إنه كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل[4] . أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل فى المعركة من الكفرة ألوف لاتعد ولا تحصى . ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النويرى ، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً[5] . بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالا ، هى رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التى نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل فى المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً[6] . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع فى روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة[7] . وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويرى ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهى رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة[8] . وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال ، وطول أمد المعركة .

---

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (طبعة جسبار ريميرو السالفة الذكر ج ٨ ص ٢٧٤) .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٩ .

(٤) بغية الملتمس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

(٦) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ .

(٧) كتاب الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٤) .

(٨) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (الطبعة السالفة الذكر) ج ٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لايسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ، وكعادتها فى مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التى تضطرم بين الإسلام والنصرانية ، تجنح إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم تمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة فى مثل هذه المعركة التى بلغ فيها القتال أشده ، والتى ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المنهزم ، وأثخن الموحدون فى فلوله قتلا وأسرا ، ولكنها لايمكن أن تعدو بضع عشرات من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذى يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصر وهو ثلاثون ألفاً ، يطبعه التعقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مدهشة . فيقول لنا ابن الاثير ، ويتابعه النويرى ، إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لاتحصى من الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً لأحكام الشريعة . وكان الخليفة فضلا عن ذلك ، قد نادى فى عسكره أن من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين ألف لباس[1] .

وثمة مسألة أخرى تميل الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقيعة الأرك ، وهى المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاّقة ، وذلك من حيث ظروفها ونتائجها . فهى تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر المسلمين فى الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركهم فى النهاية قوات ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ماحدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش الموحدية النصارى ، مجتمعة وفى جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة « مقسومة الثقل ، مكدرة الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع عامة المسرة » . ثم هى ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام الإسلام المشهورة ، وبها اعتز الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس[2] . على أن المقارنة

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (طبعة ريميرو المشار إليها) ص ٢٧٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .

لاتقف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة[1] ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التى تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لايخلو من ذكر هذه الأساطير . وأسطع ما تقصه علينا فى ذلك هو حديث الحلم الذى يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، فى ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به ببلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راكعاً ساجداً مبتهلا ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فبينما هو راكع فى مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح فى السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، وبيده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك . ثم أنشد هذا الفارس أبياتاً حفظها الخليفة وهى :

بشائر نصر الله جاءتك سافرة ... لتعــــلم أن الله ينصر ناصره

فأبشر بنصر الله والفتح إنه ... قريب وخيل الله لاشك ظافرة

فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا ... وتخلى بلاداً لاترى بعد عامرة

وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر[2] . فهذا الحلم الذى تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذى تذكره لمناسبة موقعة الزلاقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبي وكان بمحلة ابن عباد ، نهض فى جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبي ، وإن النبي بشره بالفتح والشهادة[3] . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذى تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من آن لآخر ، من أن الملوك النصارى ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفى يده صليب أونحو ذلك .

---

(١) راجع كتابى « دول الطوائف » ص ٣١٩ – ٣٢١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) الروض المعطار ص ٩١ .

والرواية سواء أكانت إسلامية أونصرانية تجنح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص فى المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما .

على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون فى الزلاقة ، قوى اسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عميدها ألفونسو السادس . أما فى يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة فى قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضى قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طلبيرة ، ولكنه لم يقدم على معاونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التى طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومحالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معاونة من ملك ناڤارا ، أومن ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، ويقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً فى معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأسلابهم ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة[١].

وتختلف كذلك موقعة الأرك فى نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت مؤقتاً على الخطر الذى كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتصرت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يُتبع يوسف بن تاشفين نصره فى الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضى قشتالة . هذا فى حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة فى أراضى قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور فى قواته ثانية لغزو أراضى قشتالة ، واخترقها حتى شمالى طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين فى معركة الأرك ، يرجع فضلا عن تفوقهم العددى ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة فى الغزوات الموحدية

---

(١) بغية الملتمس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه ومؤنه بصورة مؤكدة ، وتقسيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة فى تحرك الجيش ، وإعداده لضرب العدو على الفور . فهذه الميزات التى روعى تحقيقها فى الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر فى معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التى أصيب بها فى غزوة وبذة ، ثم بعد ذلك فى نكبة شنترين[١] .

— ٢ —

ما كادت تنتهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سريات من جنده فى أراضى قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو فى هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانتزعوها من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيو دى فوينتس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرّة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعة ، بعد أن لبثت فى حوزة النصارى منذ سقوطها فى أيديهم فى سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذى كان قد حول إلى كنيسة ، وقدم على حاميتها يوسف بن قادس[٢].

نقول ، وقد أتيح لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة[٣] هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعة ، التى لبثت دهراً من حصون الأندلس الأمامية ، والتى لعبت دوراً كبيراً فى الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

---

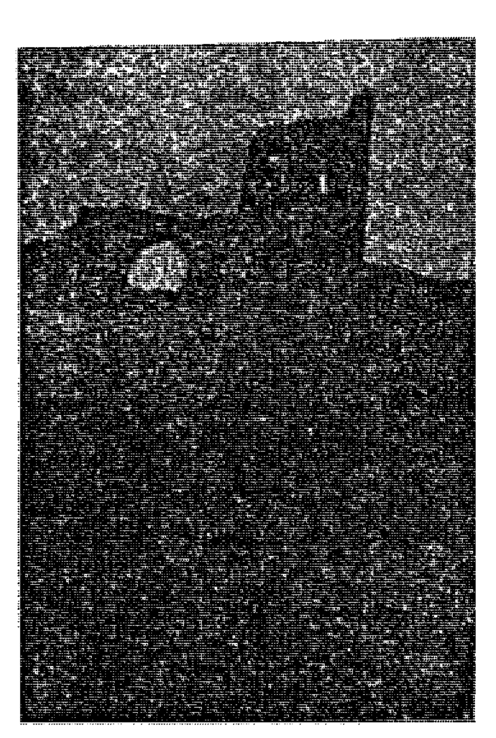
(١) راجع فى معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ — ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ — ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، والنويرى (طبعة جسبار ريميرو) ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطانى ج ٢ ص ١٥٢ — ١٥٦) . ونشره الأستاذ هويثى ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد ج ٢ ص ٥٧ — ٦١ وراجع أيضاً :

H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169

(٢) الروض المعطار ص ١٦٣ .

(٣) وهى بالإسبانية Calatrava la Vieja .

الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كريون ، وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بسيط كبير تظلله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادى يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، فى إحداهما وهى اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملا ، وفى الوسط يقوم جدار ضخم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخللة الأنقاض والخرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهى عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة



جانب من أطلال قلعة رباح

لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرهبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرنى بسرعة الرحيل .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار مخترقاً أراضى قشتالة يثخن فيها قتلا وأسراً وسبياً حتى وصل إلى جبل سليمان(١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لايوجد ما يؤيد هذه

---

(١) وهو بالإسبانية « Cuesta de Zulema » مرتفع سليمان » .

الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد[١].

وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين، سار فى جيوشه المظفرة ميمماً شطر إشبيلية ، وقد محا بهذا النصر الباهر ما لحق معة الحراب الموحدية فى شبه الجزيرة ، عقب نكبة شنترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ هـ (٦ أغسطس سنه ١١٩٥ م) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تزجى إليه تهانى النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب. وطلب إلى أبى الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى فى كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة فى فتوحهم ، فصدع أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، فى الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعيى وصفه النظم والنثرا ... وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه ... فراقت به حسناً وطابت به نشرا
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى ... وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى ... تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقى ... فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا ... وأمست خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينا فى مهب الصبا يذرا

وأنشد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بين يدى الخليفة قصيدة ، وقعت منه أجمل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيتك معطرة النفس ... نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم ... إن الإسلام لفى عرس
أإمام الحق وناصره ... طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى ... فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على ... عُمد شُمٍّ وعلى أسس

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

وصدعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قبس

لاقيت جموعهم فغدوا فرسا فى قبضة مفترس

جاءوك تضيق الأرض بهم عدداً لم يحص ولم يقس

ومضيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلاكله بظباك على بشر رجس

وتساوى القاع بهامهم المرفض مع الحدب والضرس

فأولئك حزب الكفر ألا إن الكفار لفى نكس(١)

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد فى أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربى المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم (الوادى الكبير) وهو الحصن ، الذى أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذى كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنفار مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدها ، أمر الخليفة بتمييز الجيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو.

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة فى أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة فى أراضى النصارى لإجرائه . وفى أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة فى طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور(٢) ، واستقر الرأى على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الجوف » أعنى منطقة إسترمادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية فى قواته فى منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢(٣) (منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م) ، واتجه شمالا إلى حصن منتانجش(٤).

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب ص ١٦٥ — ١٦٧ .

(٢) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية (ص ٢٣١) .

(٣) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التى توردها الرواية النصرانية .

(٤) ورد اسمه فى الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أنتش) ص ٢٣١ .

وقد كان حسبما أشرنا إليه من قبل من أمنع حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينما بدأوا السير أن هاجمتهم جماعة من « أوباش العرب » وسبت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجتراء والإخلال بالعهود المقطوعة ، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين ، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم ، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة تَرجالُه « قاعدة الثغر الشمالى » الواقعة شمال شرقى منتانجش ، وشرقى مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصارى قد أخذوا فى إخلائها ، حينما شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نسائهم . واستولوا كذلك على بلدة « سانتا كروث »[1] القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار . ثم عبر الموحدون نهر التاجُه ، واتجهوا شمالا نحو مدينة « بلاسنثيا » وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية (ابلتانسية) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين فى إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدنيون قد غادروها ، وبقيت حاميتها فى قلعتها ، فاستولى الموحدون على المدينة ودمروها ، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً ، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم[2] . ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى (بلاسنثيا) بلنسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك[3] . وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسقف والرهبان وكثيراً من النصارى .

---

(١) وتسميها الرسالة الموحدية « شنتقروس Santa Cruz وتصفها بالقلعة « الحسيبة فى الامتناع » ص ٢٣٢ .

(٢) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٣٤ .

(٣) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون فى زحفهم شرقاً صوب مدينة طلبيرة ، وهى أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يثخنون فى أراضى قشتالة ، تخريباً ، وأسرا وسبيا ، فلما أشرفوا على طلبيرة أنتسفوا زروعها ، وحدائقها وأشجارها ، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعتها ، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذ كانت تنقصهم آلات الحصار ، فقنعوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصيروا أراضيها قاعاً صفصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة فى أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالا إلى مكّادة[1] ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطلبيرة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرسانا ومشاة فى أكمل عددها وعدتها ، وقد امتنع النصارى بداخلها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجُه ، إلى ساحتها الجنوبية ، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحدائقها ، ولاسيا منيتها الشهيرة ، وهى التى كانت من قبل لبنى ذى النون ، وورثها النصارى ، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة[2] .

ويقدم إلينا المقرى عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد فى ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والدة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناته ونساؤه ، ومثلن بين يديه باكيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتهن ، وكف عن ضرب المدينة ، ووهب لهن قدراً من المال والجواهر الجليلة ، وردهن مكرمات . وهذه رواية يصعب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول[3] .

وفى خلال الغزوة الموحدية لأراضى قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة ، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومحالفتهم . وغزا ملك ليون ، ومعه قوة من الموحدين أراضى قشتالة من ناحية « تيرادى كامبوس » :

---

(١) وهى بالإسبانية Maqueda . راجع الروض المعطار ص ١٣ .

(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٢٣٦ و٢٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاتلون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنتهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع . ووصل ألفونسو التاسع فى غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفى نفس الوقت أغار سانشو ملك نافارا من جانبه على أراضى قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سُرية ، وعاث فى تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وأثخن ما شاء فى أراضى عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعتها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام التموين فى الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون فى طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضى قلعة رباح ، ثم اتجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقرمونة ، ووصل إلى إشبيلية فى أوائل رمضان (٥٩٢ هـ) بعد أن قضى فى غزوته نحو ثلاثة أشهر[١].

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التى استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضى قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراض أو مواقع ذات شأن . وإنه لما يلفت النظر أن يكتفى الخليفة المنصور ، وهو الذى حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام فى موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبى والنهب فى أراضى العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جليلة ، فى وقت كان فيه فى أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفى وقت كان فيه عدوه الرئيسى ملك قشتالة فى منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكنا للقاء الغزاة فى أية مرحلة من مراحل الغزو . وإنه يحق لنا أن نتساءل ألم يكن فى وسع الخليفة الظافر ، فى مثل هذه الظروف المواتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجُه ، وفى اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقنع بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التى يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

---

(١) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة فى التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهى الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبى ، وهى من إنشاء الكاتب أبى عبد الله بن عياش (ص ٢٢٨ — ٢٤١) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر فى أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثانى الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الجند قسطهم من الراحة والاستجمام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبى سليمان داود بن أبى داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت فى سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدانته وإثبات مافى ذمته من أموال ، بلغت فى الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفيت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عُفى عنه . وأمر الخليفة فى نفس الوقت بمحاسبة أبى على عمر بن أيوب ، على ماكان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن فى ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطولب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبى سليمان حتى عفى عنه أمير المؤمنين .

وفى هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين (المغرب والأندلس) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة ، فأبدى فى تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإسراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بنى حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشَّرْف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى فى نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزو فى أراضى قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بجموعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة فى قواته من إشبيلية فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ (١٤ أبريل سنة ١١٩٦) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق فى دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الخصب ووفرة الأقوات ، حتى تحل الفترة التى تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضى قشتالة[1] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠١ و٢٠٢ .

الفصل الرابع

ما بعد الأرك

حتى وفاة المنصور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتماع الأسباب لنكبته . سعي خصومه في الإيقاع به . تأويل آرائه ومسخها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة اليسانة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور في تبرير تصرفه وفي شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه نكبة الفيلسوف من مغزى . خروج المنصور إلى الغزو . مسيره إلى طلبيرة ثم إلى طليطلة . مسيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادي الحجارة . توجيه كتاب الغزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إشبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة في بناء الصومعة . تزويدها بالتفافيح الذهبية . وصف هذه التفافيح وعملية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن الفرج . تعيينه العمال . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ البيعة لولده الناصر . عطفه على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزي خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بدنو أجله . استدعاؤه للشيوخ والقرابة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والذود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمته والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحدود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكي . اعتناقه للمذهب الظاهري . انتشار الظاهرية في عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدي وعصمته . ما ينسب إليه من نيته في افتتاح مصر . قول المراكشي في ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وضلال أهله . أقواله عن صدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية في غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمة مصر وقوتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وفصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوي يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن جبير . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشآته العمرانية . إنشاؤه لضاحية الصالحة . تجديده لرباط الفتح وإنشاء مسجدها العظيم . إنشاؤه للبيمارستان بمراكش . منشآته بالأندلس . وزراؤه وكتابه . قضاته . أولاده . صفته .

— ١ —

فى خلال إقامة المنصور بقرطبة ، فى تلك الفترة من شهور سنة ٥٩٣هـ ، وقع حادث مؤسف ذو مغزى عميق ، هو نكبة القاضى الفيلسوف أبى الوليد بن رشد. وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ما كان يتمتع به من عطف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبى بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه. وكان ابن رشد فى هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل فى نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل. ثم تقلب بعد ذلك فى عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان يتنقل فى معظم الأحيان مع بلاط الخليفة ، سواء بالمغرب أو الأندلس. ولما توفى أستاذه ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) انفرد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبى يعقوب يوسف.

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوعاً عظيما ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها فى تلخيص كتب أرسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس. ومنها « شرح الأرجوزة » الشيخ الرئيس ابن سيناء فى الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التى تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير ». وهذا كله عدا ما كتبه فى الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق. وقد بلغت تصانيف ابن رشد فى مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة اشتهرت كلها فى المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى جعلت لابن رشد أعظم مكانة فى ميدان التفكير الأوربى.

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما فى علاقة الفلسفة بالدين ، وهو

الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر . ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث الملبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضى أبومروان الباجى فى قوله « كان القاضى أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن ينُكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثتها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحدون فضلا عن ذلك ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون بالأخص منزلته لدى الخليفة . ونحن نعرف ماكان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولاسيما وقد كانوا نصحاءه ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يبثون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمونه بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإيثاره فيها لحكم الطبيعة» . وكانت الفلسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون فى صميم دراساته وكتاباته ، مواد اتهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراكش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجح ينقل عن

ابن صاحب الصلاة : « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة، وامتد بها أمد الإقامة ، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم ، وقوى تألبهم ، واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الألقيات ، وأوضحوا ما احتجنوه من شنيع الهفوات الماحية لأبى الوليد كثيراً من الحسنات ، فقرئت بالمجالس ، وتؤولت أغراضها ، ومعانيها وقواعدها ومبانيها ، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام . ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأغمد السيف بالتماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه ، وفقهاء دولته ، بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين ، وأنه استحق لعنة الضالين »[١] .

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصوراً على الفيلسوف ، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل » . وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبى ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهرى المشهور بالأصولى ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر . وأحضر ابن رشد ، والفقيه أبو عبد الله المهرى وحدهما إلى جامع قرطبة ، وتوارى الباقون . وتولى توجيه الاتهام إلى الفيلسوف وزميله ، القاضى أبو عبد الله بن مروان ، والخطيب أبو على بن الحجاج . ولم يقل لنا صاحب « التكملة » ، ماذا كان موقف ابن رشد ، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه .

وعلى أى حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف ، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفى من قرطبة ، واعتقاله ببلدة « أليسّانة » أو « اللسّانة » ، الواقعة فى جنوبها على مقربة من نهر شنيل . وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود فى هذه المنطقة من الأندلس . وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بنى باديس أصحاب غرناطة[٢] . وقيل فى اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه ينسب فى بنى إسرائيل ، ولأنه لا يعرف له نسب فى قبائل الأندلس » . وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى فى الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفى ، سنه

---

(١) التكملة لابن عبد الملك المراكشى الجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى . ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢ .

(٢) وهى بالإسبانية Lucena . راجع الإدريسى ، وصف المغرب والأندلس (طبعة دوزى) ص ٢٠٥ .

وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . وقُضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنفى إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولى . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أينما وجدت .

ولم يكتف البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً فى هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، إلى مراكش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ماجاء فى هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتدوينه ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان فى سالف الدهر قوم ، خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقرّ لهم عوامّهم ، بشفوف عليهم فى الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحىّ القيوم ، ولاحاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلّدوا فى العالم صحفاً ، مالها من خلاق ، مسوّدة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما فى الله خالقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يذرون . ونشأ منهم فى هذه [اللمحة] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولوشاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهاؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [الغمومة] والتخييل ، وبث عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شىء علما .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدنيهم . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشّحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرّحٌ بالإعراض عن الله ، لُبّس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون فى صورة السِّلم ، مزلّة للإقدام ، وسمٌّ يدب فى باطن الإسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذًى فى جفن الدين ، ونكتة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم فى الله ، كما أنا نحب المؤمنين فى الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهاؤلاء قد صدفوا عن [الله] وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام فلا . . فى مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [بحدة] من عقلهم ونصهم ، ولاكنهم رفعوا بموقف الخزى والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا ، لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية فى الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التى بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عُثر منهم على مُجِدٍّ فى غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فَلْيُعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون . أو لا يرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون . . . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب فى صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم »[1] .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهى التى اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإدانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد أبى يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

---

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشى نص هذا الكتاب الموحدى فى « الذيل والتكلة » فى ترجمة ابن رشد (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى) .

كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى فى أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه الجرأة فى مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل فى باب العيب فى ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال فى شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتى : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه[1] . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتهيئ لخصوم الفيلسوف ومتهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهم المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد فى معتقله فى «اليسّانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور فى شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه فى سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيغ ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب فى حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هى ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك فى سنة ٥٩٤ هـ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته فى البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراكش ليلتحق ببلاط الخليفة . بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولا فى مقبرة « باب تاغزوت» خارج مراكش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن فى روضة آبائه بمقبرة ابن عباس[2] .

تلك هى أدوار المأساة المشجية التى اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التى اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة فى ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة فى عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

---

(١) المعجب للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٢) راجع فى نكبة ابن رشد « الذيل والتكلة » لعبد الملك المراكشى (المخطوط المشار إليه) ، والتكلة لابن الأبار فى ترجمته (القاهرة) رقم ١٤٩٧ .

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمت العميق التى كان يتسم بها التفكير الدينى فى عهد الموحدين :

— ٢ —

وكان الخليفة فى تلك الأثناء يستكمل أهبته للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة فى قواته ، واخترق جبل الشارات (سيرا مورينا) ميمماً شطر طَلَبيرة : فلما وصل إلى حدود قشتالة، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن فى طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضى قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التى وضعها . ولما وصل إلى طلبيرة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حولها من الأراضى دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهنالك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط[1] فى انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضى طليطلة ، مؤملا أن يلتقى بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا فى معظم قواتهما إلى جبال وادى الرملة[2] ، وتركا فى حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون ديجولوبث دى هارو ، وهو الذى كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة : فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادى الحجارة ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادى الحجارة لمنعتها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعتاد والخدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنتزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتدا ركها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفى اليوم التالى ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة فى ظاهر وادى الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدى بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاباً للعدو ، وبعث المنصور من محلته بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

---

(١) وهى التى غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة اسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها العربى من مجريط Magerit إلى Madrid

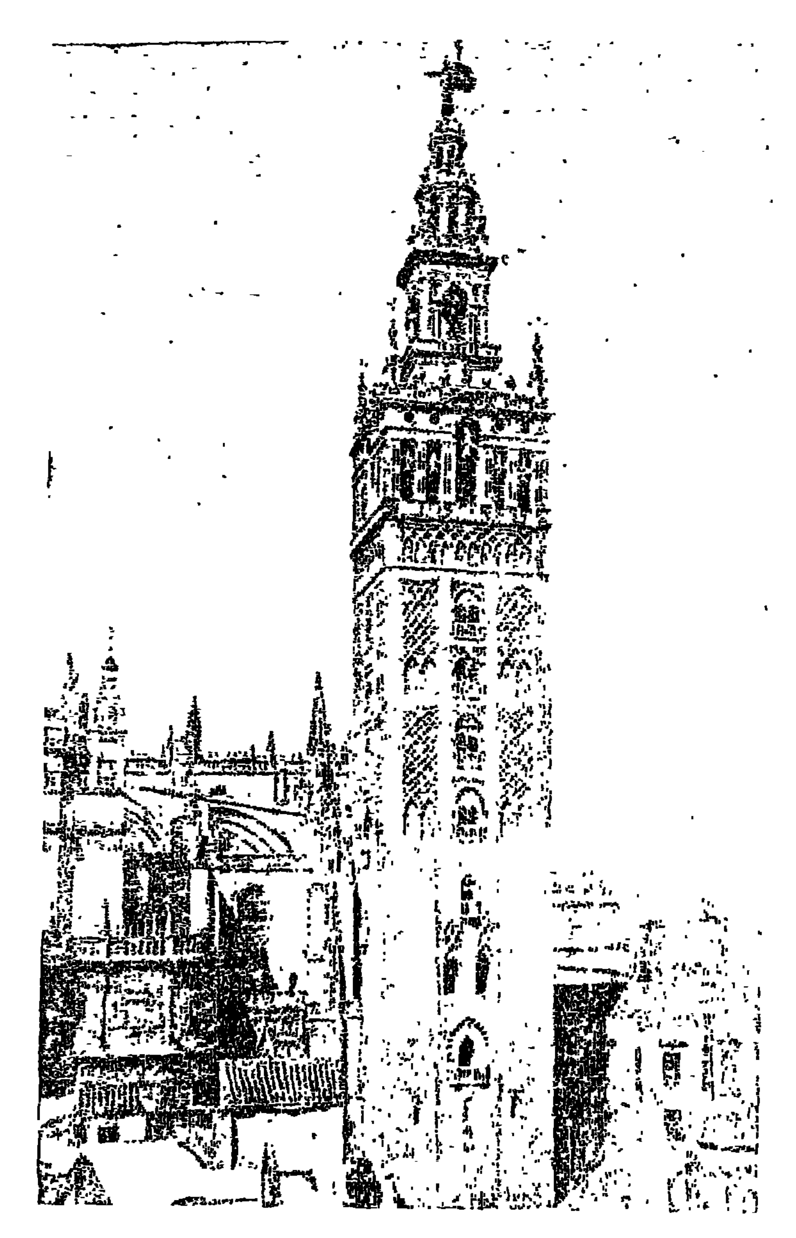
(٢) جبال وادى الرملة هى بالإسبانية Guadarrama .

ثم أمر بالحركة والعود ، وسار بطريق وبذة . وهنا اتجه المنصور ، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قونقة وحاصرها ، ثم ارتد نحو أقليش وسار منها جنوبا نحو الكرس وبيّاسة ، ووصل إلى قرطبة فى أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ ، ثم غادرها فى الحال إلى إشبيلية، فوصلها فى يوم عيد الفطر (أغسطس سنة ١١٩٧م) وذلك بعد أن أنفق فى غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر[١] .

وماكاد المنصور يستقر فى إشبيلية ، حتى عنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم (المنارة) وهى التى كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف ، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شنترين فى سنة ٥٨٠ هـ . وكان المنصور قد أمر بالمضى فى إنشائها عقب توليه الخلافة . ووضع العريف أحمد بن باسُه أسسها لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين ، أو لغير ذلك من الأسباب . وفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية ، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو حسبما أشرنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان، أنه شُرع فى بناء الصومعة بالآجر الذى يؤخذ من سور قصر ابن عباد، ودام العمل فى ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة ، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية ، ضوعفت الهمة فى البناء ، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء، ثم يُستأنف متى حضر. وكان الخليفة المنصور كأبيه الخليفة أبى يعقوب ، شغوفاً بالبناء ، وكان وقت وجوده بإشبيلية ، يلازم فى أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه ، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللا بغار الظفر ، وأصدر أوامره بمضاعفة الهمة لإتمام الصومعة ، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة ، كان بناء الصومعة قد تم ، ولم تبق سوى أعمال التجميل . وبالرغم من أن المنشآت الموحدية ، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة ، ولا تميل إلى الزخرف والزينة ، فقد أصدر الخليفة أمره ، بأن تزود صومعة الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هـذه التفافيح ، ورفعها إلى أعلى المنارة ، فى حفل كان من شهوده :

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . وراجع :
Altamira : Historia de Espana; Vol. I. p. 364 .



صومعة جامع المنصور بإشبيلية المسماة لاخير الدا **La Giralda**

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه فى مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت فى منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون فى إعلائها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة فى عمود عظيم من الحديد مرسى أصله فى بنيان أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمود ماية وأربعون ربعاً من الحديد ، موثقاً هناك فى تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدمات الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصياغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدى والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت فى العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك فى يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس مائة ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »[1].

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب[2].

ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع إشبيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقتها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، ا و ب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم . وهى تحمل اليوم اسمها الإسبانى « لاخيرالدا La Giralda » ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحولها إلى برج للأجراس، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية[١] .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبى زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبى الربيع بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحصينها وإصلاح أسوارها[٢] .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشئ حلف جديد لمقاومة الموحدين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون بيدرو الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوته الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الجديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كَرْيون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واخترقت أراضيها حتى كويانسا (بلنسية دى دون خوان) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدين فى قاعدة بنافنتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

---

(١) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتاب « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ — ٥٦ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضى ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون .

وقبيل مغادرة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى فى طلب المهادنة والسلم ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام[1]. ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تحرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن لملك البرتغال بمحاربته متشحاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطالباً إليه معاونته بالجند والمال ، ولكنه لم يوفق فى مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلم بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر فى سائر الشئون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية فى أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ (أواخر مارس سنة ١١٩٨ م) وعبر البحر فى غرة جمادى الثانية ، وقصد أولا إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور فى حاضرته ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلع به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما عنى به هو أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض فى سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة فى سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة فى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة ، توضع فى يده تخفيفاً لألمه . ويقول لنا المراكشى إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام[2] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥. ويقول المراكشى إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشر سنين (المعجب ص ١٦٠) .

(٢) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص . ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزمت وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر فى أواخر عهده بأن يعتنق النصارى واليهود الإسلام ، أو يغادروا الأراضى الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين . ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصارى واليهود أحراراً يعيشون فى البلاد الموحدية . وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر تزمتاً وشدة منها إلى النصارى . وكان الذى حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازدهروا فى عهده وتشبهوا بالمسلمين فى اللباس ، وشاركوهم فى مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين. وكان هذا الزى عبارة عن قميص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشى إن الذى حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه فى إسلامهم ، وأنه كان يقول لو صح عندى إسلامهم ، لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى سائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنى متردد فى أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدرهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود فى أوائل سنة ٥٩٥هـ . وقد نظم ابن تغرالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بنى نغرالة أو بنى النغريلى التى ازدهرت فى غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتهكم فيها على هذا القرار ، ومافرضه من اللباس الأزرق ، ويواسى مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارا   فافهموا يا قوم هذه الإشارا

ولما تولى الخلافة أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزى المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين[1] .

---

(١) المعجب ص ١٧٣ — والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 433 .

— ٣ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى ضاحية الصالحة الملكية التى كان قد أنشأها فى بداية عهده ؛ ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجوه أهل بيته ، وأعيان بلاطه . وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع فى هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألهم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالت علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة هى آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبى حفص بن على ، وقال « كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تحرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومنقلبون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبى عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتكم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور فى الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولايتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبى الحسن ، وأخيه السيد أبى زيد ، ابنى السيد أبى حفص . وقال إنهما لخير هذا البيت ، وإنه قدمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لايصدر إلا عن رأيهما ومشورتهما .

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبدالواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها وتوفير رعيتها ، ولتعلموا أنه ليس فى نفوسنا أعظم من همها ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين ، وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة التى أمر بها ، كما أوصى بملاطفة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالمذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب ، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسماهم قبيلا بعد قبيل . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التى ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرصوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون . وكان هذا آخر العهد به[١].

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجله ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شىء فعلته فى خلافتى ، إلا على ثلاث ، وددت أنى لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنى أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم[٢] .

وفى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، توفى الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحة[٣].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٦ — ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفى بقصبة مراكش (ص ١٥٢) وفى رواية أنه توفى فى غرة جمادى الأولى سنة ٥٩٥ ، وفى أخرى أنه توفى غرة صفر (ابن خلكان ج ٢ ص٤٣١) ويقول ابن الأثير إنه توفى ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج١٢ ص ٥٧) .

ودفن مؤقتا بمجلسه بالقصر ، وكتمت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى تينملل ، ودفن بها ، وثارت حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح في البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملا ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك[1] .

وبوفاة المنصور يختتم عهد من ألمع عهود الدولة الموحدية .

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفي ظله بلغت الدولة الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، في أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بني عبد المؤمن » وهي كلمة قوية جامعة[2] .

وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض في استعراض مآثره ، وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية ، وتشيد بنوع خاص بغيرته في الجهاد ، وتفانيه في الذود عن قضية الإسلام بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الجديدة من الفرسان والرجالة ، وتزويده بموفور العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة وسخاء ، وإعداده للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها في مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء في الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون العطاء ، (الجامكية) ثلاث مرات في العام بصورة منتظمة ، مرة في كل أربعة أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان رأى المنصور في اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ، فهم غرباء لاشيء لهم في البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمي المنظم[3] . وكان لهذه العناية بتوفير أعطية الجيش أثرها القوى في رفع همم الجند ، وشحذ

---

(١) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢١ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة أبي يعقوب يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر — لوحة ٣٩٥) .

(٣) المراكشي في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة فى الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألمع ما فى حياة المنصور العامة ؛ وقد أسبغت عليه غزواته الموفقة للمالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر فى موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والجلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى :

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً . يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر فى الأحكام بنفسه ؛ ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزلهم ؛ ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجوامع وغيرها ، سواء بالمغرب أوالأندلس .

وأول ما تشيد به الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والتزامه أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى فى أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشتد كذلك فى إقامة الحدود ، ويذهب فى ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم[(١)] .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص ، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب فى ميدان المذهب والعقيدة فى الدولة الموحدية ، فهو أولا قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكى فى سائر البلاد مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة فى الصلاة ومايتعلق بها على نحو المجموعة التى جمعها ابن تومرت فى الطهارة ، وذاع هذا المجموع فى المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يمحو

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، و٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .

مذهب مالك وأن يزيله من المغرب[1]. وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وهذا المذهب الذى اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف ابن داود الأصفهانى المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه فى نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب فى صوغ أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أى الحديث ، وألا يُؤخذ فى ذلك بالرأى أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً فى إجماع صحابة رسول الله . ويبدى ابن حزم إمام المذهب الظاهرى بالأندلس تشدداً فى تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهرى ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية فى المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهرى يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهرى ، غدا هو المذهب الرسمى فى عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب . وكان المنصور يبجل ابن حزم ، ويرتفع به وبعلمه إلى أسمى مكانة . ومما يذكر فى هذا الصدد ، ما يروى ، من أن المنصور ، مر فى عودته من غزوه لأراضى البرتغال فى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية منت ليشم ، وهى بلد بنى حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ؛ ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »[2] . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين فى أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجنوح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكرلنا المراكشى من صفات أبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن على ، إلا أنهما لم يفصحا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكلة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٣ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ ، والنويرى طبعة جسبار ريمير و السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . ومازالت هذه القرية التى دفن بها العلامة الأندلسى الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهى تسمى اليوم باسمها الحديث « كاسا مونتيخو Casa Montejo » .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال فى بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تعلو على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث فى عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية[١] .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامة المهدى ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية[٢] .

ومما يتصل بتقى المنصور ، وورعه ، وحماسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت فى نظر الموحدين بلداً يجنح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات . وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشى ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن إنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات »[٣] . ويفيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، فى رحلته ، فى الكلام عن هذه النية الموحدية فى غزو مصر ، وصداها فى مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد المشرقية ، ولاسيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاب أموالهم ، ويعرب عن أمله فى أن تُقمع هذه البدع المجحفة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير فى التنديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لابنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل فى هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .
(٣) المعجب ص ١٦٠ .

الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق » .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدى بعضهم ، وأنذرت بأشياء من الكوائن . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لايمترون فى إنجاز وعدها : شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعا ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصدق . ونُمى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائها ، قد حبّر خطباً أعدها للقيام بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير »[1] .

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التى يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروره بها فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أعنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصرى فى كتابه المسمى « بالأنساب فى معرفة الأصحاب » ، ونقله البيذق ، عن أصحاب المهدى بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلا بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمته »[2].

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت فى عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

---

(١) رحلة ابن جبير (المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار — القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ٥٣ و ٥٤ .

(٢) نقله البيذق فى « أخبار المهدى ابن تومرت » ص ٣٠ — ٣٢ .

المنصور من عزم وضخامة فى أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ولاسيا فى معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ماكانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمى ، وماكانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مُثُل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدى ذاته ؛ فقد رأينا المهدى أثناء مقامه بثغر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها منفيا ، لما ترتب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدى قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به ، وكانوا يجلسون تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجد تينملّل : « ليبصرنّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر ، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها »[1] كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وماكان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التى خدم فى ظلالها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الهائمين من أتباع المهدى وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو مايعتبر فى نظرنا من ضروب الوهم المغرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ماكانت عليه قوة مصر فى ذلك العهد ، التى نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا فى غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التى تحطمت على صخرة قوتها الراسخة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين فى هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بنى غانية فى إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .

غزو مصر، إن كانت، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال .

وكان المنصور عالما مستنيراً، متقناً للحديث والفقه واللغة، مشاركاً فى كثير من العلوم، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالجدل والمناقشات الفلسفية، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد . وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى اليسّانة من سقطاته البارزة، ولكن كان متأثراً فى ذلك بضغط الفقهاء والطلبة الموحدين . وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث، أعظم عناية، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة، وينقمون عليهم خظوتهم ونفوذهم لدى الخليفة، حتى اضطر المنصور ذات يوم، أن يصرح أمام سائر الموحدين، وقد بلغه موقفهم من الطلبه، « يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيله، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سواى، فهما نابهم أمر، فأنا ملجؤهم، وإلىّ فزعهم، وإلىّ ينتسبون » . يقول المراكشى، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[1] .

وكان المنصور أديباً فصيحاً، جزل الألفاظ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العدوتين، المغرب والأندلس، يصغى إلى مدائحهم، ويغمرهم بصلاته، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر[2] . وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيما، وكان لديهم ككتاب الحماسة لأبى تمام عند أهل المشرق، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مختلف المناسبات . وكان من شعراء دولته أيضا أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجْبَّر المرسى الأندلسى، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مُجبر للمنصور جمعت فى ديوان، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغــزلا وعليه شب واكتهــلا

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤، وروض القرطاس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت　　　نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل فى أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز (الأغزاز) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيداً لولائهم[1].

هذا وأما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فلدينا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور فى الواقع من أقدر الخلفاء الموحدين فى فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور »[2] . وقد رأيناه سواء فى المغرب أو الأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاة والعمال . وكان يولى شئون الأندلس فى ذلك عناية خاصة ، ففى كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفى سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفره فى معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبتهم ، واستصفاء أموالهم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الحائزين لثقته . ثم هو فى نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الجباية رجالا من ذوى الأمانة والنزاهة . وكان من أهم ما فعله المنصور فى باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدى ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة فى إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة الملوكية فى جنوبى مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلا على ما كانت تجيش به نفسه من إظهار أبهة الملك وروعته ، على مثل ما كان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التى كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

بها مسجداً عظيما واسع الفناء ، يقول المراكشى بأنه كان أكبر مسجد فى المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية فى العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور[1] . ونزيد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمدته مازالت قائمة فى مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التى لم يكمل بناؤها قائمة فى مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهى التى تعرف اليوم بمنارة حسّان (تورحسان) ، وهى على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة (لاخيرالدا)[1] .

بيد أن أهم منشآت المنصور فى الحاضرة الموحدية — مراكش — كان هو البيمارستان (المستشفى) العظيم ، الذى كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش : وقد اختار لإقامته ساحة شاسعة ، وعنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حوله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزود بنفيس الأثاث والرياش ، وبمختلف صنوف الأدوية ، وعين له رهط من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإنفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زُود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وتُرك وشأنه ، وكان يؤم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغرباء ، وكان المنصور يركب إليه فى كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأخلدها[2] .

وأما عن منشآته بالأندلس فقد أشرنا إلى ماكان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبابه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهى التى كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل فى عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفافيحها الذهبية حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وأنشأ المنصور فى نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكُتُبية العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدها على نفس الطراز ، وهى منارة حسّان التى لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل فى شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها فى عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتبية سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هى أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية فى سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل(١) .

ووزر للخليفة المنصور فى بداية أمره أخوه السيد أبوعبد الله . ثم خلفه فى الوزارة أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى ، ولما توفى خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبى حفص عمر الكبير ، واستمر فى منصبه إلى أن قُتل فى موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبدالله محمد بن أبى بكر ابن الشيخ أبى حفص ، وهو ابن عم أبى يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث فى الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه فى بعض نواحى إشبيلية ، وتزهد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة، وخلفه فى الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجّان الهنتاتى ، فلم يزل فى منصبه حتى توفى الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر مدى حين(٢) .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبى القاسم القالمى ، كاتب أبيه الخليفة أبى يعقوب ، وكان كاتبا مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التى انتهت إلينا ، واستمر فى منصب الكتابة حتى توفى . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسى من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية، واستمر فى منصبه حتى توفى المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف. وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التى وضعها فى اتهام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه(٣) :

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص٢٠٩.

(٣) راجع فى مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهى جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهى من إنشاء ابى عبد الله بن عياش .

وتولى القضاء فى عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل فى عهد أبيه الخليفة أبى يعقوب ، ولما توفى خلفه فى القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عُزل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بقى بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر، واستمر فى منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر(١).

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولى عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل المحيا ، أعين ، أفوه ، أقنى الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ(٢) .

تلك هى مآثر الخليفة الموحدى، الظافر فى معركة الأرك العظيمة ، وتلك هى صفاته وخلاله الوضاءة اللامعة .

---

(١) المعجب ص ١٤٩ .

(٢) المعجب ص ١٤٧ و١٤٨، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

الفصل الخامس

عصر الخليفة محمد الناصر

جلوس الخليفة محمد الناصر . وزيره ومستشاروه . أعماله الأولى . أحوال إفريقية . استيلاء يحيى ابن غانية على قابس . ابن عبدالكريم وظهوره . خلافه مع والى المهدية . القبض عليه ثم إطلاق سراحه . استيلاؤه على المهدية واستبداده بها . مسيره لغزو تونس . اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم . لومه وعوده إلى المهدية . الخلاف بينه وبين يحيى الميورقى . استيلاؤه على قفصة . اشتباكه مع الميورقى . هزيمته والتجاؤه إلى المهدية . محاصرة الميورقى له . تسليمه المهدية . قبض الميورقى عليه هو وولده ثم اغتيالها . امتداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية . سيره إلى باجة واقتحامها . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم . مسير يحيى إلى بسكره واقتحامها . عوده إلى المهدية . قلق البلاط الموحدى لحوادث إفريقية . تجهيز حملة كبيرة لقتال الميورقى وتوقفها . ثورة أبى قصبة ببلاد السوس . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الدعى ومقتله . وقوع السيل العظيم بإشبيلية . تأهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية . عبد الله بن إسحاق حاكم الجزائر . مسالمته للدول النصرانية وتعاونه معها . انتزاعه لمدينة ميورقة من الموحدين . إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر . خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة . استيلاء السفن الموحدية على منورقة . نزول الموحدين فى ميورقة . القتال بينهم وبين عبد الله بن إسحاق . هزيمة عبد الله ومقتله . اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة وافتتاحها . تعيين ابن طاع الله الكومى لولايتها . صدى هذا الفتح فى أراجون والدول النصرانية الأخرى . تأثيره فى خطط يحيى بن إسحاق . عزم يحيى على فتح تونس . مسيره إليها فى قواته . قطع اتصالها بالبحر ومحاصرتها . اقتحام يحيى لها . قبضه على واليها السيد أبى زيد وأولاده وأشياخ الموحدين . يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس . خروجه إلى جبل نفوسة وتغريم أهله . وقع سقوط تونس فى بلاط مراكش . الناصر يعين ولاة الأندلس . عزمه على سحق الميورقى . مسير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية . حركات يحيى بن إسحاق فى الجنوب . وصول الأسطول الموحدى . وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر . عودة يحيى إلى تونس . إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدية . إخلاؤه لتونس ومسيره فى قواته إلى قفصة . احتلال الموحدين لتونس . مسير الحملة الموحدية فى أثر الميورقى . تحصن الميورقى بجبل دمر . تحصينه المهدية . مسير الناصر لمحاصرة المهدية . مسير حملة موحدية بقيادة الشيخ أبى حفص إلى جبل دمر . معركة دموية فى رأس تاجرا . هزيمة الميورقى ومقتل أصحابه . فراره فى فلوله . إنقاذ السيد أبى زيد وصحبه . اشتداد المقاومة بالمهدية . المعارك المستمرة . طلب الثائر حاكم المهدية التسليم بالأمان . موافقة الناصر . خروجه من المهدية مع صحبه . دخوله فى طاعة الموحدين . سحق بنى غانية وتحرير إفريقية . مثل بنى غانية فى محاربة الموحدين . تحولها إلى مغامرة فى سبيل السلطان والثراء . مثالب حكومة الميورقى وأساليبها الهمجية . بعض المحكومين لها . التجاء يحيى الميورقى إلى الصحراء الجنوبية . مطاردة الموحدين لطوائف المفسدين . تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية . اعتذاره وشروطه القبول . موافقة الناصر ومغادرته لتونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى فاس . أعماله ومطاردته لعامل فاس ومكناسة.

مسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراكش . نظره فى الأعمال السلطانية ومراجعته لأعمال العمال . وفاة السيد أبى الربيع والى بجاية . تعيين السيد أبى عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقى إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن محالفته إلى الموحدين . مسير يحيى إلى الشمال . خروج الشيخ أبى محمد إلى لقائه . معركة تبيشة . هزيمة الميورقى وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين فى إفريقية ومراكش . عوده صوب تلمسان . مفاجأته لواليها السيد أبى عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقى لمدينة تاهرت . عيث الميورقى فى أحواز تلمسان . إنجاد المدينة وتأمينها . مسير حملة جديدة لمقاتلة الميورقى . ارتداده صوب طرابلس . عوده إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبى محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وفله . عود القائد الظافر أبى محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معالجة الشيخ أبى محمد لشئون إفريقية . فضله فى إخماد ثورة بنى غانية . توطيده لسلطان الموحدين فى إفريقية . التجاء سير اخى يحيى إلى الشيخ أبى محمد . أعمال الناصر وتعييناته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب فى تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال مسلمى صقلية منذ افتتاح النصارى للجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفى الخليفة يعقوب المنصور ، فى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، خلفه فى صباح اليوم التالى ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع فى نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة . وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك فى أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عوده إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك فى سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، فى نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده فى أواخر سنة ٥٧٦هـ . ويقول لنا المراكشى إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبى إسحق بن عبد المؤمن[١] .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخى الشيخ أبى حفص[٢] ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، إبنا الشيخ

---

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد فى بعض الروايات « أبو زيد بن يوجاق » (راجع رحلة التجانى ص ٣٦٣) .

أبى حفص عمر الهنتاتى ، وتولى رياسة البيت المالك السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبى حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور فى مرض موته حسبما أشرنا إليه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراكش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثانى من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك فى سائر النواحى ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقدم الشعراء تهانيهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراكش فى أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان فى مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبى حفص والياً لبجاية وأعمالها ، وأمده بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث فى تلك المنطقة المضطرمة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبى زيد[1] .

وكانت الأحوال فى إفريقية قد ساءت فى أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد فى الأندلس ، ولم تسعفه الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر فى شئون إفريقية ، وتدارك مادهمها من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفى . فكان على ولده الخليفة الفتى محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

— ١ —

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسحاق ابن غانية الميورقى ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانتزاع طرابلس من يد نائبه . ولما تم ليحيى ماتقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص والى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفراجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتابا ينذرهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٢ و٢١٣ .

يحيى على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ، إلا نخلة واحدة تركها للعبرة . فأذعن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمن واليهم ابن تفراجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيى بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبو محمد عبد البر بن فرسان كتابا بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية(١).

وبينما كان الميورقى يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه فى بلاد الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد ابن عبد الكريم الرجراجى هذا ، من زعماء الجند ، الذين امتازوا بالشجاعة والنجدة ، وأبوه جندى من أهل المهدية ، ينتمى إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان قد ظهر فى مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع فى كثير من المواطن أن يقمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حوله من الجند والأنصار ، فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالى لتلك المهمة ، وأطلق يده فى محاربة الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل من يعتقل ، فلايطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة على التزام الطاعة والسكينة .

فلما وُلى الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ، قدم على المهدية ، أخاه أبا على يونس بن أبى حفص ، فطالب ابن عبد الكريم أن يُشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ما كان عليه الولاة من قبل . فقبض عليه أبو على وأهانه ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبى سعيد والى إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت الشكوى منهم ، وألح الناس على أبى على أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم فى صحبه ، وأقام محلته فى ظاهر المهدية ، وشكا إلى جنده ما لحقه من ظلم الوالى ، وتفاهم معهم على الغدر بأبى على والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ، خلاصته أن جماعة من عرب بنى عوف نزلوا على مقربة من المهدية ، فخرج

(١) راجع رحلة التجانى ص ١٠٥ – ١٠٨ .

إليهم ابن عبدالكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم و أموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالى واحتفظ بالباقى ، فسار رؤساء بنى عوف إلى الشيخ أبى سعيد ، وقدموا الطاعة ووحّدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولا يستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهله حتى يعود إلى المهدية ، ويحاول أن يسترد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهدية ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الوثوب بأبى على يونس . وعلى أى حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة فى أواخر الليل فى ثُلة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالى ونفذ إليه ، وقبض على أبى على ، وحبسه فى موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فداؤه من قبل أخيه الشيخ أبى سعيد ، فارتد إلى أخيه مخذولا ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهدية ، وكان استيلاؤه عليها فى شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ[1] ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبدالكريم بحكم المهدية ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفى تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبى حفص من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبى سعيد ، ومعه جماعة من الأشياخ والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبوزيد السفن فى البحر ، والجند فى البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كمائنه فى بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكمائن ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم فى أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهباً . وعندئذ بعث السيد أبوزيد والشيخ أبوسعيد إلى ابن عبدالكريم ، أشياخاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويذكرونه بانتمائه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لا يليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طاعته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهدية .

وكانت قد حدثت فى تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، ويحيى الميورقى

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ .

لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم فى محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس ، فاستخلف على المهدية ولده عبد الله وسار إلى قابس ، ولكنه لما أشرف عليها بجموعه هالته منعتها ، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقى من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبد الكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهدية ناجياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فلوله ، واحتوى الميورقى على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك فى بداية سنة ٥٩٧ ﻫ .

وأراد الميورقى أن يقضى نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهدية ، فبعث إلى السيد أبى زيد بتونس يسأله المهادنة والسلم ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهدية من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا الثائر الذى استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقى سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لامفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقى ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن فى نفسه وماله ، فأجابه الميورقى إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهدية وتوجها إلى الميورقى للسلام عليه ، فلما رآهما أمر فى الحال بالقبض عليهما متفرقين ، واستولى على المهدية وعلى سائر ما كان بها لابن عبد الكريم من الأموال والذخائر . ثم زج بابن عبد الكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة ، بزعم إرساله إلى ميورقة ، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقى به مكبولا إلى البحر ، فابتلعته المياه[1] .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقى حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالى ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقد أصبحت كذلك فى خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والى إفريقية ، مايزال يعتقد أن الميورقى يرغب حقاً فى السلم ، وأنه ينوى أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقى

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجانى ، وهى فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ – ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٤ و ١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن التجانى .

يسير فجأة إلى بلدة باجه الواقعة غربي تونس، وقد كانت من أخصب بلاده هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاما[1] ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد فى الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبى الحسن والى بجاية ، لكي يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقى قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر فى موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهنالك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون، واستولى الميورقى على معسكرهم وأسلابهم . وارتد أبو الحسن فى بعض فلوله إلى بجاية وهو فى أسوأ حال[2] .

وكانت مدينة بسكرة التى استولى عليها الميورقى من قبل قد خلعت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدى الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . وخشى أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ،فبعثوا إلى الميورقى بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث فى سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهدية فاستقر بها بعض الوقت[3] .

وفى خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث فى إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يقمع العدوان بالحملات المحلية المتواليه . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالحرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقى ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهنالك وصله الأمر بالنظر فى أعمالها ، ثم نُدب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندبه الناصر للسير معه إلى إفريقية[4] .

وكان هذا التردد فى مطاردة الميورقى ، راجعاً إلى اضطرام ثورة جديدة فى منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسى ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

---

(١) وهى طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ١٦٠ .
(٢) المعجب ص ١٧٩ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania. p. 113.
(٤) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة إفريقية فى ص ١٦٣ ، حيث وضحت بها سائر المواقع التى كانت مسرحا لتلك المعارك المتوالية .

يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، ويعرف بالمهر وبأبى قصبة ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الجزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعى من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشى عاقبتها ، فاختفى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، فى السوس فى منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحانى » الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه لاتقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، يقود الناس ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، ومما ينسب إليه فى مصير بنى عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل

قد جاء سيد قحطان وعالمها ... ومنتهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبى قصبة فى أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراكش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأنذروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعى يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولو شاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، فى مقاتلة الدعى ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقبض على الدعى وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراكش ، وكان مصرع أبى قصبة وانهيار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م)[١] .

وكان من حوادث الأندلس فى تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أبا محمد عبدالله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه فى منصبه تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٥٩٧ هـ . وفى أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذى لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طريانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

---

(١) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ، والمعجب ص ١٨٠ .

(٢٦ مارس ١٢٠١ م) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لغرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التى شهدتها إشبيلية منعهد طويل(١) .

— ٢ —

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون فى نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وكان استمرار يحيى ابن إسحاق الميورقى فى عدوانه ، وتفاقم أمره فى إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية فى القضاء على سلطانه ، قد حمل البلاط الموحدى على أن يفكر فى افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بنى غانية فيها ، وضربهم بذلك فى موطن قوتهم الأصلى ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقى فى إفريقية ، والتمهيد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بنى غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم فى ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبى يعقوب يوسف أن يخضع عميدهم إسحاق ابن غانية لسلطان الموحدين ، وما كان من إرساله سفيره علياً الربرتير إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق الربرتير فى مهمته ، ثم قيام على بن إسحاق بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطرمة ، وتلك الحملات المخربة المتوالية ، التى قام بها بنوغانية فى إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة فى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه حركة يحيى بن إسحاق بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسحاق بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التى استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسحاق وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت فى عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسحاق بن غانية فى مسالمة الدول النصرانية القريبة ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى ، فى ترجمة محمد بن أحمد بن تمام المذرى .

ولاسيا جنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) عقد عبد الله مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لاكانوتزى سفير جنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى فى الجزيرة ، يعيشون فى دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم فى ترويج تجارة الصادر والوارد بين الفريقين . وكان من الواضح أنه منذ اضطرمت الخصومة بين بنى غانية والموحدين ، لم يكن فى وسع الجزائر أن تعتمد فى تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس المعادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والذخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يجنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التى لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد فى ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن فى وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجند ، فى مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسى وموطن قوتهم الحقيقية[1] .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها ، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة ، كوسيلة لضرب بنى غانية فى صميم مثوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة فى أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه فى إفريقية ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفى تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمد عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

(١) A. Bel : Les Benou Ghania, p. 118 & 119

غربى ميورقة محاولا انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٩٧هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية فى سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائباً . ولكنه سار فى العام الثانى (٥٩٨) هـ ، وهاجم جزيرة منورقة وانتزعها من أيدى الموحدين، وولى عليها من قبله رجلا اسمه الزبير بن نجاح . والظاهر أن عبدالله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين فى غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة ويابسة جناحيها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبى العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص . والتقت القوتان بثغر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألفى ومائتى فارس ، وسبعمائة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع (أى السفن) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن (سفينة) منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كباراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والسلالم ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرماح والبيضات والدرق ، والقسى ، وصناديق النشاب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أوطول الحصار . وأقلعت الحملة من ثغر دانية فى أواخر سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م)، فوصلت بعد أيام قلائل إلى جزيرة يابسة ، فصلوا بها الجمعة، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة (٣ سبتمبر سنة ١٢٠٣) قاصدة إلى ميورقة[1] . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولا بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهنالك أعدم وعلقت رأسه[2] . وبذلك تم تأمين جناحى الحملة الموحدية ، وتطويق ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المعطار (ص ١٨٩) وهو ينفرد بها .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٦ .

السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسحاق فى جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون فى الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قناة ، فأمر فى الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد أمنوا واطمأنوا ، وكُتب فى الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو فى شهر ربيع الأول سنة ستمائة (شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م)[١] .

تلك هى تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة حسبما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسبما تقصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدبجة بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بنى مزغنة ، وجهز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدى المرابطين[٢] . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلا عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة فى عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمى قائدى الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبى حفص قائد القوى البرية[٣] . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان فى الوقت الذى سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقيما بحضرة مراكش[٤] .

وندب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومى ، فكان

---

(١) الروض المعطار فى روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحدية ، وهى خاصة بفتح ميورقة (ص ٢٣٥ وما بعدها) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه فى ذلك الأستاذ الفرد بل: Les Benou Ghanîa, p. 167

(٣) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولاتها من الموحدين ، وعين لقضائها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله . ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبى يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميورقة ضربة شديدة لبنى غانية ، قضت نهائياً على سلطانهم فى الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة فى شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذُ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة ، أشدُّ من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول الممات » . وقد سبق أن أشرنا إلى ماكان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهوريتى جنوة وبيزة . وكانت تجمع بين بنى غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ، هى خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول النصرانية الذلك ، تنظر إلى سيادة بنى غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما التزم بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه كان لابد للدول النصرانية ، وفى مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها جنوة وبيزة كانت تطمع دائماً ، إلى انتزاع الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملا جديداً ، يذكى هذه الرغبة ويؤكدها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤلمة للموحدين فى فى إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه أنباء الحملة الموحدية ، التى سيرت إلى الجزائر ، أن مصير ميورقة قد بت فيه ، وأنه لم يبق لبنى غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق هـذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائيا فى تلك المنطقة . وكان يحيى قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهدية ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم . ففكر عندئذ فى الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت فى يد يحيى ، وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان والى إفريقية السيد أبوزيد لايحتكم على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين فى نفس

هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومن ثم فإن الظروف كلها كانت موائية لمشروع يحيي الميورقى . فاستعمل على المهدية ابن عمه على بن الغانى بن عبد الله بن محمد ابن غانية ويعرف بالكافى . وسار فى قواته وعُدده صوب تونس، وذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر فى ظاهر تونس ، ونزل أخوه الغازى بن إسحق بالموضع المعروف بحلق الوادى حيث يتصل البحر بالبحيرة شرقى المدينة ، فردم المجرى الموصل بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه الحرس ، وقطع بذلك سير القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول إلى قبلى المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميورقيون حول تونس حصاراً صارما، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة، والاشتباك مع العدو فى أية معركة ، لقلة عددهم ، وضآلة مواردهم. واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر . وفى يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة ستمائة (١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣م) ، اقتحم يحيي فى قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبى زيد وولديه ، وجماعة من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبة تحت حرس قوى ، وأعلن يحيي الأمان لأهل تونس فى أنفسهم وأملاكهم، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها مائة ألف دينار ، قال إنها هى مقدار ما أنفقه فى الاستيلاء عليها، وقُسّطت هذه الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضائها إلى كاتبه الأثير ابن عصفور ، وإلى أبى بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطا فى تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرفيع المقدم على قبض مال المخزن وغيره من الناس ، فلما علم الميورقى بذلك ، أمر برفع ما بقى من الغرامة عن الناس ، ونودى فيهم بالأمان . وعلم الميورقى بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بنى غانية معا ، ويثورون من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحيي بنفسه ، واستصحب معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة فى التحفظ عليهم ، وفرض على أهل نفوسة ألفى ألف دينار . ولما انتهى من اقتضائها منهم

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها[1] .

— ٣ —

وهكذا تم ليحيى بن إسحاق الميورقى الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية فى يد الميورقى ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر واليها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق فى بلاط مراكش . وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يرتكبه الميورقى باستمرار من ضروب العيث والقمع والقسوة ، فى مختلف القواعد التى يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجردوا بنى غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم فى الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيثهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم فى تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانوا يشعرون فى نفس الوقت بفداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ فى ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفى بمسالمة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبى حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأى .

وكان الناصر فى الوقت الذى سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعنى فى سنة ستمائة ، يقيم بحضرة مراكش ، ويعنى بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما عنى بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاة الأندلس بالنظر فى صنع الآلات الحربية . ففى شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفى شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبى عبدالله ابن يحيى ، الذى نقل إلى ولاية بسطة . وولّى السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربى الأندلس ، والشيخ أبا يحيى بن أبى سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكومى لقيادة أسطول سبتة . وفى نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودى رسول

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٤ — ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و٢٤٨ .

ألفونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراكش ، يطلب تجديد المهادنة .

فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس فى يد الميورقى ، واشتداد عيثه وبطشه بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ، أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالسير من سبتة إلى مياه إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . وكان يحيى الميورقى فى ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار إلى ناحية طرة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فاقتحم أحياءهم ، واشتد فى معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرموا النار فى دورهم ، ثم سار إلى حمة مطماطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من سفكه وشديد عيثه[1] .

هذا وبينما الميورقى سادر فى هذا العيث والسفك ، إذ بلغته الأنباء باقتراب القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراكش على رأس قواته فى أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ (فبراير سنة ١٢٠٥ م) وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح فى قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدى ، تسير فى نفس الوقت بحذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبى يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . فلما علم الميورقى باقتراب الأسطول الموحدى من تونس ، ووصول الجيش الموحدى إلى بجاية ، وأدرك أنه لاقبل له بالصمود أمام هذه القوى الجرارة جمع أمواله وذخائره ، وأرسلها إلى المهدية ، لتكون تحت حراسة ابن عمه على ابن الغانى ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد فى قواته جنوبا ، فوصل إلى القيروان وأقام بها أياما ، وهو يجد فى الأهبة ، ثم سار إلى قفصة ، وهنالك استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ مواثيقهم ورهائنهم على مناصرته والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقى من تونس ، فنزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه بها من أتباع الميورقى ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقى فى قواته نحو الجنوب ، سار فى أثره

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٦ .

صوب قفصة . فسار الميورقى فى قواته إلى جبل دمّر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملا من قبله . وكان يحيى الميورقى قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة فى المهدية ، فضاعف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه على بن الغازى . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمّر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقى فى مركزى مقاومته فى وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهدية ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المجانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر. وبعث الناصر فى نفس الوقت جانباً من القوات الموحدية يحتوى على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص لمقاتلة الميورقى فى جبل دمّر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته فى البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجرْا ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقى قابس[1] معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقى وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكاتبه على بن اللمطى ، وعامله الفتح بن محمد ؛ وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك ولده وأهله فى موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم فى فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ؛ واستطاع الشيخ أبو محمد القائد المظفر أن ينقذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقى ، وكان الموكل بالسيد أبى زيد على وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ما كان بالمحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوى على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهدية ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبى زيد ، فشهر به فوق جمل عال ، وبيده الراية السوداء ؛ ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالميورقى بجبل تاجرْا فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م)[2] .

---

(١) تراجع خريطة إفريقية المنشورة فى ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .

(٢) رحلة التجانى ص ٣٥٧ — ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 129

وكان الموحدون فى تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهدية ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقى ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ فى اتخاذ الأهبة ، وشحن المهدية بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازى جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفى كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانيقهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون إزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلالم والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، ومضاعفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المنوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجْرا ، وهزم يحيى وألجئ إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهدية ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة . ومع ذلك فإن بن الغازى وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيى ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدد فى ضرب المدينة ، فكثر القتلى والجرحى من أهلها ، واضطر بن الغازى وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللحاق بيحيى ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسلمت المدينة للناصر فى اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ (١١ يناير سنة ١٢٠٦ م) وغادر على بن الغازى — وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر — المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيحيى ، ولكنه عاد فى اليوم التالى ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله فى الدعوة الموحدية ، فاغتبط الناصر بتوحيده ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار علىٌ معه ، واشترك مع الموحدين فى معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم[1] .

وفى يوم عشرين من جمادى الأخرى ، غادر الناصر المهدية ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاتى ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وستمائة ، ومعظم العام التالى .

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ٢٢٣ .

— ٤ —

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحيى بن إسحاق الميورقى ، وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقية ، واسترداد الموحدين لسلطانهم وهيبتهم ، فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربع قرن ، منذ نفذ بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعهم فى مهاجمة إفريقية ، واتخاذها مسرحاً للصراع ضد الموحدين خصوم الدولة المرابطية والمنتزعين لتراثها ، ومنذ استولى عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تتبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأتينا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدين ، فى مختلف المواطن والتواريخ ، من معارك مريرة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ، يبغون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسلطان على ما يفتحونه من الأراضى ، ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدين مشاعر ومثل خاصة ، فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان والملك ، رغبة مضطرمة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء على سلطان الموحدين . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ، ويعتبرون الموحدين غاصبين آثمين ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على تراث الدولة المرابطية غدراً وظلما ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماتهم الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ، والانتصاف لحقهم المغصوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر صراعهم ضد الموحدين فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا بالملك والسلطان ، وامتلأت أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغنم والسلطان بأى الوسائل، وتضاءل لون المعركة المذهبى والمثالى شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادى على امتلاك تلك المنطقة الغنية الآهلة — إفريقية — وانتزاعها من أيدى الموحدين ، لتغدو غنما لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ،واستطاع

يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتتح سائر القواعد والثغور الإفريقية — القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقفصة وبلاد الجريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز فى المنطقة الشرقية ، وسحق سائر الحملات الموحدية التى وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظمية ، التى استطاع يحيى بن غانية أن يبسط عليها سلطانه ، لم تكن وحدة متماسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها فى الجنوب فى جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كجندى وقائد ، يتصف بشىء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفره على خصومه فى معظم المعارك التى خاضها ، أن ينشئ فى البلاد التى افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجرى فى حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه فى الحكم هى أساليب الطاغية المطلق ، أعنى حكم عسف وهوى ، لايعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة فى ظله ضمان للنفس أوالأموال أوالحرم ، بل كان يتميز قبل كل شىء بالقتل والغصب واستباحة الحُرم ، وعلى الجملة ، فلم تكن حكومة الميورقى ، وعماله فى تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهبة تعتمد فى تدعيم سلطانها على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لايدخر وسعاً فى استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التى لاتنتهى ، ويبذل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القُلّب الذين لايخبو لهم جشع . وقد رأينا ماكان من بالغ جشعه واشتطاطه فى فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفك والتقتيل .

وقد كان حرياً بمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر المحكومين ومقتهم وأن يحفزهم الى ترقب انهياره والخلاص منه . وهكذا كان سلطان بنى غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذى لايلطف منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحدين لإفريقية لم يكن حكماً مثالياً ، فقد كان على الأقل حكماً نظامياً ، فى معنى من المعانى ، وكان بعيداً عن مثل هذه الفظائع ، التى كانت تصم حكم

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الجيوش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يبتهجوا لسقوط الميورقى وانهيار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقية ، ولتحول انتصارات يحيى الميورقى وفتوحاته ، إلى حملات ناهبة غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم عصابة مغامرة ، ولتحمل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورقى ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقده لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تتكسر نفسه الوثابة ، ولم تخب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركته مع الموحدين ، وسوف نراه عما قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

— ٥ —

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقية ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورقى على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسبما تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سحق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . فنى شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد ، فسارت هذه الحملة ، وهى تتقصى آثار « الأشقياء » شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة وسحقها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة[1] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

على أن أنجع إجراء اتخذه الناصر لتأمين إفريقية هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي ، وهو الظافر في معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين، وأعلاهم مكانة ، وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته إبنة الخليفة المنصور : وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتذر أبو محمد بادئ ذي بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة في الجليل من الشئون ، فبعث الناصر إليه ابنه وولي عهده الفتى يوسف ، ليقنعه بالقبول : ويفصل لنا التجاني في رحلته ، ما قاله ولي العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحدون في سبيلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معدلا ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم ولي عهده، فأبدى قبوله لولاية إفريقية، بشروط خلاصتها أنه لايبقى في منصبه إلا بقدر ما تصلح أحوال إفريقية ، وينقشع خطر الميورقي عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يسأل عن تصرفاته كائنة ماكانت ، وأن يُخير في أمر الولاة الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس في السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبومحمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبدوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقي إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبي محمد على رأس الولاية ، وأنه آثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ(١) .

وسار الناصر أولا إلى تلمسان ، فوصل إليها في أوائل شهر ذي الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاة إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة والمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم : وكان عند خروجه إلى غزوته في إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبي إسحق عن ولاية إشبيلية، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقي بها حتى نهاية ذي الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها في أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤هـ ، واستأنف بها النظر في

(١) رحلة التجاني ص ٣٦١ و٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبى الحسن بن أبى بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبى الربيع بن أبى عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالها . ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها فى صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائى فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدوة . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها فى شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل[١] .

وما كاد الناصر يستريح من وعثاء السفر ، حتى عاد إلى النظر فى الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبى زيد على الأشغال بالعدوتين المغرب والأندلس . وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ما كان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبى زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتابهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ فى تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فما كاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأحماله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أحماله وأمتعته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شىء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له فى ذلك عند الناصر ، كتابه الذى ألفه فى محاسن والده المنصور[٢] .

وفى هذا العام توفى السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن والى بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذى أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفى العام التالى أعنى سنة خمس وستمائة أقيل السيد أبو الحسن بن عمر والى تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة فى تلك المنطقة ، وعين مكانه فى الولاية السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدين ليستعين بهم فى ضبط الأمن والسكينة فى تلك المنطقة .

وفى تلك الأثناء كانت الحوادث فى إفريقية قد عادت إلى اضطرامها ، وعاد يحيى الميورقى إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان مذ لحقت به

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

الهزيمة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بفلوله إلى الجنوب ، يرقب الفرص للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا من قبل غير مرة إلى الدور الذى كانت تقوم به طوائف العرب فى أرجاء إفريقية ، من احتراف الحرب ، والتقلب فى محالفة مختلف الجهات . وكان بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب فى سائر مشاريعهم الحربية . وكان يحيى الميورقى يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ، وإطلاق أيديهم كلما سنحت الفرص ، فى أعمال السلب والنهب . وكذلك كان الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب فى تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة . فلما حلت الهزيمة بيحيى وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ، وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف من بطون بنى سُليم ، وكانت أحياؤهم تقع فى المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ، أما بنو زغبة فقد كانوا أصلا من خصوم بنى غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته الضاربين فى المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بنى غانية . بيد أن يحيى استطاع بالرغم من محنته أن يستبقى إلى جانبه بالأخص ، حشوداً كبيرة من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيخهم محمد بن مسعود البلط لم يفارقه فى ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار فى معظم قواته صوب المغرب ، فى أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيى الميورقى يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ، ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يعيث حيثما حل ، وكان الشيخ أبو محمد الحفصى والى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيونه حركات الميورقى ، فلما ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج فى جيش من الموحدين والعرب ، من بنى عوف وسليم ومرداس ، وسار توا للقائه . والتقى الفريقان فى منطقة تبيشة على ضفة وادى شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ، وأسفرت فى النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقيين ومن معهم من العرب ، فارتد يحيى فى فلوله وهو جريح ، والموحدون فى أثره ، ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء فى اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محلته وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيي الميورقى فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤هـ (٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧م) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده فى الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار فى النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسى للإنفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتى ألف دينار[1] .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت فى عضد يحيي بن غانية ، ولم تخمد الديه عزم التوثب والنضال ، فجمع أشتات قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبى محمد ، وتفاديا لضرباته القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار فى جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربى ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة فى تلك الأنحاء ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى واحات سجلماسة ، ثم هاجم سجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم فى أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقى على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقترابه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد فى قواته مرة أخرى للقاء الميورقى عند العود ، وبعث إلى والى تلمسان السيد أبى عمران موسى يحذره من مفاجآت الميورقى ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان يجوس بين قبائل زناتة الضاربة فى جنوبها ، يسترضيهم ، ويستميلهم إلى أداء الجبايات ، والتزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقى كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين فى جنوبى تلمسان ، وعرّفوا الميورقى بظروف السيد أبى عمران ، وعدم استعداده وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقى نحو الشمال حتى اقترب من جنوبى تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و٢٧٨ . وقد جاء فى « العبر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت جملته مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأى حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف فى النص .

بمقدمه وتردد وقتاً فى لقائه . ولكن الميورقى لم يلبث أن فاجأه بجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه فى قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصمد السيد أبوعمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بنى السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقى على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيل ، واقتحمت مدينة تاهرْت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالا (٦٠٥هـ — ١٢٠٩م) ، وانتشرت جنود الميورقى من المرابطين والعرب فى أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس فى قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطمأن أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر فى نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدّمه على العسكر ، فسار ابن يوجان فى قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقى بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت فى قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهاً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم[1] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعتزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر فى تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطماعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن طالعها ، ولتغتنم فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزواودة وشيخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى ينوى هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضى إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات الثائر بخافية على أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية اليقظ الحازم . فبادر بحشد قواته ، معتزماً أن يبادر المبارقة وحلفاءهم قبل أن يخترقوا إفريقية ، وخرج من تونس

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص٢٢٩ و٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و٢٧٨ . وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستمائة ، فى جيش كثيف وافر العُدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم اتجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان يحتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب. والتقى الفريقان فى موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبومحمد محلته مزودة بالفساطيط والأبنية ، حتى لاتكون ثمة أية فكرة فى التراجع. ثم اشتبك الفريقان فى معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين فى البداية ، وولى من كان بها من الغز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبومحمد فى القلب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بنى عوف وبنى سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر فى النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على ضعائن العرب وغنائمهم التى كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نخيل كاتب أبى محمد أن أحمال الغنائم فى هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبى الشيخ ، وشيخ بنى قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازى ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بنى رياح وبنى هلال . وكانت ضربة ساحقة ليحيى ابن غانية ، وحلفائه ، تضارع فى عنفها وأهمية نتائجها ضربة جبل تاجرا ، وفر يحيى فى فلّ من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت فى قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد فى قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرئ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمدائح الشعر[1] ، وكان منها قصيدة لأبى عبد الله بن يخلفتن الفازازى هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها ... وتدفقت ملء الملا أنهارها

وتأرّجت نفحاتها وتبرجت ... صفحاتها وتبلجت أنوارها

وأتت بشائرها إليك سوافرا ... عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من محالفة الميورقى والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق فى تلك المنطقة ، التى كثر فيها تقلب

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .

الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة فى وادى القيروان .

وكان أهل جبال نفوسة قد أرهقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأثقل كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقى ، حتى وثبوا بابن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى .

وعكف أبو محمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف عنه من الحزم والبراعة ، فقمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت فى ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاع اسم أبى محمد ، واشتهر أمره ، وسمت مكانته ، حتى غدا ثانى رجل فى الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل الذى اضطلع به ونجح فى تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بنى غانية ، وتحرير إفريقية من نيرهم ، وردها إلى سلطان الموحدين ، وذلك فى فترة يسيرة لاتتجاوز خمسة أعوام أو ستة ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التى استطاعت الدولة الموحدية أن تقوم بها فى مدى ربع قرن ، مذ نزل بنوغانية بإفريقية لأول مرة . ولم يكن ذلك عملا هيناً ولا ميسوراً إزاء ماكان يتصف به على بن غانية وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصبة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وقى الدولة الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التى كانت تتعرض لها ، من جراء تغلب بنى غانية على جزء من أهم أراضى الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم . واستمر أبو محمد بن أبى حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) يسيطر على مصاير إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يضمر أو يدور بخلده أنه إنما يمهد بهذا التوطيد لسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته الملوكية المستقلة ، التى قامت بعد ذلك بقليل ، فى هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية[1] .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبته الأخيرة فى جبل نفوسة ، ملتجئاً مع فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

---

(١) ابن خلدون ج٦ ص٢٧٩ . وراجع أيضاً A. Bel : Les Benou Ghania p. 152 - 154

وكان ممن شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبى محمد ، لائذاً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه فى السفر إلى الحضرة فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب (سنة ٦٠٧ هـ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشئون الإدارية ، والنظر فى أعمال الولايات . وكان كثير التغيير والتبديل للولاة ورجال الدولة . ومن ذلك أنه فى سنة خمس وستمائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبى عمران من الوزارة ،وألزمه أن يبقى فى داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميورقة مكان السيد أبى عبد الله بن أبى حفص ، وعين السيد أبا عبد الله واليا لبلنسية ، وقدم للوزارة أباسعيد ابن أبى إسحاق بن جامع مكان أبى زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحق والياً لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرقى الأندلس ، والشيخ أباعمران بن ياسين الهنتاتى والياً لمرسيه ، مكان أبى الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً لجيان ، وأبا عبد الله بن أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص والياً لغرناطة . وعين لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما من الكتاب المجيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظهائر ، واختص الثانى بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناولت هذه التعيينات شئون القضاء فعزل القاضى أبوعبد الله الباجى عن قضاء إشبيلية ، وعين مكانه أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان أبى على بن أبى محمد المالقى ، واستدعى أبوعلى إلى الحضرة حيث قدم على طلبة الحضر ، وهو المنصب الذى كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعين أبو إبراهيم ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبوعبد الله بن عيسى المرسى لقيادة قوات الغرب بشلب ، وندب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ، والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوبيل ، وهى وظيفة مستحدثة فى البلاط الموحدى ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغييرات والتعيينات كلها فى عام واحد، هو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م)[1] .

ووقعت بالمغرب فى هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٣ و٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

مصرع ابن عطية الزناتى ، أحد رؤساء زناتة الخوارج فى منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، فدس إليه ابن يوجان والى تلمسان من اغتاله بمقره . وفى هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسى كان من وسائل الموحدين فى القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أبا محمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشاغبين من بنى سليم ، واستاق أشياخهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه فى تونس ، حسما لفسادهم وشغبهم ، وإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصراً ، ألفى فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبنى غانية ، ووطد أسباب الهدوء فى تلك المنطقة .

وكان من أهم الحوادث فى هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذى وقع بمراكش ، وكان وقوعه فى ليلة يوم الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى ، والناس يرقدون فى مضاجعهم : وشبت النار أولا فى حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على الضجيج وغادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجزاً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالى ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر فى اليوم التالى ، بتتبع السفلة الناهبين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعدموا على الأثر . وهلك فى تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخليفى يسبغ عليها أضواءه[١] .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوهها ، وفدوا على الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بتونس ، ونبأوه بأن المسلمين فى صقلية انتزعوا كثيراً من المعاقل من أيدى الروم ، وأقاموا الخطبة فى بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

(١) البيان المغرب ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، فى تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التى كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعانى من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون مذ سقطت الجزيرة فى أيدى الأمراء النورمان فى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى فى بعض الأحياء ، والأراضى ، فى مسينى ، وبلرم ، وترابانى ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية فى مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، فى ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفى مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر (رجّار) الثانى ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسى ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى فى سنة ١١٥٤م ، خلفه ولده وليم الأول (غليام) ، فولده وليم الثانى . وفى عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضى التى يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ؛ والظاهر أن الملك وليم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع التى حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء يخيم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسى ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمى صقلية فى عهد الملك وليم (ويسميه غليام) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة فى شهر رمضان سنة ٥٨٠هـ (يناير سنة ١١٨٥م) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه (بلرم) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم : وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بلرم « رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان

مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل »[1].

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقى فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماً ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالا طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألماً »[2] .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك وليم (غليام) ، فيقول إنه عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهيه فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه باتخاذ الفتيان والجوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عمالته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك وليم الثانى فى سنة ١١٨٩م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

---

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣١٤ و٣٢٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٣٢ و٣٣٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاها للكنيسة : وكان ذلك فى سنة ١٢٠٨م (٦٠٥ هـ)[1].
والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هى الحوادث التى يشير إليها وفد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصى. على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب على مسعى هذا الوفد أى أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا فى التدخل فى حوادث صقلية بأية صورة . وسنرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد فى صقلية بين المسلمين وحكامهم النصارى ، ثم ينتهى بإخماد كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم :

---

(١) راجع : M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze 1872) p. 586 & 591

الفصل السادس

موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس . سكون المالك النصرانية منذ الأرك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة الفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضى الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضى بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واستنفاره للقبائل . خروج الناصر فى قواته إلى رباط الفتح . مسيره إلى قصر كتامة . صعوبة تموين الجيش . مؤاخذة العمال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند فى سائر الكور . خروج الناصر فى الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره إلى قلعة شلبطرة . أحوال المالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شلبطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون فى الشرق . البابوية والصفة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . سعى البابا إنوصان لمعاونة ملك قشتالة . صدى مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شلبطرة . عجز ألفونسو عن إنجادها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينقض هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأحبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون ونافارا . الصوم والابتهال فى رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد فى كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الجديدة . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر فى جيوشه من إشبيلية . مسير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . يأس حاكمها ابن قادس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مغادرة معظم المتطوعة الأجانب المعسكر النصرانى . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قادس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . سخط الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصرانى . مسير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها فى ممر موراداال . مسير الجيوش الموحدية لملاقاة العدو . أقسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادى الكبير . احتلالهم لممرات جبل الشارات . نزولهم فى السهل المواجه لممر تولوسا . توقف الناصر للقاء النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بويرتو دل موراداال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فيرال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والممر السهل . تحول الجيش النصرانى واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية للقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصرانى وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم طلائعهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحى النصارى على جناحى الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحى النصارى .

نزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليفى العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحثه جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقهم للدائرة الخليفية المدرعة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صمود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطراره فى النهاية إلى الفرار . سيره صوب بياسة ثم جيان . فرار الموحدين فى كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على المحلة الموحدية وانتهاب سائر ما فيها . تختلف أسماء الموقعة . خسائر المسلمين فى الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية فى ذلك . مبالغتها فى التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال فى ذلك . وفرة السلاح والغنائم التى استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . توكيد التفوق السياسى والعسكرى لإسبانيا النصرانية . الفزع فى أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفناء . فناء الجيوش الموحدية والفروسية المغربية . تضعضع الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته لبياسة وحصاره لأبدة . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبى يعقوب يوسف . احتجابه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل فى وفاته . الناصر وعهده . بدايته الحسنة . استبداده بالأمر . خلو عهده من الأعمال الإنشائية . عطله عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشى وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضاته وكتابه . أبناؤه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدين بها ، عن سير الحوادث فى الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التى استطالت زهاء اثنتى عشرة عاما ، أن يعنى بشىء من شئون الأندلس الجوهرية ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بنى غانية فى إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدين ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفى مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حينا منذ موقعة الأرك ، ولبثت بضعة أعوام تتهيب الاشتباك مع القوات الموحدية فى شبه الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدين . فلما شغل الموحدون بصراعهم مع بنى غانية فى إفريقية ، ولما استطال أمر هذا الصراع أعواما ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضى الإسلامية ، ولم يعقها

عن انتهاز هـذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .

فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية . وفي أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، في قلعة شلبَطَرّة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لجأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك . وسار ألفونسو صوب جيّان وبيّاسة ، فانتسف الحقول وخرب الضياع ، وقتل وسبى ، وعاث الفرسان في أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، بحن وخسائر فادحة . وفي العام التالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث في أراضي جيان وبياسة ، ووصل في عيثه إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفي نفس الوقت ، وقعت في شرقي الأندلس حوادث مماثلة ، وكان السيد أبوالعلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحدى وفاتح الجزائر الشرقية ، قد سار في جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه في شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك في صيف سنة ١٢١٠م (٦٠٧هـ) . فاستشاط بيدرو الثاني ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منتشون ومعه فرقة من فرسان المعبد (الداوية) ، وسار جنوبا نحو أراضي ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية في تلك المنطقة[1] .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، في أراضي الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدية الصغيرة التي ترابط في مختلف القواعد ، لم يكن في مقدورها أن تقوم برد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، في جيوشه الجرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرقي الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدوة ، وقصدوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، متضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٤ .

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة .
ومما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبى حفص والى إفريقية يستشيره فى ذلك الأمر ، وفيما ينتويه من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه بوجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو فى تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه[1] ، وقرر الاستجابة لداعى الجهاد ، وأخذ بالفعل فى الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفار الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر فى نفس الوقت ، إلى ولاة إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الجند ، وإعداد المؤن ، وتمهيد السبل فى جميع المناطق[2] .

ولما كملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسى والمؤن ، خرج الناصر فى قواته الجرارة من حضرة مراكش فى يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ هـ (٥ فبراير سنة ١٢١١م) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر فى الضاحية المجاورة المسماة ببرج الحمّام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشئون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولاتها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد .

وخرج الناصر فى جيوشه من رباط الفتح ، فى يوم الاثنين الثامن عشر من شوال (٤ أبريل سنة ١٢١١م) ، قاصداً إلى قصر كتامة (القصر الصغير) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالا حتى البحر ، وهى طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتموين الجيوش المسافرة ، سواء فى الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمؤن والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها صعابا مرهقة فى التموين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٤ .

من قبل ، ولحق الجند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمؤاخذة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبى محمد بن أبى على بن مثنى صاحب الأعمال المخزنية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبى داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العمال المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى قصر كتامة بالقبض على عامل سبتة محمد بن يحيى المسّوفى ، لما بدا من إهماله وفساده ، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس[١] .

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ، لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقيماً بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأثقاله وحاشيته وحرسه . وركب البحر فى يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة (١٥ مايو) ونزل بساحل طريف ، وهنالك استقبله قواد الأندلس وفقهاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار فى جيوشه الجرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة (آخر مايو) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك فى نهاية سنة ٦٠٧ ﻫ (منتصف يونيه سنة ١٢١١ م) .

وماكاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستنفار الحشود الأندلسية ، وصنع الآلات الحربية ، واستدعاء الجند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصولهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الجند ، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية فى حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر فى الحركة ، وخرج من إشبيلية فى جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغزاز وغيرهم من طوائف الجند ، وسار جنوبى الوادى متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيّان وبيّاسة ، وكان النصارى هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذى يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شَلْبَطَرَة[٢]

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يرسمها صاحب الروض المعطار (ص ١٠٩) هى بالإسبانية **Salvatierra** ويرسمها صاحب روض القرطاس (ص ١٥٦) وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٤٩) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشى (المعجب ص ١٨٢) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه فى هذا الرسم النويرى (طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٧٩) .

التى تقع على مقربة من جنوبى غربى قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات (سييرا مورينا) : وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعة ، حسبما تقدم، من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح الدينية فى سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين فى معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان فى قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعة ، فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار، يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل الأراضى الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم المخربة فى أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، فى سنة ١٢٠٩م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعة .

— ١ —

ويجدر بنا بادئ ذى بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية فى تلك الآونة ، التى أخذت فيها طوالع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو فى الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، لم يكن الوئام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضمانا لسلامتها ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعُقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا إبنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة، بعد ذلك بخمسة أعوام، بناء على تدخل البابا وضغطه المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً، هو دون دييجو لوبث دى هارو ، سيد بسكاية ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى، دونيا أوراكا ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن و إهانة، وارتد فى أصحابه إلى أراضى نافارا ، وأخذ يغير منها على أراضى قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن فى قواته صوب نافارا ، فخشى ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون دييجو من مملكته ، فلجأ دون دييجو إلى بيدرو الثانى ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلتجئ عندئذ إلى

المسلمين فى ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك فى صحبه على أراضى أراجون .

وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين نافارا وقشتالة فى سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميليه ملك نافارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك فى سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوئام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من من الطمأنينة والأمل فى عون زملائه ، يضطرم رغبة فى استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته المخربة التى أشرنا إليها فى منطقة جيّان وبياسة وأندوجر ، وذلك خلال سنتى ١٢٠٩ ، ١٢١٠م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدى ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شلبطرّة ، التى يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التى ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثانى ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فعاث فى منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على مؤازرة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطرمت الحرب بينه وبين الموحدين .

وكان على رأس البابوية يومئذ حبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوصان الثالث ، الذى اعتلى الكرسى الرسولى فى سنة ١١٩٨م ، وقد سبق أن أشرنا فى غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسى الرسولى لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولاسيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراراً لعطف الأمم النصرانية المجاورة ، واستجلاباً للمتطوعة والمرتزقة النصارى من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعتزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوصان ، ليرجوه أن يدعو أمم أوربا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين فى اسبانيا ، وأرسل كذلك ردريك مطران طليطلة[١] وعدة أخر

(١) هو ردريك الطليطلى صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المكتوب باللاتينية Anales Toledanes ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت —

من أكابر الأحبار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى اسبانيا ، ومؤازرة الجيوش النصرانية فى قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا فى يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتى دون فرناندو ولى عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفى عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شابطرّة الذى استولى عليه الموحدون حسبما نفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبيين »[١] فى جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يتمنى له الفوز فى جميع الأحوال . بيد أنه يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لضمان النصر المنشود .

كانت هذه هى أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية ، حينما عبر الناصر فى جيوشه الجرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية ، فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ هـ (مايو ١٢١١م) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم ، وأخذوا فى تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمرائهم يسئلون سلامته ويطلبون منه عفوه » ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيونة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلما خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفوه وصفحه » وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جليلة[٢] . ويرجع غموض هذا النص ، إلى أن مدينة بيونة ، وهى تقع فى الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة ناڤارا ، لم تكن يومئذ داخلة فى حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك چون ملك

= سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة Hispana Ilustrata ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

(١) الألبيون Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت فى جنوبى فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشهروا على الكثلكة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور فى أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتمزيقهم .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

انجلترا (ولد هنرى الثانى) ، وذلك بالوراثة عن أمه دوقة أكوتين . وقد ترتب على ذلك أن بعض الباحثين ، رأو ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ إنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك الى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك انجلترا يومئذ ، وهو الملك چون . ولكنا نلاحظ أولا أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيونة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيونة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلونة » فى النص الذى نقله السلاوى (عن روض القرطاس)[١]. ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك نافارا (نبرّة) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك نافارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك ببضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يتهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين[٢] . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذاً فمن المرجح المعقول أن يكون ملك نافارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلونة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا الرأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرّة ونكثه بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثرا ، فالحق بتلك الجموع مرهجاً »[٣] ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « بالبيبوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخله ، وأظهر له

---

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345 - 346.

(٣) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالا ثم غدر به »[1] . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك انجلترا ، تستدعى أن يأتى ملك انجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلما خاضعا مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية[2] .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية ، حسبما تقدم فى الأيام الأولى من سنة ٦٠٨هـ (أواخر يوليه ١٢١١م) متجهاً إلى جيان ، فأبدّة وبيّاسة ، ثم سار شمالا نحو قلعة شلبَطَرّة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير توًّا إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولا على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفائقة ، وأهمية موقعها[3] . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضى قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرّة بادئ ذى بدء . ويؤيد ذلك ما ورد فى كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تعينت حربه دارا ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جُله ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غدور وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الجسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه فى قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً لكل غاية ، تخدمه ملوكها ورهبانها ، وتتخذ منه عاصما يعصمها[4] . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعمائة ، وأضرموا النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن الثلج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٤) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة فى أيدى الموحدين فى شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع :
La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1969) (p. 18)

بالنبال والسهام الممطرة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوما. وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حينما اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلا يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنوه فى تسليم القلعة ، إذا لم يستطع إنجادهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طلبيرة يجد فى أهباته ، فاتصل به رسلهم ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيستها فى الحال مسجداً ، ووفى الخليفة بوعده فى ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ هـ (أواخر أغسطس سنة ١٢١١م)[١]. ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الجند ، وفسدت نياتهم التى قصدوا بها للجهاد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التى قاموا بها قد خمدت ، تأهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم فى غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٨هـ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتقى بالموحدين فى موضع يسمى «حصن العقاب»[٢]. بيد أن هذه الرواية التى يستخلص منها أن سقوط شلبطرة فى أيدى الموحدين ، وسقوط قلعة رباح فى أيدى القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة فى حلقة واحدة ، ينقضها أولا كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ فى الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولابد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل[٣]، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

---

(١) الروض المعطار ص ١١٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثالوا عليه من كل مكان » .
ويقول لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر (أعنى فتح شلبطرة) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة[1] . وإذن فمن الواضح أن غزوة شلبطرة كانت غزوة مستقلة ، اقتصرت على فتح هذه القلعة المنيعة ، وأن القوات الموحدية التي قامت بفتحها ، لم تكن هي تلك الجيوش الجرارة التي عادت بعد ذلك بأشهر ، لتلتقى مع الجيوش النصرانية فى « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأهبة والاستعداد .

ففى الوقت الذى حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عوده من غزوة شلبطرة ، كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده فى استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين . ولم تكن هذه الأهبة تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية : ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك قشتالة لدى البابا ، ليسبغ الصفة الصليبية على محاربته للمسلمين ، وأن البابا قد استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى فى جنوبى فرنسا وغيرها إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهى مركز فرسان قلعة رباح فى أيدى الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصاير اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية[2] . وكان المطران المؤرخ ردريك الطليطلى ، وعدة من أكابر الأحبار عندئذ يجوبون جنوبى فرنسا لجمع المتطوعين . واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود المتطوعة تأتى تباعاً إلى طليطلة ، التى تقرر أن تكون مكاناً لاجتماع الجيوش ، والوفود المختلفة . وفى أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران ردريك ومعه جمهرة كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والأسبتارية ، والداوية (فرسان المعبد) ، واجتمع كذلك سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، وفى مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها ، والكونت دبجولوبيث ، ولو بى دياث دى هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

---

(١) الروض المعطار ص ١٣٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

(٢) La Orden de Calatrava ; p . 18 .

يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريس، وفرسان شنت ياقب پيدرو آرياس، ويرأس فرسان الأسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن، ويتولون الإنفاق على حشودهم. وقدم فوق ذلك عدة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين، وفى مقدمتهم مطران أربونة وأسقفا بوردو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين.

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢م، حتى اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوربا لمعاونة اسبانيا النصرانية، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة، وخمسين ألفاً من الرّجالة، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل، لمؤازرة الجيوش الإسبانية النصرانية، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون وناڤارا، ومن أمداد من جليقية والبرتغال. وتلقى ملك قشتالة، فوق ذلك، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح، والمؤن، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا. ولم يأت شهر يونيه سنة ١٢١٢م، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس، ومائة ألف من الرجالة. وأمر البابا إنوصان الثالث فى رومه بالصوم ثلاثة أيام، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية فى اسبانيا على المسلمين، وأقيمت الصلوات العامة. وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب الدينية فى الطرقات خاضعة متمهلة، من كنيسة إلى أخرى، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبانيين[1].

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صبغ محاربته للموحدين بالصبغة الصليبية. وكان المراكشى أكثرهم إلماماً بذلك، إذ يقول: «وخرج الأدفنش لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم، مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى لعنه الله»[2]. ويقول صاحب

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (الترجمة العربية ص ٣٥٨ – ٣٦٠).
(٢) المعجب ص ١٨٢.

البيان المغرب « فاستعد له (أى للقاء الناصر) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين »[1]. ويقول أيضاً صاحب الروض المعطار « ثم استغاث الأذفونش بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له وانثالوا عليه من كل مكان »[2]. وأبلغ من ذلك ماورد فى كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول « إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع للملوك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون فى الشرق والشمال »[3] فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدين كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التى لجأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدها ، وليسبغ صبغة الحرب المقدسة على المعركة التى يضطلع بها ، مثلما كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد فى سبيل الله ، على المعارك التى يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عوده من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضاعف حشوده ، وليدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة : ففى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالى دبجولوبيث دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحبار والقوامس . ويتألف الجيش الثانى من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدور الثانى ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والأسبتارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الروض المعطار ص ١٣٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٤١ .

عدة قواد من الأحبار والسادة ، وفى مقدمتهم ردريك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية فى العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيه سنة ١٢١٢م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصارى . وكانت الجيوش النصرانية تسير فى نفس الوقت نحو الأراضى الإسلامية ، فوصلت طلائعها فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه ، إلى حصن مَلَجون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية فى سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية فى تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيستها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أبا الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصارى حامية من سبعين فارسا[1] . ولقى النصارى فى عبور نهر وادى يانه الذى تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية صعابا ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنانير والحوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة فى الحال ، ولكن القلعة كانت فضلا عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبى النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج فى منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصارى فى مهاجمتها بادئ ذى بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأى فى النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة فى يوم ٣٠ يونيه ، واستطاع النصارى أن يحتلوا قسمها الخارجى الذى يحاذى النهر ، وهو أضعف قسميها من حيث المناعة . وهنا تتفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصارى على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً فى مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ماحدث فى شلبطرّة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأى ، بعد أن حاول الاستنجاد عبثاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعبث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمى الذى يمكنه

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٧ .

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا فى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية الإسلامية . ولكن غلب الرأى بقبول هذا الحل فى النهاية ، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادس على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها فى الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور[(١)].

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التنابذ والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا فى إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عملا لامبرر له ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية ، وثانيا لأن ألفونسو وجد فى قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوى بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين ، أن ملك قشتالة ، قد عثر بالقلعة على تحف وذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وسخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لا يحتملون جو اسبانيا الحار ، وأنهم وفوا بعهودهم فى مقاتلة المسلمين فى ملجون وقلعة رباح ، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم فى ذلك مطران بوردو أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، فى إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالى ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة فى رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالى المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالى على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، اخترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها فى وجوههم خوفاً من اعتدائهم وعيثهم[(٢)].

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً فى الموقعة ، وقد أوردها Hulci Miranda ; Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245 ، وكذلك أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

(٢) أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة H. Miranda : ibid ; p. 245 .

وإنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فنرى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لتفتتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه »[١] .

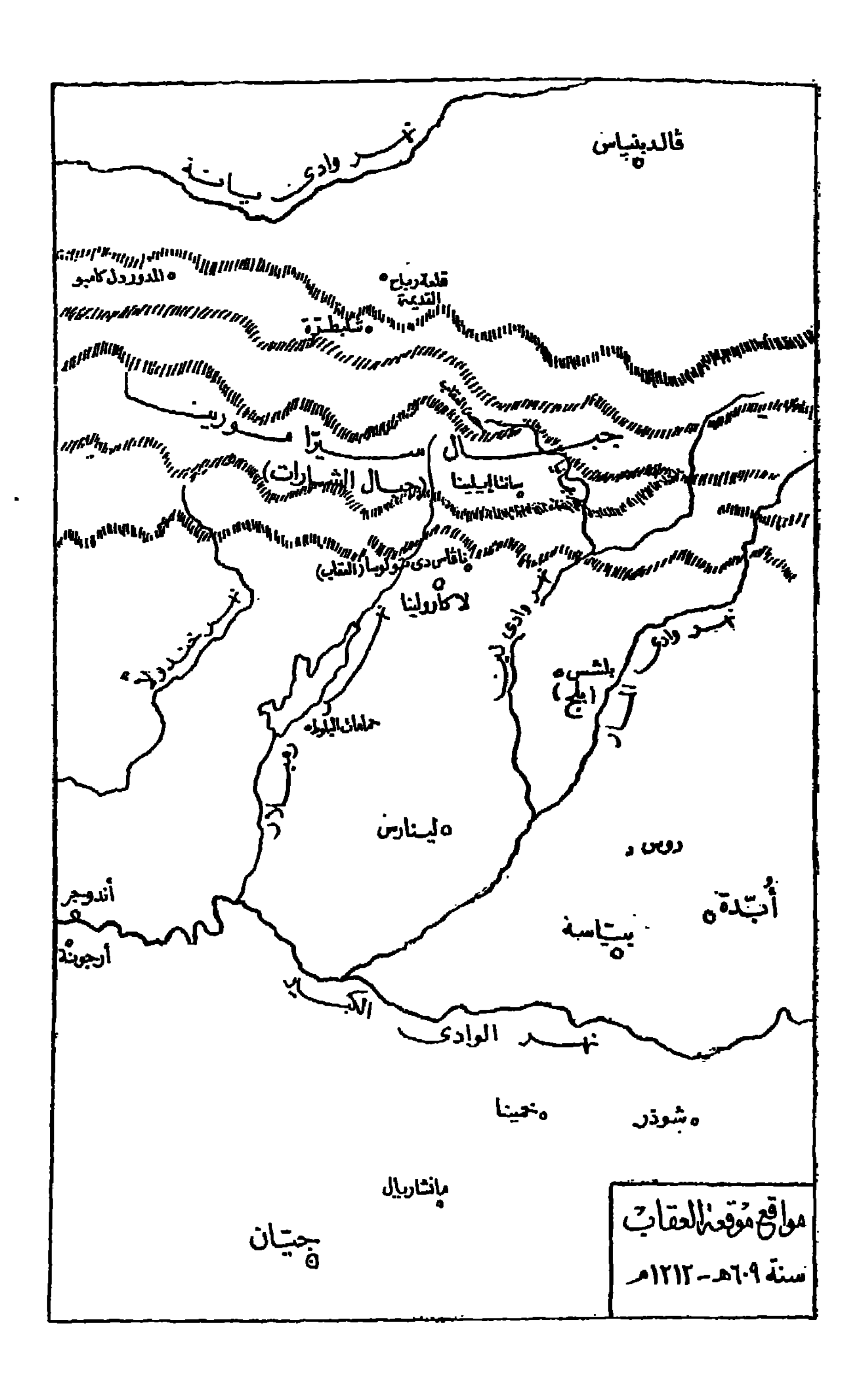
— ٢ —

وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الجرارة إلى جيان ، وهنالك استقر بظاهرها أياما ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وماحدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الجند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فمنعه الوزير أبوسعيد بن جامع من ذلك ، وصوّر موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرماح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الجند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعتزلوا جيش الموحدين ، وأنه لاحاجة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى[٢] .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدى النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ماحدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك نافارا ، قد ارتضى

(١) المعجب ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والروض المعطار ص ١٣٧ .



نهر وادى يانة
ڤالدپنياس
الدورد ل كامبو
قلعة رباح القديمة
شلبطرة
جبال سيرا مورينة
(جبال الشارات)
باناابلينا
نافاس دى تولوسا (العقاب)
لاكارولينا
نهر خندوره
نهر وادى لين
نهر وادى آنار
بلشس (ابلج)
حمامات البلوه
نهر ربيلار
ليناريس
روس
أبذة
بياسة
أندوجر
أرجونة
الكبابر
نهر الوادى
خينينا
شوذر
مانشاريال
جيان
مواقع موقعة العقاب
سنة ٦٠٩هـ - ١٢١٢م

أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك فى تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولا على نصح البابا وإلحاحه[1] ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضى الإسلامية ، ومرت بشلبطرة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت طلائعها على مرتفعات جبال الشارات (سييرا مورينا) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر مورادال ، وذلك فى يوم ١٣ يوليه (العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك فى جيوشه الجرارة نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثانى من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التى كان يقودها الناصر ، فقد بولغ فى شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج فى جيوش لا تحصى وأمم كالجراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والنجد والغور . ثم يقدم إلينا فى موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفا بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدى الخليفة بالحراب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز (الغز) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة[2] . وفى رواية أخرى لا تقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل[3] ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً فى مثل هذه المنطقة الوعرة التى كان يخترقها الجيش الموحدى للقاء

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التموين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لوقدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكنا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واخترقت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب بياسة ، وكانت قد تخلفت أياماً عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نضب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادها ممرات جبل الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعتزم الخليفة الناصر أن يصمد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التموين ، لانتهاز الفرصة فى لقائها ، وهى متعبة ، فاترة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معتزا غاية الاعتزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددى .

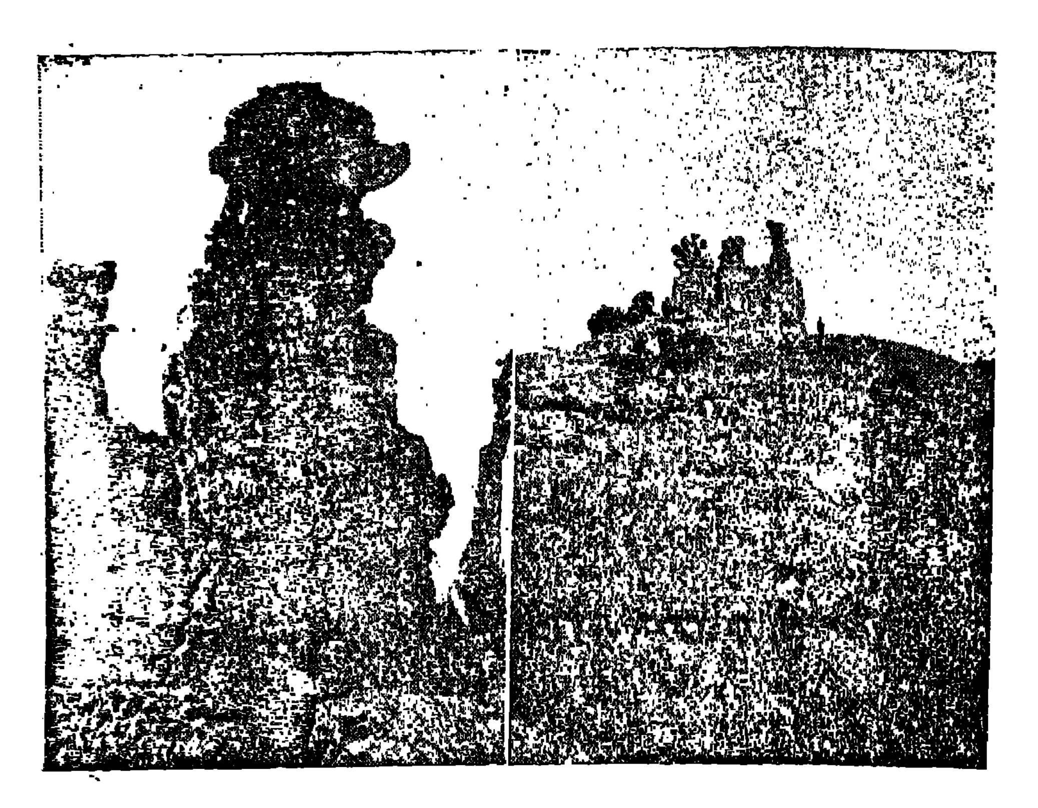
ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والأمكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سيرا مورينا (جبال الشارات) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الأمكنة التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

ويجب أن نذكر أولا أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة ناڤاس دى تولوسا Navas de Tolosa، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أوضيعة صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكارولينا » الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوبا إلى الأندلس .

بيد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك البحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبسائط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطى ، الذى نقدمه نتيجة لدراستنا لمعالم الموقعة . ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلا على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدية الأرضية التى كانت تنصب للخيل ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

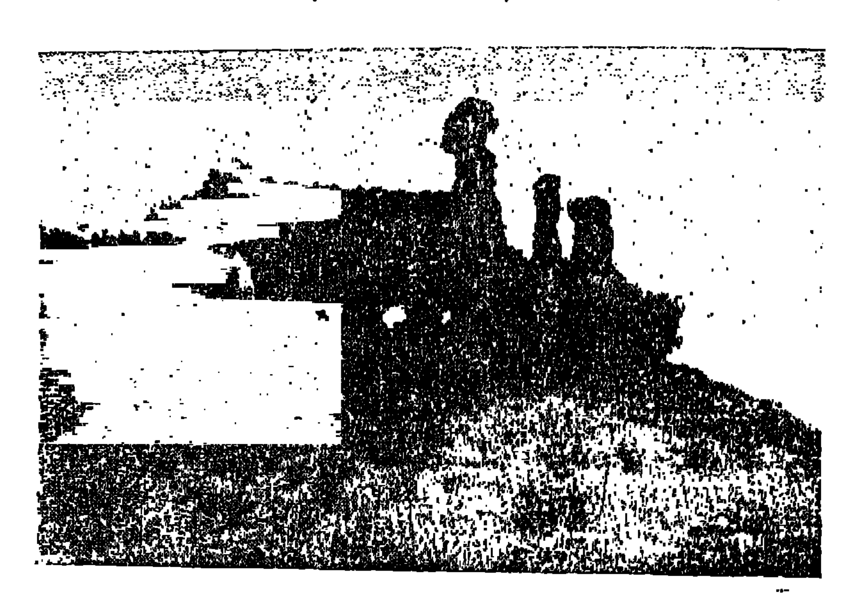
حصن العقاب

وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، واسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بحصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبنيابروس Despeñaperros (أو منحدر الكلاب) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارسة هى عبارة عن بقايا جدارين عالين متواليين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبى إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . ومازالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .



أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال

الجدار الأوسط لأطلال حصن العقاب



الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب

الطريق الرومانى والنهر

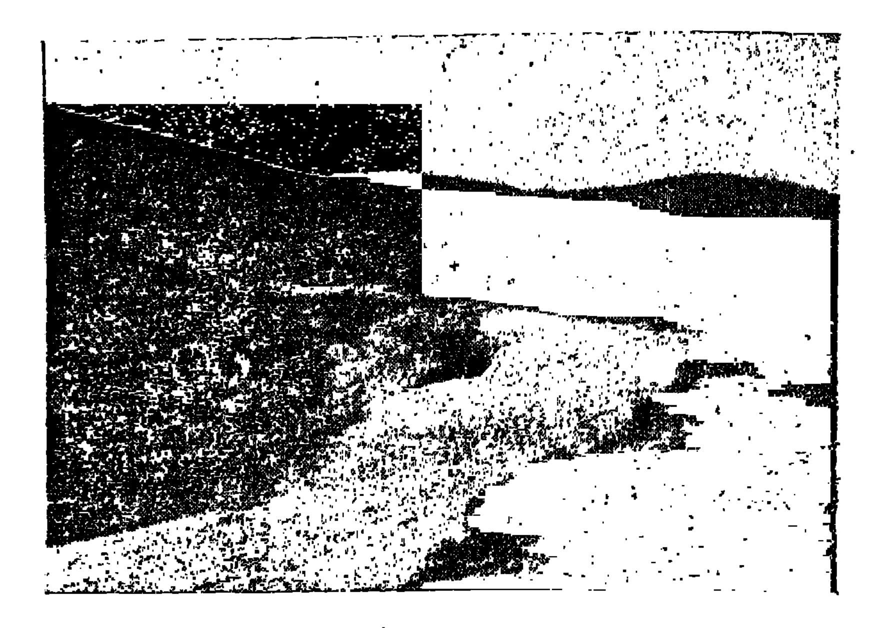
وإنه لما يسترعى النظر فى أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال (أراضى قشتالة) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى « كارثادا » Carzada ، وهو الطريق الرومانى القديم ، وهو يوجد وراء الجبال فى المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع فى سهل خفيض فى أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهو عبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغير لايزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلا من الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضى قشتالة .

بويرتو دل مورادال

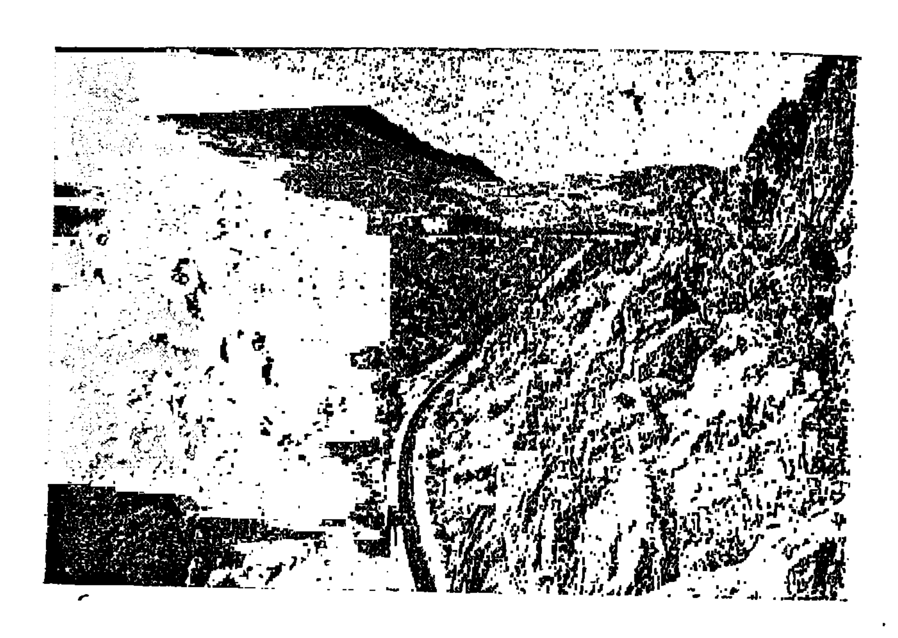
وهذا الطريق المسمى « كرثادا » يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماه Puerto del Moradal (بويرتودل مورادال) أوثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبدو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدة بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم « الإمبدرادليو » Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قيل لنا إنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى « جبل المسلم » Cerro del Moro .

مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسيطا كبيراً بيضاويا ، يمتد نحو اليمين ونحو اليسار إلى مسافة عدة كيلومترات ،



نهر مجانيا كما يبدو فى أسفل الجبال



منحدر دسبينياپروس

وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك » Mesa del Rey ، وقد شهدناه من بعد أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أوبيضاوى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالخضرة ، وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالفعل تصلح محلة للجيوش الغازية .

* * *

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ، أن نتتبع تحركات الجيشين القشتالى والموحدى ، وأن تكوّن فكرة واضحة عن مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصارى بعد احتلالهم بسيط موراداال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا أن ينتزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والتى وصفناها من قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بحصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ، ولكنهم شعروا مع ذلك بحرج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص وسائل التموين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحدين سائر ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهو الذى يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لا يمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ اجتمع الملوك النصارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان الرأى الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول أراضى الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا الرأى ، لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلا عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولا عن خوض المعركة . وهنا تعرض لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق آخر لعبور الجبل ، يقع فى موتفع آخر ، ويفضى إلى سهل أبدّة ، ويمكن أن يسلكه الجيش دون أن يفطن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،



ممر بورتو دل مورادال كما يبدو من أسفل الجبل



بسيط مائدة الملك Mesa del Rey كما يبدو من أسفل الجبل

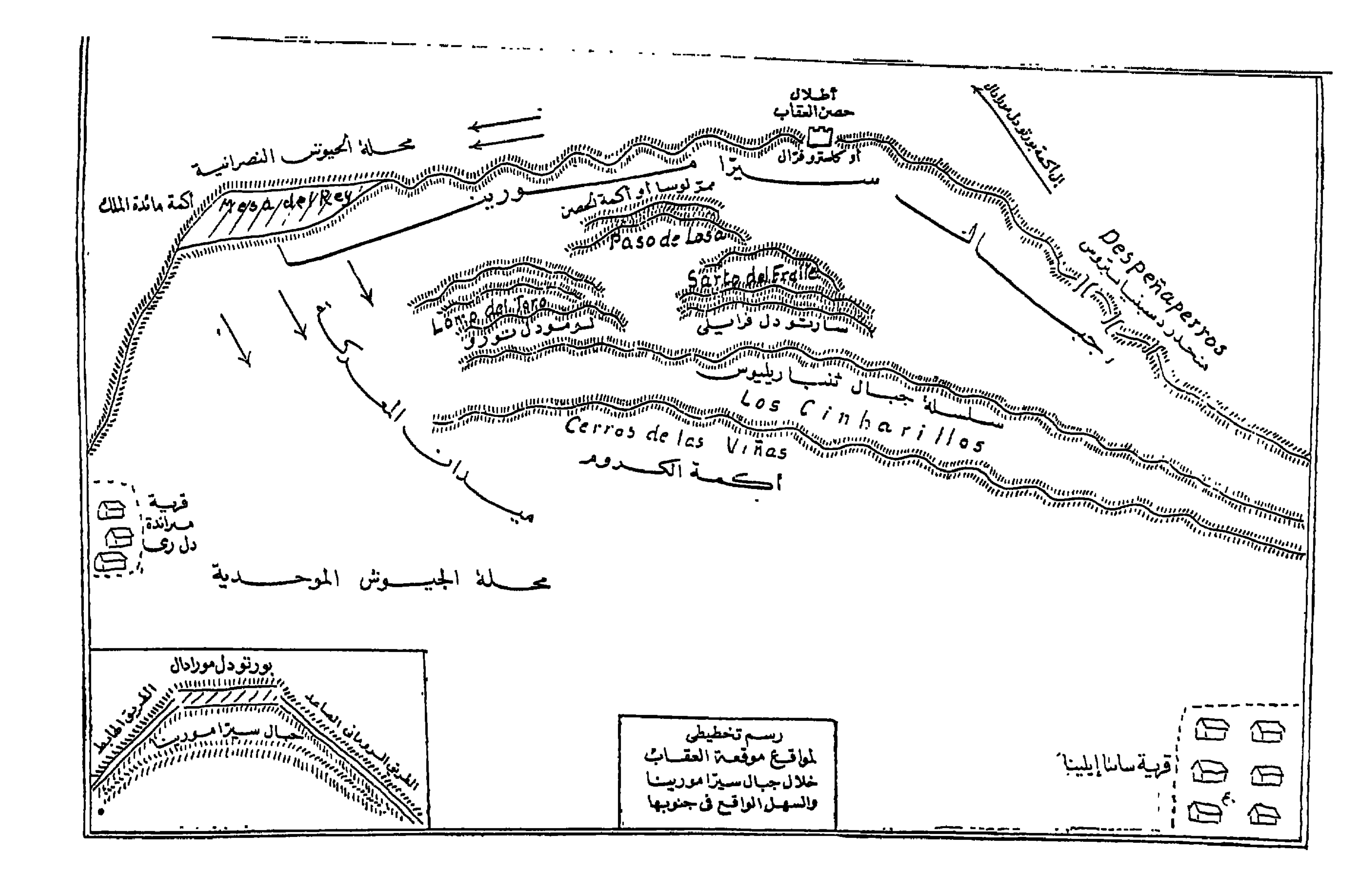
وغرسية روميرو لمعاينة هذا الطريق ، ولما تحققا من صحة كل ما قاله الراعى ، بادر الجيش النصرانى فى نفس اليوم — وهو يوم السبت ١٤ يوليه — بالسير إلى ذلك المرتفع الجديد ، واحتلوا بسيطه — وهو البسيط الذى يطلق عليه اليوم اسم « مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذى وصفناه ، وبينا موقعه فيما تقدم . وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصرانى مرابطة من ورائه ، واعتبر هذا الراعى المرشد منقذاً أرسله الله(١) .

ولم يخف أمر هذه الحركة التى قام بها الجيش النصرانى على الموحدين ، وقد وقفوا فى الحال على مكان عدوهم الجديد ، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الجديد من أيدى النصارى . وصدرت أوامر الخليفة الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة فى الحال ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة فى يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سريات الفرسان من الفريقين . بيد أنه لم يكن من الميسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة لأكثر من يوم ، أولا لقلة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانيا لكون الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت فى حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد يفاجئ الجيش النصرانى بالهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش النصرانى ، وكانت كل تقديراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا فى الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التى وضعت للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا ردريك الطليطلى ، وهو من شهود المعركة ، أن الجيش الموحدى ، قسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب والقوات الاحتياطية من الجند الموحدين ، وهم أغلبية الجند النظامية ، وتتألف الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

---

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة فى معظم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع فى ذلك Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 698 ونقلها الأستاذ هويثى فى كتابه : Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250 . ونقلها أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ .



أطلال
حصن العقاب
أو كاسترو فرال
الأكمة بورتو دل موراداال
محلة الجيوش النصرانية
أكمة مائدة الملك
Mesa del Rey
سيرا مورينا
ممر لوسا أو أكمة الحصن
Paso de Losa
Sarto del Fraile
ساريتو دل فرايلي
Loma del Toro
لوما دل تورو
Despeñaperros
منحدر دسبنيا بيروس
سلسلة جبال ثنثباريليوس
Los Cinharillos
Cerros de las Viñas
أكمة الكروم
ميدان المعركة
قرية مراندة دل ري
محلة الجيوش الموحدية
بورتو دل موراداال
الطريق الهابط
الطريق الروماني الصاعد
جبال سيرا مورينا
رسم تخطيطي
لمواقع موقعة العقاب
خلال جبال سيرا مورينا
والسهل الواقع في جنوبها
قرية سانتا إيلينا

وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الجيوش الموحدية ، والذى يواجه مواقع الجيش النصرانى. ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفية سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حرابهم فى اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر فى قبته مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبى سعيد بن جامع . وكان بوسع النصارى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التى لا تحصى ، وفى قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء[١] .

أما عن تنظيم الجيش النصرانى فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا ردريك الطليطلى وغيره من شهود المعركة ، خلاصتها أن الجيش النصرانى قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتزعم كل قسم منها ، ملك من ملوك النصارى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثانى من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك نافارا ، ويضم فضلا عن القوات النافارية ، جند سرية وآبلة وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده بيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التى يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع فى القلب فرسان الداوية والأسبتارية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التى يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين[٢] .

وفى ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ (ليلة ١٦ يوليه سنة ١٢١٢ م) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصارى شطراً من

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٣٦٧ ، وكذلك :
Huici : cit. Anales Toledanes, Las G. Batallas de la Reconquista p. 257

(٢) أشباخ الترجمة العربية ، ص٣٦٦ ، وكذلك : Huici : ibid; p. 253 & 254 .

الليل فى الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوى على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد فى الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى فى تلك الليلة ، شىء من تلك المناظر المؤثرة ، التى وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددى الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة فى الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لخوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التى سبق وصفها . وبدأ النصارى بالهجوم ، فهبطت طلائعهم مسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية فى بسيط « مائدة الملك » Mesa del Rey إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى فى التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التى صعب على المتطوعة الموحدين اختراقها ، وهجم فى نفس الوقت جناحا الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروايتين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد »[1]. ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدين أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم. ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، فى الارتداد

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ .

والفرار[1]، ولاح للفريقين أن لواء النصر سوف يعقد للموحدين .

ولكن هذه البارقة لم يطل أمدها . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية فى القلب والجناحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم فى الحال أن ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقاتل قتال اليائس ، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه الخطر ، فى قواته إلى الصف الأمامى . وتبعه فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل فى قواته ، نحو جناحى الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية كلها فى وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى وميسرته فى الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفرّ الأندلسيون والعرب : وأحدث فرارهم اضطرابا فى الصفوف . وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذى تتوسطه قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليقى الأسود ، وكان النصارى قد انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة فى صالحهم ، فشددوا الهجوم على الموحدين. وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة ، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك حقيقة الموقف ، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درقته ، وهو يحث جنوده على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى دائرة الحرس الأسود ، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهرة حيناً ، وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . ولكن النصارى « ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد »[2] فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها منهم الكونت ألبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفى يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل من ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة مروعة ، ولبث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة فى مجلسه الحرج ، وهو يحاول

---

(١) وهذا ما تقوله لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع فى : Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II p. 701 .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليائس في تلك اللحظة الرهيبة ، التي تناثر فيها الجيش الموحدي ، والحرس الخليفي من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة في كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث في مكانه لا يتزحزح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستؤصلت جموع الجيش الموحدي كلها قتلا وأسرا[١] . واضطر الناصر في آخر لحظة أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابي كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بياسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدي عندئذ تفر في كل ناحية ، ومن ورائها الفرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ماوقع من ضروب السفك والتقتيل ، إذ هلك فيها عشرات الألوف من الجند الفارين ، وانقض الجند النصارى على المحلة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقبيل مغيب الشمس ، كان الملوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصراني ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدي ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدي العظيم الذي كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه النكبة المروعة بالجيش الموحدي في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ الموافق يوم ١٦ يوليه سنة ١٢١٢[٢] ، وهي تعرف في التواريخ النصرانية حسبما قدمنا بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا **Las Navas de Tolosa** لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التي تحيط بها الربى ، تقع في سفح جبل الشارات الجنوبي ، وتعرف أيضاً بموقعة أُبَّدة لوقوعها على مقربة من شمال غربي هذه المدينة . وأما في التواريخ الإسلامية فإنها تعرف

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمراكشي في المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذي تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذي يتفق بالفعل مع الروايات النصرانية (راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المعطار ص ١٣٨) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ٢٤٩) . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخها في يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ — القسم الثالث ص ٢٤١ .

بموقعة العقاب ، من مفردها عقبة ، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربى والتلال المانعة[١] ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، فى معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونه . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو «حصن العقبان»[٢] وهو باسمه الإسبانى حصن فرّال أوكاسترو فرال Castro Ferral الواقع فى قمة جبل الشارات ، والذى استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التى أرشد عنها الراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين فى معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحيانا إلى تقديرات لايستسيغها العقل ، ومن ذلك مايقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فمعنى ذلك أنه لم ينج من الموحدين فى المعركة سوى خمسمائة جندى ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتلى ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى فى جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره[٣] . ويصف صاحب الحلل الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لايحصر ، وفنيها فنى جيوش الغرب والأندلس[٤] ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا فى نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه فى هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك فى الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص ، وعلى بن الغانى الميورقى . وسقط كذلك فى المعركة عدة من أكابر

---

(١) جاء فى القاموس المحيط أن عقبه بالتحريك هى مرقى صعب من الجبال والجمع عقاب (بكسر العين) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

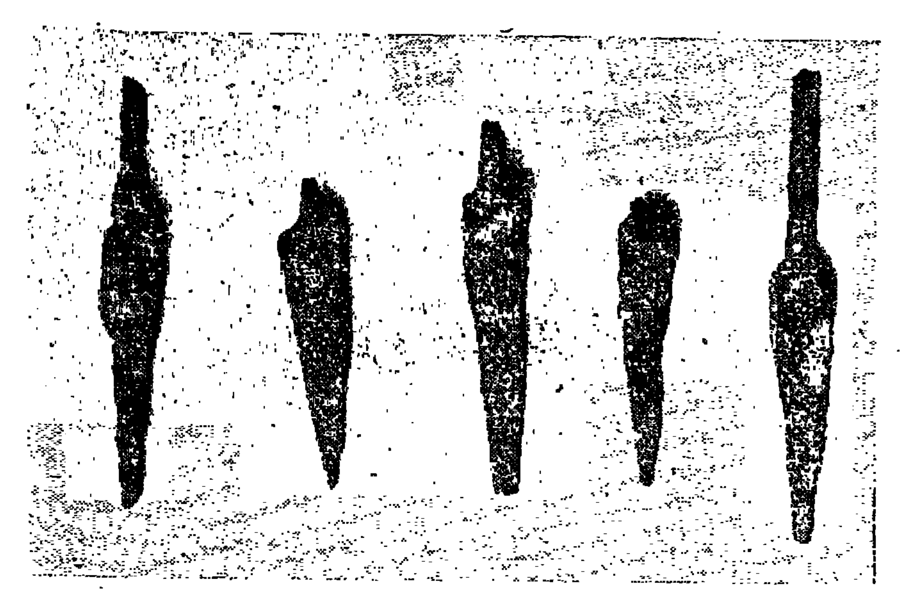
(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزى ، وإسحاق بن إبراهيم الجابرى ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمى ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهرى ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم[1] . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة فى مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين فى الموقعة ، أرقاما يطبعها نوع من الاعتدال ، بكونها تقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ فى التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن ردريك الطليطلى يقدر من قتل من المسلمين فى الموقعة بمائتى ألف ، وذلك من مجموع الجيوش الموحدية التى يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتلى المسلمين فى خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أرنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا فى نفس الوقت عن خسائر النصارى فى المعركة أرقاما لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران ردريك يقول لنا إنه لم يقتل فى الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر فى خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ، وأرنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزوا الخمسين ، ولاريب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم تملها سوى أثرة الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذى أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، فى مثل هذه المعركة التى التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لاريب ، ولم ينجحوا فى اختراق قلب الجيش الموحدى إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا فى المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، فى جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذى عاش

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وابن الأبار فى التكلة (القاهرة) فى التراجم رقم ٢٦٢ و ٥١٧ و ١٥٠٨ و ١٥٥٩ .



سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر فى بعض نواحى السهل الذى كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذى تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك فى الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك فى نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين[1] .

واستولى النصارى فى محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التى ظفر بها النصارى[2] .

---

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى فى أشباخ (الترجمة العربية) ص ٣٧٠ و ٣٧١ . وكذلك فى :

Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٣ — ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ —٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦—١٦٠ ، والروض المعطار ص ١٣٧ و ١٣٨ والنويرى (طبعة ريميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩) والحلل الموشية ص ١٢٢ ، —

وكان من أهم الغنائم الغنائم التى أحرزها النصارى خيمة الناصر الحريرية الموشاة بالذهب ، وعَلَمٌ موحدى ضخم مازال يحفظ حتى اليوم بين ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس ، لتعرض بها تذكاراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التى كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلَم الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكى بمدينة برغش[1] ، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ مترا وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها فى الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفى ذيلها دوائر نقشت فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التى كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التى تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذى يعرف به وهو « مُعلق معركة العقاب » Pendón de las Navas ، وكذلك الوصف الذى سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو فى موقعة العقاب »[2] .

— ٣ —

ولابد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التى أدت بالجيش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتنافر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدى قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التموين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة ، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية P. Crónica General (Ed. Pidal) P. 690 - 704. Huici : Las Grandes Batallas de la, Reconquista; p. 231 - 303 والمراجع . وكذلك أشباخ (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ — ٣٧٨ .

(١) واسمه بالإسبانية Real Monasterio de las Huelagas .

(٢) راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista, Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.

على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها فى تغير قلوب الموحدين ، وسخطهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطيتهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجند مرة فى كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر فى عهد الناصر ولاسيما فى هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجند أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لاغرض لهم فى الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقتر عليهم » ؛ ويقول لنا المراكشي فضلا عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسلوا سيفاً ولاشرعوا رمحا ، ولا أخذوا فى شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »[1] . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة فى المعسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسى الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أويستمع إلى عذره ، ومنها إهانة الوزير أبى سعيد بن جامع للقواد الأندلسيين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع فى نفوس الأندلسيين ، وفى تثبيط هممهم فى القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قلتهم العددية ، عنصراً هاما فى جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسبان ، وأكثر دراية بطريقتهم فى الحرب[2] . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره فى معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العُجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددى البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر فيما بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط فى لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناصر ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر فى العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لاغالب له من الناس ، فأراه

---

(١) المراكشي فى المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .



العلم الموحدى الذى غنمه الإسبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الملكى (لاس هويلجاس)

الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والحول والقوة بيد الله[1] .

وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التي يمكن تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أوالمغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية في شبه الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذى كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعضع سلطان الحكم الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة ، وانتثرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التي لانهاية لها ، والتي تذكرنا بعهد الطوائف. وضمن ذلك النصر الباهر الذى أحرزته الجيوش النصرانية المتحالفة فى هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد **La Reconquista** النصرانى المنظم ، الذى سوف يستمر من ذلك الحين فى اجتناء ثماره ، بانتزاع القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفى فترات قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفزع الذى سرى إلى الأندلس يومئذ ، وماكان يلوح لها من من شبح الفناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً فى الأدب والشعر . فمن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلى :

وقائلة أراك تطيل تفكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[2]

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد فى مقدور هذه القبائل أن تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد فى مقدور الدولة الموحدية أن تجدد مثل

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التى كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبى يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة فى مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً فى « هلاك الأندلس »[١] ، فإنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص ، بالخسارة الآدمية الهائلة ، التى وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الموقعة بالهزيمة العظمى « التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس[٢] ، أو التى خلا بسببها أكثر المغرب[٣] ، أو حسبما تقول لنا فى عبارة أوضح وأشمل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفنى خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع فى غزوة العقاب »[٤] . ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الموقعة المدمرة بالنسبة للأندلس فى قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »[٥] . وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق ، وقضت على كل عوامل التوطد ، التى أسبغها عليها المنصور بانتصاره فى معركة الأرك ، والتى تأيدت بإخماد ثورة بنى غانية فى إفريقية . ومما لاريب فيه أن تضعضع الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبنى حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة فى الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة »[٦] .

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول فى معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين فى الأرك ، بالرغم من عظمته ولمعانه ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكرى موقت ، استطاعت أن تنهض منه فى فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا فى أعقابه إلا بغزوات عابرة لمنطقة إسترامادورة ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٠ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .
(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .
(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .
(٥) ابن الأبار فى « التكملة » (القاهرة) ج ١ ص ١٠٢ .
(٦) الروض المعطار ص ١٣٨ .

ثم لمنطقتى طلبيرة وطليطلة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولوا أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ، ماكان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه الكارثة الفادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره فى رسالة رسمية ، وجهت من إشبيلية إلى حضرة مراكش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس ، وذلك فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول هذه الرسالة ، وهى من إنشاء الوزير الكاتب أبى عبد الله بن عياش ، وفيها يقص علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ، والأحبار النصارى بمعاونته وشد أزره ، وماكان من انضمام ملكى أراجون ونافارا إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصارى ، ويقول لنا إنه نشبت بين الفريقين فى الموضع المعروف « بالمرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ، وأرخصت الأرواح » . ثم يقول « ولكن الله أراد أن يمحص المؤمنين ، ويبلى الكافرين ، فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلبان ، والعاقبة المطلقة هى لأهل الإسلام والإيمان ، وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة الله كتائبهم ، لم تصب الحرب منهم أحدا ، ولا نقصت لهم عدداً . وهى الحروب قضى الله أن تكون سجالا ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول فى ختام رسالته : « وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ، وكفايات الله وافية ، فلا تهنوا فإنا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلا ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وعرفناكم لتكون عندكم هذه الوقيعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا أنه لم يدر للموحدين قتيل ، ولا أصيب منهم كثير ولا قليل والسلام »[1] .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التى يصفها صاحب الروض المعطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها فى نفوس أمته ، واستدرار عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

---

(١) راجع البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

— ٤ —

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفره العظيم فى موقعة العقاب أن يجتنى ثمار نصره باقتطاع ما يستطاع من الأراضى الإسلامية ، فاستولى فى أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية فى تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرّال (حصن العقاب) ، الذى كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلج ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتى بيّاسة ، وأبّدة ، اللتين لاتبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل . وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القريبة منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل بياسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت فى حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون فى النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائرهم ، فقبل ألفونسو وزميلاه ملكا أراجون وناڤارا هذا العرض ، ولكن الأحبار عارضوا فى تنفيذه ، وأصروا على تسليم المدينة بلاقيد ولاشرط ، فنزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبى من أهل أبّدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف[١] ، ويقول لنا المراكشى ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبى وفصل هو وأصحابه من السبى من النساء والصبيان ، بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة[٢]. ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خرابا يبابا .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضع مراحل ، وكان من الطبيعى أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة ،

---

(١) راجع أشباخ — الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :
. Huici : Imperio Almohade, Vol. II p. 427

(٢) المعجب ص ١٨٤ .

ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته ، فى تلك الظروف التى انهار فيها خط الدفاع الأمامى بالأندلس . ولكن مصاعب التموين كانت تتفاقم ، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التى غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى فى قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة فى موكب ملوكى ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر ، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يوليه ، وهو اليوم الذى تحقق فيه النصر ، عيداً قومياً يحتفل به فى طليطلة وسائر أنحاء قشتالة ، ويسمى عيد « ظفر الصليب » .

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله ، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة فى آخر لحظة ، حسبما أشرنا من قبل ، سار إلى جيّان ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها فى أيام قلائل ، فى أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة ، إلى قواعد المغرب والأندلس . ولبث مقيما بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام ، وهو لايحرك ساكنا ولايبالى بأمر ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، قافلا إلى حضرة مراكش ، وماكاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبى يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس ، وذلك فى أواخر شهر ذى الحجة سنة تسع وستمائة . ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره ، واحتجب عن الناس . يقول صاحب روض القرطاس : « وانغمس فى لذاته ، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً » أى صباح مساء . وفى أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠هـ ، مرض الناصر ، وتوفى فى مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان (٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣م)[1]. وقد اختلف فى أسباب وفاته ، فقيل إنه توفى غما وألماً من آثار نكبته فى العقاب[2] . وقيل إنه توفى من عضة كلب[3] ، وقيل إنه مات مسموماً ، بتدبير بعض وزرائه ، ممن خشوا من نقمته وانتقامه ، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم ودسائسهم ، فأغروا

---

(١) اختلف فى يوم وفاته ، فذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويرى — طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠) ، وذكر أنه اليوم الحادى عشر (روض القرطاس ص ١٦٠) . ولكن المراكشى وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته فى يوم الأربعاء العاشر من شعبان (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ . (٣) الروض المعطار ص ١٣٨ .

بعض جواريه بوضع السم له فى قدح من الخمر فمات من حينه[1]. ولكن المراكشى وهو فى ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة، لمعاصرته لتلك الحوادث؛ يقول لنا إن أصح ما بلغه عن وفاة الناصر «أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان، فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك، وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠، ودفن يوم الخميس، وصلى عليه خاصة الحشم»[2].

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحدين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة، وكان أهم تلك الأحداث أولا تحطيم ثورة بنى غانية فى إفريقية، وهو ألمع حادث فى عهده، ويقترن بذلك فتح الموحدين لميورقة، وثانيا نكبة العقاب المشئومة التى هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس. ولم يكن ثمة فى بداية عهده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار، الذى انتهى إليه فى فترته القصيرة، بل كانت صولة أبيه العظيمة، وذكريات نصر الأرك الباهر، مازالت تظلل الخلافة الموحدية. وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة، وأبدى همة ظاهرة فى إدارة الشئون وتنظيم الإدارة، ومطاردة الفساد، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين، ولكنه لم يتذرع فى ذلك بالروية وبعد النظر، بل كان يغلب فى ذلك النزق والاستبداد. وكان الناصر فى البداية، وهو مايزال فى شرخ فتوته يسترشد بآراء أشياخ الموحدين، فى تسيير الشئون الكبرى، ولاسيما بآراء الشيخ أبى محمد عبدالواحد بن أبى حفص، وفقاً لوصية أبيه المنصور، ولكنه لما اشتد ساعده، استبد بالأمر، ولم يعد يقبل نصحاً أومشورة من أحد، حتى أنه رفض نصح الشيخ أبى محمد عبد الواحد، حينما استشاره فى شئون الأندلس، بألا يسير إلى غزوته الكبرى، التى انتهت بنكبته فى موقعة العقاب. ولم يقع فى عهد الناصر شىء يذكر من الأعمال الإنشائية، التى امتاز بها عهد أبيه وجده، ولم يكن الناصر على شىء خاص من أنواع العلوم أوالمعرفة، ولم يجتمع فى بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين، الذين اجتمعوا حول أبيه، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين؛ الذين عرفناهم فيما تقدم، مثل أبى العباس الجراوى، ووزيره خالد اللخمى وغيرهما.

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣، وروض القرطاس ص ١٦٠.

(٢) المعجب ص ١٨٤، ونقله النويرى (طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠).

وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر فى قوله : «كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ، حليما ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه ، إلا أنه كان بخيلا»[1]. ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف فى غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه فى سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس «إنه كان كبير الهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبد فى أموره وتدبير مملكته بنفسه»[2] وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر فى البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن على بن أبى عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والجند ، ثم عزله الناصر ، ووُلّى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدى ابن تومرت حسبما سبقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقى قاضى أبيه ، ثم أبوعبد الله محمد بن مروان ، فلبث فى منصبه حتى توفى فى سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه فى القضاء أبوعمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشطراً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بنى عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبوعبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى .

وكان من كتاب جيشه أبو الحجاج يوسف المرانى وهو أندلسى من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولى عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفى فى حياة أبيه فى سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

---

(١) المعجب ص ١٧٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

الكتاب الثامن

الدولة الموحدية

فى طريق الانحلال والتفكك

الفصل الأول

عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

وأوائل ظهور بنى مرين

يوسف المستنصر يخلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدعة . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق والى غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة الفاطمى العبيدى . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة فى طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواعث إيثار قشتالة للسلم . طلائع بنى مرين عند أحواز فاس . أصول بنى مرين ومنازلهم . انتسابهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعهم مع القبائل الخصيمة . اللقاء الأول بينهم وبين الموحدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم فى الجهاد مع الموحدين . انحلال قوى الموحدين عقب موقعة العقاب . نهوض بنى مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشعلة . هزيمة موحدية أخرى فى رباط تازة . الخلاف بين بنى مرين . خروج بنى حمامة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بنى حمامة . أبو سعيد عثمان يتولى رياسة بنى مرين . حوادث الأندلس . مهاجمة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى للثغر . مبادرة الموحدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقاصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها فى أيدى النصارى . أحوال المغرب فى هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد الهادن بين الموحدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحدى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر المفاجئ . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين فى ذلك . أحوال المغرب حسبما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلاله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، فى العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلى مستمر على انتزاع العرش ، وتنتثر أسرة بنى عبد المؤمن الشامخة ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتثر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهار قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، فى معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحلة فى الأندلس بالأخص ، طابعاً مشؤوماً ، لم يسبق للأندلس أن نكبت بمثله ، فتغدو من جديد مسرحاً مضطرما للحرب الأهلية ، أولا فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش ، وثانيا فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفى خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصاير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصاير الأمة الأندلسية كلها.

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، فى اليوم التالى لوفاته ، فى الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣م) وأمه حرة ، هى فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر[١] . وكان المستنصر حين ولايته فتى فى السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ[٢] ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان فى العاشرة من عمره[٣] ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هى رواية المؤرخ الموحدى المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون[٤] .

وكان يوسف المستنصر فتى وسيما ، حسن القد ، جميل المحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ فى بنى عبد المؤمن أحسن وجها منه ، ولا أبلغ فى المخاطبة[٥] . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عوده من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهنتاتى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

---

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) ، وبالثانية المراكشى (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هى رواية ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ح ٢ ص ٤٣٤ .

عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء النفر من القرابة والأشياخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبي وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة يومى الخميس والجمعة ، الحادى عشر والثانى عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشى ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيّاش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تُبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين . هذا ما له عليكم . ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وأن لايدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وأن لايحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلد من أموركم» . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة[1] . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقب أيضاً بالمنتصر بالله[2] .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . ولكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصلت بيعته فيما بعد[3] .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥ هـ ، ثم عُزل وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجى . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعنى ابن عمة المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش .

وكان الخليفة الجديد ميالا إلى حياة الدعة والبطالة مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب[3] لايعنيه شىء من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لا يمكن من العناية بشىء منها . وكانت الأمور تجرى وفقاً لما يراه ويبرمه الأشياخ

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن على .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمير الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى . وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة فى آخر عهد الناصر ، بمنشآته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجلها القصر الذى أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شنيل ، وهو القصر الذى عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولى حكم غرناطة فى عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلل الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة فى سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلا للضيافة الملوكية ، ومازالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، فى ضاحية غرناطة المسماة « أرملة »[1] .

وولى على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر فى قصبتها ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذى أنشأ البرجين على باب المهدية ، وأنشأ باب سبتة الحديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها[2] .

وكان أول حادث ذو شأن وقع فى ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمى العبيدى . وقد روى لنا المراكشى قصة هذا الدعى كاملة ، وقد عرفه

(١) راجع فى ذكر « قصر السيد » ووصفه ، الحلل الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و٥٦١ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٣ و١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .

واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بنى عُبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قُبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل فى سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل فى سجنه إلى أن تحرك الناصر إلى إفريقية فى سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجى ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكينة ، وألا يشتغل بأى أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعى ما كاد يسترد حريته ، حتى غادر مراكش إلى بلاد صنهاجة ، وهنالك التف حوله كثيرون ممن جذبتهم دعوته ، وكانوا يعظمونه ويبجلونه . يقول المراكشى « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين ، فلم أر فى أكثر من شهدته من المشبهين بالصالحين ، مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل فى جموعه متجهاً صوب مدينة سجلماسة ، فخرج إليه واليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العُبيدى ، واضطر أن يرتد فى فلوله إلى سجلماسة ، ومازال العبيدى يتنقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر فى مكان ، أوتثبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشى « غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يُرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقُبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر يأمر بقتله وصلبه ، فضُرب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراكش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمتغلبين[١] .

ويضع ابن عذارى تاريخ ثورة العبيدى فى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، ويقول إنه قام بثورته فى بلاد جزولة ، من إقليم السوس ، وكان يزعم أنه فاطمى من ذرية عبد الله الشيعى ، ولم يزل يبث دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس[٢] . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشى ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٨٦ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو ينفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفى نفس هذا العام ، سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م) وصل إلى مراكش إبراهيم ابن الفخار اليهودى وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدى فى شأن التهادن وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبى الربيع والى جيان ، والثانى إلى الشيخ أبى العباس بن أبى حفص والى قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التى اتفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالى نيابة عن مليكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام[1] .

ويجب لكى نفهم البواعث التى حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما تمض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق فى معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفى ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر فى فى معركة العقاب ، فى أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنرى (إنريكى) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قلائل ، فخلفتها فى الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المُطلّقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أى ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضى للأتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة (برنجيلا) . وسارت الأمور فى قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفى الملك الصبى هنرى بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك فى يونيه سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستقدام ولدها فرناندو وهو الذى رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهنالك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت فى الحال عن العرش لولدها

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٤ .

فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة (أول يوليه سنة ١٢١٧ م) وهذا الملك الصبي ، هو الذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس[١] .

وفضلا عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت ماتزال متفشية فى معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسالمة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، تستطيع خلالها أن تنظم شئونها ، وأن توطد عرشها ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وقع حادث ضئيل فى ظاهره ، كبير فى مغزاه ، ونتائجه المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرين فى أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينتزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زناتة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونه ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين ، كمعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولا شامخة ، يُرجعون نسبتهم إلى العرب . وقد رأينا أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبتها إلى العرب اليمانية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدى ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مرين ، فيقولون إنهم من ولد بربن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدّر ابن يخفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيك ابن واسين[٢] . وكانت منازل بنى مرين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلومى

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

(٢) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ .

وبنى يادين بن محمد فى المغرب الأوسط ، مابين وادى ملوية شمالا وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بنى مرين وجيرانهم من بنى يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان على بنى مرين ، لكثرة خصومهم من بنى يادين ، وكان بنو مرين كمعظم البطون البربرية فى تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون فى هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا فى ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لمحمد بن وزير ابن فكوس بن كرماط بن مرين . ولما توفى محمد قام بأمر بنى مرين من بعده أكبر أولاده حمامة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفى قام مكانه فى الرياسة ولده أبو يكنى الملقب بالمخضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المومن إلى تلمسان فى أثر تاشفين بن على ، ليخوض معه المعركة الحاسمة (٥٣٩ هـ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة ، فمزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلومى وبنو بادين وبنوعبد الواد إلى الطاعة . ولكن بنى مرين لحقوا بالصحراء فى اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال لمتونة وذخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنو مرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانتزعوا الغنائم من أيدى الموحدين . فحشد عبد المؤمن أولياءه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين فى مكان يعرف بفحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم المخضب بن عسكر ، وذلك فى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥ م) . ولجأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون الفرص .

وقام بأمر بنى مرين بعد المُخضب بن عسكر ، ابن عمه أبو بكر بن حمامة ابن محمد . ولما توفى فى سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل فى

— و١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلا لكيفية تحول نسل برين قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

(١) الذخيرة السنية ص ١٨ و١٩ .

رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشتركت معه منهم جماعة كبيرة فى موقعة الأرك ، وأبلوا فيها البلاء الحسن (٥٩١ هـ — ١١٩٥ م) ، وأصيب عميدهم محيو فى المعركة بجرح توفى منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه فى الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بنى مرين يبزغ فى الأفق[١] .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفنى معظم الجيوش الموحدية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، فى معظم العمالات والأطراف . ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بنى مرين . ولما توفى الخليفة الناصر ، وخلفه ولده الصبى يوسف المستنصر ، وشغلته نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والتراخى ، على السادة والأشياخ ، فى مختلف النواحى ، لاح لبنى مرين أن فرصتهم قد سنحت. وكانوا لايأوون إلا إلى القفار ، ولايخضعون لأى حكم ، ولايؤدون الجزية لأحد ، ولايعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والخيل[٢] . وكانت منازلهم ما تزال فى جنوبى وادى ملوية ، وكانوا يترددون فى تلك الأنحاء ، ولاسيما فى المنطقة الممتدة مابين وادى ملوية ومكناسة ، ويأنسون بمن بها من عشائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم فى القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعضع الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشهدوا ، اعتزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنفذوا إلى نواحى المغرب المجاورة ، واكتسحوا بخيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراكش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا على بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم إسماعيل والى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بنى مرين ، وأن يثخن فيهم وأن يستأصل شأفتهم ، وكان بنو مرين حينما عاموا بأمر هذه الأهبة قد اجتمعوا وتشاوروا ، واتفق رأيهم على التأهب للحرب والنزال ، فتركوا أموالهم وحريمهم فى حصن تاروطا بأرض عمارة ، وساروا جنوبا صوب فاس ،

---

(١) ابن خلدون فى العبر ج ٧ ص ١٦٧ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٢٣ .

وكانوا فى نحو أربعمائة فارس غير الرجّالة ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبى إبراهيم ، وكانوا فى عشرين ألف مقاتل أو فى عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى. والتقى الفريقان بوادى نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يستّرون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتّى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمى هذا العام (سنة ٦١٣ هـ) بعام المشعلة[١] ، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم فى خارجها سوقاً لبنى مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار المثلث الطلب ، وخرج فى جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محلته . فكان ثانى نصر لبنى مرين على الموحدين فى ظرف بضعة أشهر[٢] .

ثم وقع الخلاف بين بنى مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يتزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يتزعمها بنو حمامة بن محمد ، وقد كانت الرياسة فى البداية فى بنى عسكر ، ثم انتقلت إلى بنى حمامة ، فغص بذلك فريق بنى عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبى محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفى سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بنى عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بنى حمامة فى وادى سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمامة فى البداية ، وقتل أميرهم عبدالحق وولده الأكبر إدريس ، فاضطرم بنو حمامة سخطاً ، واستجمعوا قواهم ، وحملوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جموعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . (جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ) . وقام برياسة بنى مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق ، ولده أبو سعيد

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و٢٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ — ٢٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٣١ و٣٢ .

عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرها[١] .

* * *

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقى الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصرانى ، فقد ثغر القصر أو قصر أبى دانس[٢] ، وهو أمنع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب . وكانت القصر قد سقطت فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ (يونيه ١١٩١ م) ، وولى عليه أبا بكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرقى أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . ففى أوائل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) وصل إلى شواطىء البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة (لشبونة) ، فانتهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يوليه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغرهم ، وبادر واليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد واليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريخه إلى بلاط مراكش ، فبعث المستنصر إلى ولاة قرطبة وإشبيلية وجيّان وولاة الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ٣٢ — ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) وهى بالبرتغالية Alcácer do Sal

وسارت الجيوش الموحدية المجتمعة صوب القصر ، فوصلت إليه فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين فى ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت فى نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى .والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون فى الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجّالة وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكادوا يرون النصارى حتى أدركهم الرعب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردهم النصارى وقتلوهم عن آخرهم[1] ، ويقول صاحب الروض المعطار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم[2] .

ويضع ابن الأبار تاريخ الموقعة فى شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ (أغسطس ١٢١٧م) ، وفى موطن آخر فى أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلا عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين بتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الموقعة كانت « إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس »[3] .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا ثلم الأسوار ، صنعوا برجين عاليين من الخشب ، يضارعان فى ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوهما بالرماة ، وركبوا فى جوانبهما آلات الرمى ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل فى الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم . وسلمت المدينة بعد أن لم تبق أية وسيلة

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المعطار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى فى الحلة السيراء ص ٢٤٢ . والثانية فى التكملة (القاهرة) ج ٢ فى الترجمة رقم ١٥٧٧ .

للدفاع ، وذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م (١٤ رجب ٦١٤ هـ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقصر أبى دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضياع المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة وميرتلة وشلب. ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثانى (ألفنش) ، وهو لم يشترك فى حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة ؛ ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلتهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق[1] .

ومن الغريب أن ابن عذارى، وهو فى معظم ما يكتبه، يقظ متنبه للأحداث، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره فى سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا فى حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها فى سنة ٦١٤هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب .

ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هى قاصرش[2]. وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالى ماردة وغربى ترجالُه ، وذلك لكى يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التاجُه فى شمالها الغربى ، والذى كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها فى شهر نوفمبر سنة ١٢١٨م (٦١٦ هـ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفى سنة ١٢٢١ م (٦١٩هـ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »[3] الإسلامية . وفى العام التالى ، اشترك فرسان شنت ياقب

---

(١) راجع فى سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المعطار ص ١٦١ و ١٦٢ وكذلك : A.Huici : Historia Politica del Imperio Almohade, p. 442 & 443

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres

(٣) هى المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غربى قاصرش ، وهى طبعاً غير ثغر بلنسية الكبير ، فى الشرق .

وملك ليون فى حصار قاصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد فرفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفى الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش بمعاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم ، وذلك فى صيف سنة ١٢٢٣ م (٦٢٢ هـ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التى لايروقها الكف عن محاربة المسلمين تتربص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، ردريجو خمينث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضى الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل فى زحفه إلى بلدة ركّانة الواقعة غربى بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركّانة فضربوها بالمجانيق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢١٩ م (٦١٧ هـ) .

* * *

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير فى العاصمة الموحدية رتيبة راكدة ، وبلاط مراكش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة الفتى يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشىء ، ولم توقظهم نهضة بنى مرين وفورتهم الخطيرة ، التى لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا فى العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ، وقد هلكت الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلا . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب فى هذا الوقت صورة قاتمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبذ أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف فى الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل

البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء[١]. كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لاتفكر فى اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت المجاعة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب فى تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالأندلس فى العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى[٢] .

وفى هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والأندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المومن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن ننقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لايبور ، والطريق الذى لايجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابح ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهد الذى لايجب فيه التغيير والخلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، ونحفظ مراسمها ، ومن جملتها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لاتضاع ولاتهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علنا ، وكونوا فى القيام به لاتخالفون يقظة ، ولانوماً ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل التام، والإنصاف العام ، وكف الأيدى ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معينكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة »[1] .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آبائه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والمحافظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) ، قدم سفير قشتالة إلى مراكش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلم . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالة فى سنة سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصيلة فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه ننقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم ، بما تعرفونه فى السلم المنعقد ، النير شهابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

من الإتحاف ما يبلغكم على يديه ، الذى هو عنوان الخالصة ، وثمرة المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغى أن يكون متقبلا ، وعلى أحسن المتأولات متأولا ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذاية المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة »[1] .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعادل فيما بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١م) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فتى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاخب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فيقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيل ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربيها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر فنشيا (مهرا) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنيها بعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ (٤ يناير ١٢٢٤ م)[2].
ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هنالك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقله إلينا الزركشى عن « ترجمان العبر »[3] .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشىء من الخلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٦ (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .
(٣) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرة والقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذيوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفتور همم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن ثمة شك فى أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن بدبيب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذى لابد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلما أصاب الدولة ، فى عهد المستنصر بالله .

وإنا لنقرأ فى وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفى تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فمثلا يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولاغزوة ، ولاخرج من حضرته إلا لمدينة تينملل ، على العادة فى التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت فى بعض الرسائل ، والله يؤتى ملكه من يشاء »[1] .

ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراكش طول خلافته إلى أن توفى ، وكانت أوامره لا يتمثل ، أكثرها لضعفه وليانته ، وإدمانه على الخلاعة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »[2] .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده (أى بعد الناصر) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الحزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريحهم »[3] .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل فى تلك الفقرة التى يوردها ابن عبد الملك المراكشى ، فى ترجمة أبى الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٧ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .

الأحوال فى المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :

« واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبيل زمانا ، والمستنصر فى غفلة عن كل ما يجرى ، غير سايل عن رعيته التى يسئل عنها ، وإن بدر منه سؤال عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع فى سبوغ نعمه ، وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى انهماكه فى لذاته . وأهمل مع ذلك جانب الأجناد الذين هم آلة الملك وأعوانه ، فأرجل فرسانهم ، وصرفت رجالتهم ، فتفاقم الأمر ، واستشرى شرى المفسدين وكثر أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تمادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ، أجرى أبو الحسن (المترجم) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبى سعيد ، وأشار عليه بإنفاذ جيش إلى بعض نواحى مراكش لردع من نجم من أهل البغى . فأجابه بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض إلى أرضهم ومرافقهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا »[1] .

فى تلك الفقرة ، التى يقدمها إلينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو أصدق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهى صورة تنطق بنفسها ، عما يمكن أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التى تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا فى نفس الوقت بعض نصوص تقدم إلينا المستنصر ، هذا الفتى المتعطل المستهتر ، فى صورة أخرى ، هى صورة الطاغية القوى المستبد ، الذى يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا فى ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد عيان ، هو عبد الواحد المراكشى ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله ، خلا أنى رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة ، قد مُلِىء قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع »[2] .

---

(١) كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (السفر الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩) فى ترجمة على بن محمد بن عبد الملك بن سماحة الحميرى الكتامى ، أبى الحسن بن القطان .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة فى بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول فى حديثه عن المستنصر : « فضعفت دولة الموحدين فى أيامه ، واعتراها النقص، وأخذت فى الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأمـــره ونهيه ، واستبد بملكه ، جعل يفرق أعمامه ، من حواليه الذين كانوا يدبرون أمر دولة وأقاموها ، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها »[1] .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التى استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها ابراهيم بن جامع من أصحاب المهدى، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر ، واستوزر من بعده أحد القرابة ، وهو زكريا بن يحيى بن اسماعيل المزرجى ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر ، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك فى أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتبا أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش، ولما توفيا متعاقبين فى شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبوعبد الله محمد ابن يخلفتن الفازازى، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقى كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، فى منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر ، مبشر الخصى حاجب أبيه ، ولما توفى خلفه فى الحجابة فارح الخصى المعروف بأبى السرور ، واستمر فى الحجابة حتى وفاة المستنصر.

وتولى القضاء للمستنصر ، أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، فلم يزل فى منصبه حتى نهاية عهده، وهذا القاضى هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضرير صهر عبد المؤمن .

ولم ينجب المستنصر ولدا ، ولم يعقب إلا حملا من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره[1] .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .   (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

الفصل الثانى

أبو محمد عبد الواحد والعادل

وثورة البياسى بالأندلس

ولاية الخليفة أبى محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبى محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعادل . انضمام إخوته ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبى محمد عبدالله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبى زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته فى مراكش . مصرع الخليفة أبى محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبى العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تخاذل أبى العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مغادرة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه فى ذلك . تفاقم الحوادث فى الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين فى أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة. محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى. افتتاح القشتاليين للقبذاق وباغة . غزوهم للوشة والحامة . محاصرتهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية. خروج أبو العلى إدريس فى الموحدين لمدافعته . هزيمة الموحدين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرقى إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبى العلى لقتاله . هزيمته وتمزيق جموعه . عود بلاد شرقى إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبى العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى. مطاردته ومصرعه وانهيار ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنجاد أهل بياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على شوذر ومواضع أخرى. مسير السيد أبى العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال فى المغرب . عيث الخلط وهسكورة فى أحواز مراكش . خروج أبى العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذه لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحدين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدولهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر. تلقب يحيى بالمعتصم . غضب المأمون واعتزامه العبور إلى العدوة .

لما توفى الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب فى يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحدين ، وفى مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1] ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً فى هدوء ودعة . ويقول لنا المراكشى ، فيما بلغه ، أنه لما توفى المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز (عبد الواحد)[2] . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بويع فى اليوم التالى لوفاة المستنصر ، أعنى فى يوم الأحد الثالث عشر لذى الحجة ، ويبدو فى نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولا لكى يكون أداة مطواعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكى تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقى .

ويقدم إلينا المراكشى ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهى صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، كانت قد سبيت هى وأمها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبى يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم ابراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبث عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأسند إليه ولاية مالقة ، وذلك فى سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها فى سنة ٦٠٣هـ ، وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فاستمر فى ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بويع السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها[3] . وكان حسبما يصفه لنا المراكشى عن علم ومشاهدة ،

---

(١) وفى الحلل الموشية أن كنيته « أبو مالك » ص ١٢٣ .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٢ .

رجلا ورعا صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دؤوباً على تلاوة الأوراد ، لايمنعه عن ذلك مانع ، ولايترك وظيفة من الوظائف التى رتبها لنفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشى : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولمن علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشى بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء »[1] .

وتمت بيعة السيد أبى محمد عبد الواحد فى جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد فى المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الجديد لقباً خلافياً كأسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالمخلوع » لأنه كان أول من خلع بنى عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان فى مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرقى صاحب المخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبى العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفى قبل استئناف ولايته ، وأمر باطلاق سراح الوزير السابق أبى زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة[2] . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ وسجن فى حصن جنجالة ، فبقى فيه حتى توفى ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه[3] . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الجديد ، لا فى المغرب ولكن فى جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى فى شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضده بيعته فى شرقى الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبى محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، واليا لمرسية . وكان إخوته أبو العُلى (أبو العلاء) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبا زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه :

---

(١) المعجب ص ١٨٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) الروض المعطار ص ٦٧ فى مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبى محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبى محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له إنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعنى الناصر) فعبد الله ، وأنه أى عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بنى جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذى رأى ومقدرة ، وأخيراً فإن له من وجود أخوته الثلاثة فى رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد[1] . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبومحمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعادل ، وكان ذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبى محمد عبد الواحد ، وبايعه إخوته ولاة قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بايعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذى عرف فيما بعد بالبيّاسى ، لقيامه فيما بعد ضد العادل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبى الربيع بن أبى حفص ، فانتقض عليه وبايع للعادل[2] . وفى رواية أخرى أن عبد الله البياسى كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية[3] . وعلى أى حال ، فقد استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بلنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع واليها السيد أبو زيد بن أبى عبد الله محمد أخو البياسى عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العادل من مرسية وبصحبته وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ فى تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستئثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر فى شئون العودة . وهنا يحيق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس.

---

(١) الروض المعطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٨ .

فنى رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراكش وبلاد المغرب. وفى رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بجزيل الصلات ، ورفيع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضى والفقهاء والأشياخ، وكان ذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنقوه ، ونهبوا قصره، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بنى عبدالمؤمن(١) ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولا ، وبادروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب. ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل(٢).

— ١ —

وفى أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، واتخذت وجهة جديدة لم تكن فى الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر فى تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاطه وبياسة ، وسائر أراضى تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ابن المنصور ، فى قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبى محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها . وسمى من ذلك التاريخ بالبياسى ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذى يتقاضاه الملوك النصارى نظير هذه المعونة ، فقد كان دائماً قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ و١٦٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سنرى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبى العلاء على بيّاسة فى أواخر سنة ٦٢١ﻫ (أواخر سنة ١٢٢٣ م) ، ونزلوا فى ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشى أن يفيض النهر (الوادى الكبير) فيتعذر عليه العبور عند العودة ، وخشى كذلك أن يداهمه القشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكتفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئاً من مهمته ، فقوبل فى إشبيلية بمنتهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والجبن[1] . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبى المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه القشتالين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ؛ وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقى البيّاسى فى بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبتها[2] .

وهنا يحيق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع فى تلك الآونة أن يبسط سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف فى طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقراً بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعطار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لوساعده القدر »[3]. وعلى أى حال

---

(١) الروض المعطار فى مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض المعطار ص ٥٨ .

فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعادل ، يكاد ينتزع الأمر منه .

وكان العادل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ، فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فى أراضى الشّرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى للملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الشارات ، وسارت جنوبا حتى وصلت إلى أراضى الشّرف ، وعاثت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، وألفى العادل ، وأخوه أبو العلاء ، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين ، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وحماية المدينة مما قد يصيبها . ووقع الهرج بين أهل المدينة ، واجتمع الناس خاصّتهم وعامّتهم بالمسجد الجامع ، وطالبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة[١] وهى تقع غربى إشبيلية على مقربة من لبلة ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الأهبة والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعبث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فتطاولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأفنوا الكثير منها قتلا وأسراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ (مايو ١٢٢٤ م)[٢] .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتى وقعت فى شرقى الأندلس غزوة نصرانية مماثلة ، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة ووبذة والأركون وموبا ،

---

(١) وهى بالإسبانية Tliata

(٢) ينفرد صاحب الروض المعطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية (ص ١٢٨ و ١٢٩) .

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة ألبرو تليس اخترقت وادى شُقَر جنوباً حتى أراضى مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبى على ابن أشرقى ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والفوضى ، فنشبت بينهم وبين النصارى ، فى مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرقى مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٦٢٢هـ (يوليه ١٢٢٤م) ، وفى ذلك يقول شاعر مرسى ، مقارنا بين موقعتى عفص وطلياطة :

موقعة عفص وطلياطة　　تكامل إقبـــال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذى　　أناخا على شم أعلامنا[1]

— ٢ —

فى ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد، قد خُلع ولقى مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكى يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجهم فى الأندلس ، على أثر فشله فى التغلب على البياسى ، وفى رد النصارى عن أراضى إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٢ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٤ م)[2] . والظاهر أنه لقى فى طريقه إلى مراكش صعابا من تعرض العربان وغيرهم إليه .

ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

---

(١) راجع الروض المعطار ص ١٣٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ١٢٩. ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذى يقدمه إلينا صاحب الروض المعطار لعودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذارى أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر فى هذا اليوم . وفى اليوم التالى أشهده على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلعه (البيان المغرب ص٢٤٧ و ٢٤٨) ومعنى ذلك أن العادل هو الذى قام بخلع عبد الواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبى حريمه . وهذه الرواية التى ينفرد بها ابن عذارى ، تبدو فى نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويستفاد ذلك فضلا عن قول صاحب الروض المعطار ، من قول ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٣٤) ، وصاحب الحلل الموشية (ص ١٢٣) وصاحب روض القرطاس (ص ١٦٣) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ الغزيرى) لوحة ١٥٤ .

ابن أبى محمد بن أبى حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أو الأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل فى وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن على ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبى شنترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يبدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل فى نحو سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاما . ولقبه الكامل هو « العادل فى أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أقنى الأنف ، خفيف العارضين[١] . وكان العادل من خيرة بنى عبد المؤمن ، فاضلا وقوراً ، كبير النفس ، عالى الهمة ، من أهل العلم والمعرفة[٢] .

وتولى العادل حكم غرناطة فى سنة ٦١٩ هـ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبو محمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبى زيد والى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبدالله صاحب جيّان ، وهو المعروف بالبياسى . وأما فى المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بنى حفص ولاة افريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الخطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم .

وكان فى مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتابا يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أوردلنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة ننقل منها ما يلى : .

« وها هم بحمد الله (أى الموحدين) قد انتظم شملهم ، واتصل حبلهم ، واجتمعت أهواءهم ، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى يمضى عزائمهم ، ويجبرهم

(١) روض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال المشار إليه) لوحة ٥٤ ا .

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم »[١] .

والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، فى حالة اضطراب مروع ، تتجاذبها تيارات جارفة ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العُلى إدريس فى إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، مذ أعان العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فى أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية . وكان البياسى ، قد لجأ حسبما تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايا هذا التدخل فى فى حوادث الأندلس ، وفى حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغانم سياسية ، وإقليمية جليلة ، فلبى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدنية قيجاطة[٢] الواقعة جنوب شرقى بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه فى خريف سنة ١٢٢٤ م (أواخر سنة ٦٢٢ هـ) ، واخترق أراضى أبّدة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر ١٢٢٤ م) . واستولى القشتاليون فى نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا فى أراضى جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة (أكتوبر ١٢٢٤ م) . ثم ارتد ملك قشتالة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Quesada .

فى قواته مثقلا بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادى الكبير عائداً إلى بلاده[١] .

وفى صيف العام التالى ، أعنى فى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجبال سيرّا مورينا (جبل الشارات) ونزل فى سهل العقاب ، على مقربة من شمالى بياسة ، وبعث إلى البياسى يستدعيه ، فهرع البياسى إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتُش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت فى يده ، وكذلك سائر الحصون ، التى يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، فى أراضى المسلمين ، وسلم البياسى ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كفالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يقدم إلى البياسى المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها[٢] .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه البياسى إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضى التى يمر بها ، خلا تلك التى يسيطر عليها البياسى . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمنع قاعدة فى تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة فى منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدية قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصارى بقيادة ألبار بيريث دى كاسترو ، وكان مثل أبيه يعمل فى خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصارى ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم فى معركة قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسر نحو ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبثوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم فى كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة ، وأن يرحل عنها[٣] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المعطار ص ٦١ وكذلك :
J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ; cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 38 .

(٣) J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40 .

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه البياسى إلى القبذاق[١] ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوبا نحو باغة[٢]، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغه على ضفة نهر شنيل . فاقتحمها وفتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، الفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالا صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسّط أهلها ألبار بريث ليفاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفا وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالا ، حتى اقترب من بياسة ، وهنالك قام البياسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهده الذى أخذه على نفسه[٣].

وكان البياسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فما كاد فرناندو الثالث يختتم غزوته فى أراضى المسلمين ، حتى سار البياسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً[٤] صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهنالك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحص القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين[٥] وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقا بين اشبيلية وقرطبة لسلطان البياسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حينما رأوا تفوق البياسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم للبياسى .

وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبر بقواته إلى أراضى

---

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية Priego .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٦١ و١٦٥ و١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit Crónica Latina p. 42

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروض المعطار ص ٥٨ .

الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسى إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التى يرغب الاستيلاء عليها فى منطقة قرطبة ، فوعد البياسى بأن يسلمه حصون شلبطرّة، وقبالة، وبرج الحمة[1]، وارتضى أن يسلمه قصبة بياسة كفالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقى المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسى جهده فى تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة ، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه[2] .

ولم يقنع البياسى بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحى الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبى العلاء ، فسار فى قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقائه فخرج إليه فى حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسى ، ومزقت جموعه ، وارتد فى فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ، فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م[3] .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسى ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرقى إشبيلية عن طاعة البياسى ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل[4] وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئه فيه بهذا النصر ، ومما جاء فى الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

---

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Banos de la Encina, Capilla ، وتقع الأخيرة شمالى اندوجر .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47

(٣) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لايتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلية ، أحد عداتها وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعماء ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوه عقيراً ، أو يستثبتوه أسيراً إن شاء الله تعالى، وكتب فى ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وستمائة » .

وهنا خرج فرناندو الثالث فى قواته مرة أخرى ، وكان هدفه فى هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة[١]، وهو من حصون الحدود الواقعة فى شمالى قرطبة، وشمالى جبل الشارات ، وكان قد تعذر على البياسى ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان البياسى قد وصل فى تلك الأثناء إلى قرطبة منهزما مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه فى محالفة النصارى ، وإسرافه فى تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعتزموا الفتك به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر البياسى بخطورة الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدوّر الواقع جنوبى النهر على مقربة من جنوب غربى قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه فى الحصن، ثم اقتحموه ، وقتلوا البياسى ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمراكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية[٢] ، وكان البياسى عند مصرعه شيخاً قد جاوز الستين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى بالبياسى ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة فى شرقى قرطبة وفى شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً فى إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتمهيد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، البياسى ، فى صور بغيضة قاتمة[٣]. ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

---

(١) وبالإسبانية Capilla .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ٥٩ .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٥٨ و ٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطماعه الوضيعة ، شخصية بغيضة مثيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسى الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد فى الروايات النصرانية مايؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

— ٤ —

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار (أوائل يونيه سنة ١٢٢٦) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، بيد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصارى ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبى العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفى الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة فى أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦م (أواخر سنة ٦٢٣ هـ) .

وجاء بعدئذ دور بيّاسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسى ، أن مصير بياسة غدا فى كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسى لتعهداته ، فلما قتل البياسى ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصارى من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيّان عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم فى بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالى ، ودخل المدينة ، وكاد بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصارى ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لحصانتها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالى الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصارى بالقصبة لإرغامهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤنهم من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فوره ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إنى ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معى فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبق ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى فى أيدى النصارى ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ (أول ديسمبر سنة ١٢٢٦م) ووهب فرناندو الثالث الفرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها[١] .

وفى العام التالى استولى فرناندو الثالث على شوذر[٢] الواقعة جنوبى بياسة ، وعلى عدة من الحصون المجاورة ، وأخرج من بقى من المسلمين فى بياسة ومرتُش وغيرهما من القواعد والحصون التى استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسى ، بأكبر غنم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة فى منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك فى خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التى كان الاستيلاء عليها من أعز أمانيهم .

وكان السيد أبو العُلى (أبو العلاء) إدريس ، منذ حلّ بقرطبة عقب مصرع البياسى ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى فى تلك المنطقة ، فسار فى بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتنقذها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلى أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٤ هـ — ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلى باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضى الإسلامية ، سعى إلى عقد الهدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقى بعد ذلك[٣] .

— ٥ —

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الأليمة فى عهد الخليفة العادل ، مانسجله

---

(١) الروض المعطار ص ٥٨ و ٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid, p. 52 .

(٢) وهى بالإسبانية Jodar .

(٣) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina, p. 65 .

من الأحداث فى عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب حبل الأمن ، وازدياد الفوضى ، وتوالى عيث العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيما هسكورة ، فى الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بنى مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحى والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازى ومكناسة ، وذلك لكى يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث فى تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الخُلط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث فى نواحى مراكش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم فى البداية ابن يوجان فلم يستطع شيئاً ، فوجه إليهم العادل عسكراً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيث على حالها (٢) .

وبينما المغرب يجوز فى ظل العادل ، هذه الفترة المدلهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبى العلى والى إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة فى إشبيلية ، وذلك فى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٤هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م) . ولم يتخذ السيد أبو العلى قراره ارتجالا ، بل مهد إليه بالسعى والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسبر غورهم أولا ، فاتفق مع قاضى المدينة ، أبى الوليد بن أبى الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك فى أواخر شهر رمضان ، أن ينشىء خطبة بليغة يلقيها فى يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى مايجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضى خطبته حسبما اتفق ، وأطنب فى ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفى اليوم التالى ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبى العلى ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبايعه على أثر ذلك بعض ولاة الأندلس ، وفى مقدمتهم السيد أبو زيد والى بلنسية ، وبعثوا ببيعاتهم إليه . وكذلك بايعته من أنحاء العدوة سبتة وطنجة (٣) .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بمالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أبى زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور(١).

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوه إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلْط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراكش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعة المأمون(٢). ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا بيعتهم إليه(٣) . على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراكش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هتاتة ، ويوسف بن على شيخ تينملّل . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلط وهسكورة ، اتفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتلوه ، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة تفور بالماء ، وشنقوه بعمامته حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخُطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر(٤).

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدوا البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٧٣) ج ١ ٤١١ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤ ديرنبور) لوحة ٥٤ .

(٢) الروض المعطار ص ٦٩ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٦ و ١٦٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و ١٦٧ .

عنه إلى ابن عمه (والصحيح ابن أخيه) ، أبى زكريا يحيى بن الناصر[١] ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ماحدث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها[٢] .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر. ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال أعنى فى نفس اليوم الذى قتل فيه العادل[٣]، وهذا ما لايتفق مع سير الحوادث، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأنا نؤثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت فى اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ[٤]، أعنى بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذى اجتنى ثمرة الجريمة ، وليس أخو الخليفة المقتول، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبى زيد بن يوجان، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الخُلط وهسكورة على الاستمرار فى عيثهما[٥] .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فتى حدثاً فى السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الخُلط ، وقبيلة هسكورة ، وبقيا على ولائهما فى بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط سخطاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل فى الأهبة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدوة، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته .

بيد أنه يجب قبل أن نتتبع مصاير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهده من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكى نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

---

(١) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١١ .
(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٦٥ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٥٣ .
(٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .
(٥) الروض المعطار ص ٦٩ و ٧٠ .

الفصل الثالث

عصر الخليفة أبي العــلى المأمون

إلغاء رسوم المهدى ابن تومرت

وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون . عبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المعتصم . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراكش. فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره المرة الثانية . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدى وإعلانه بطلان دعوته . كتابه فى ذلك . رواية أخرى عن إزالته الدعوة المهدية . ماكان يجيش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيستهم فى مراكش . إفريقية تحت ولاية الشيخ أبى محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبى محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدى يعين أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسحاق بن غانية . نهوض السيد أبى العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبى زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبى زكريا لحكم قابس ، وأخيه أبى ابراهيم لحكم توزر . تأثل هيبة الشيخ أبى محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية للعيث فى شمال إفريقية . اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبى محمد لمطاردته . مسيره صوب أحواز سجلماسة . استعراض لمغامرات بنى غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهيار أحلامهم . الأعوام الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبى محمد عبد الله عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبى زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبى محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك . استدعاء الأشياخ لأبى زكريا واعتقال أبى محمد. مسير أبى زكريا إلى تونس. تعيين المأمون لبعض العمال الجدد. غضب أبى زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبى زكريا فى الحكم. خلع طاعة بنى عبد المؤمن واستقلال إفريقية . استيلاء أبى زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين . قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال بلاط مراكش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . السيد أبو موسى والى سبتة يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة فى منطقة فازاز . مسير المأمون لمقاتلة الثوار . تفرق الثوار ومسير المأمون إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبى موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لابن هود . اقتحام يحيى لمراكش . احراقه لكنيستها وقتله النصارى . عود المأمون ووفاته فى الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة ولده الرشيد . مسير جيش المأمون إلى مراكش . امتناعها واستعدادها للقاومة خشية انتقام الجند النصارى . صدور ظهير الرشيد بتأمينها . دخوله المدينة . تعويض النصارى افتداء المدينة . الخليفة أبى العلى المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . وزراؤه وكتابه . شخصه وأولاده .

لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق فى التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هى العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد ابن أخيه يحيى ، ومعاقبة الناكثين لبيعته . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات والى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبى زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدوم[1] .

على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس فى أواخر سنة ١٢٢٨ م (أوائل سنة ٦٢٦ هـ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزه من فتن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطالب إليه فى نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التى اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهى أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية فى منطقة الحدود يختارها بنفسه ؛ وأن تُبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون فى أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ فى قيمة العون الذى قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه بجيش كثيف من إثنى عشر ألف فارس من النصارى ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدوة ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون فى شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدوة على هذا النحو[2] ، وفى هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، والجيش القشتالى كله لم يكن يضم فى كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان . والحقيقة التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية . هى أن ملك قشتالة لم يمد المأمون

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس[1] . وهذا هو بالذات مايقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدوة : « فحشد الحشود ، وزم الجنود، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم، لما كان يبغي من الحركة ويروم»[2]. ويكتفي ابن الخطيب بأن يصف هذه القوه التي أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها « جمع من فرسان الروم »[3] .

وعبر المأمون البحر في حشوده من الموحدين والعرب والقشتاليين ، ولم يترك بإشبيلية وباقي القواعد الأندلسية الباقية على طاعته، سوى بعض الحاميات الضئيلة . وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة٦٢٦هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٨م) . فأقام في سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى غزوته المنشودة . ثم سار في قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه الخليفة الفتى يحيى بن الناصر وأشياخ الموحدين الموالين له ، حينما بلغهم عبور المأمون إلى العدوة ، قد استعدوا للقائه . وخرج يحيى في قواته من العرب ، والموحدين، لرد المأمون، وكان اللقاء على جبل إيجليز ، على مقربة من مراكش، وذلك في اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ (يناير١٢٢٩ م)، فهجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هنتاتة . ودخل المأمون حضرة مراكش، فبادر أشياخ الموحدين إلى بيعته، واستقر في كرسي الخلافة[4].

وكان أول عمل قام به المأمون، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته، ولاسيما من أشياخ هنتاتة ، وتينملل ، ولجأ في ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان ،فهرع معظمهم للسلام عليه ، ولما تم اجتماعهم، استحضر خطوطهم وبيعاتهم، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم ، ونكثهم المتكرر ببيعاتهم ، وذلك بحضرة القاضي الفقيه المكيدي ،وكان قد حضر معه من إشبيلية، ثم خاطب القاضي بقوله: « ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً ، ثم نكثوا عليه وخلعوه ، ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلى ثم نكثوا

---

(١) J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia p. 69, Nota 14

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة (القاهرة ١٩٧٣) ج ١ ص ٤١١ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص٢٥٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

أيضاً على » فقال القاضى : « وجب عليهم القتل أجمعين» وتلا الآية : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر فى حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقى منهم بمراكش ، حتى فنى معظمهم ، وتضاءلت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوى ، الذى لبث ، منذ أيام المهدى ، يأخذ بأكبر نصيب فى توجيه مصاير الدولة الموحدية[1] .

وفى شهر رمضان من هذا العام (٦٢٧ هـ) خرج المأمون من مراكش لبرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، فوقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى فى فلوله إلى بلاد درعة وسجلماسة ، وعلق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة فى المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحراز لايصلح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين[2] .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أضحت فى نظره عتيقة بالية . وقد تذرع فى تنفيذ خطته بمنتهى الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون فى الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرم النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلاده بإزالة اسم المهدى من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من المخاطبات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصليت الإسلام » « وسودود » و« ناردى» « وأصبح ولله الحمد » وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع فى كتابه الرسمى ، الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدى وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه» . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذى يعتبر صدوره حدثاً حاسماً فى تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

---

(١) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١١ .
(٢) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم عملا منقاداً ، وسعداً وقاداً ، وخاطراً سليما ، لا يزال على الطاعة قائماً مقيما ، من مراكش كلأها الله تعالى ، وللحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ، وقضاء لايرد ، وباب لايسد ، وظلال على الآفاق لمحو النفاق بعد ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أنا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لامهدى إلا عيسى بن مريم ، وما سمى مهدياً إلا أنه تكلم فى المهد ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التى تقلدناها . وقد أزلنا لفظة العصمة عمن لاتثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبت ، وتمحى ولاتثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للامة الخرق الذى رقعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجّله إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، إنهم فى المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » والسلام على من اتبع الهدى واستقام »[1] .

وفى رواية أخرى هى رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد أن دخل مراكش وبايعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب الناس ، ولعن المهدى ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وانا قد نبذنا أمره النحيس به ، ثم أصدر مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدى من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدى ، وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ (١٩٧٣) ص ٤١١ ، و٤١٢ .

وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم[1]. بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولا إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثورى حدث فى أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطلان أحداث الأسطورة التى مثلت فى جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنى عشرة عاما ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدى المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدى مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون فى الواقع ، وحسبما يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ فى وقته على المجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم تترتب عليه أية معارضة أوبوادر انتقاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها[2] .

وأذن المأمون فى نفس الوقت لحلفائه النصارى القادمين معه ، فى بناء الكنيسة بمراكش ، وهى التى اشترط ملك قشتالة إنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة فى العاصمة الموحدية[3] .

— ١ —

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة فى عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

الميورقى فى إفريقية ، واشتد عيثه بها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يمحى فى ذلك الركن من إمبراطوريتهم الشاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله فى الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة فى موقعة جبل رأس تاجرا فى سنة ٦٠٢ هـ ، وانتزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأميناً لإفريقية ، وتوطيداً لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص بن عمر الهنتاتى ، وهو الظافر فى معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبومحمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ فى ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للميورقى ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين . وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفى الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشئومة بقليل ، فى اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد فى تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحيط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعى الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حينما قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحى ، أن ندب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسهر منها على حركات الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك فى أن هذا التعيين لم يكن محلا لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتئاتا على حقوقه وسلطانه[١].

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبى العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبى محمد ببضعة أشهر ، فى أواخر سنة ٦١٨ هـ ، وأنه عين خلفاً للشيخ . ومما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ما كاد يتولى

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٣ و ٢٧٤ .

منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ،محمد بن أحمد بن النجيل، وأخويه أبى بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بتهمة تآمرهم على سلامة الدولة ، ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى (١) .

وتوفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس فى مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ (٨ مارس سنة ١٢٢٠ م) ، بعد أن لبث نيفاً وأربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاريب أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقية ، وأمضاهم عزماً ، وأوفرهم شجاعة وجرأة ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر فى تحطيم ثورة بنى غانية، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين.

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى فى أمر من ولى حكم إفريقية عقب وفاة الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى، إن ابنه أبا محمد عبد الله هو الذى خلفه فى منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبى العلاء إدريس (٢) ، وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية، وهو أن الذى خلفه فى منصبه هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر.

وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن نتيجتين فى منتهى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول مجرى الحكم فى إفريقية .

— ٢ —

وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، ما كاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ أبى محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ فى التحرك من منفاه السحيق فى الصحراء، وكان قد لزم ودّان وأحوازها ، منذ هزائمه الفادحة على يد الشيخ أبى محمد ، ولبث هنالك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ، سار فى الصحراء نحو الشمال ، وعاث فى بلاد الجريد ، فنهض السيد أبو العلاء فى جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العروسين، حتى لاتسقط فى يد الثائر ، وبعث ولده السيد أبا زيد فى قوة إلى درج وغدامس ، وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 164

(٢) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية فى جمعه من الملثمين والأعراب إلى جهة الزّاب ، فسار السيد أبو زيد فى أثره ، ونجح ابن غانية فى الوصول إلى الشمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبى قسنطينة، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانتزعها منه، وفر ابن غانية فى حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد فى عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هوارة ، ونشب بين الفريقين فى مكان يسمى مجدول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتلأت أيدى الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣ م) . وفر ابن غانية فى فلوله نحو الجنوب مرة أخرى، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب الفرص السانحة[1].

وعلم السيد أبو زيد على أثر الموقعة بوفاة أبيه السيد أبى العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه فى الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبى زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبى محمد عبد الواحد المخلوع ، الذى تولى الخلافة ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبى زيد للإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبى العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بقى على حاله مكان أبيه فى ولاية افريقية، ينظر بالأخص فى تدبير الشئون وجباية الأموال . ولكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد فى معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبى محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد فى منصبه حتى توفى الخليفة أبو محمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن ابراهيم بن اسماعيل الحفصى ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلى الذى اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبو محمد قليلا فى بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحيانى[2] ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و١٩٧ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك : A. Bel : ibid; p. 167.

(٢) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١) .

ليمهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة سنة ٦٢٣هـ (نوفمبر سنة ١٢٢٥ م) فى مواكب حافلة ، واستقر فى منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبو محمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمة ، وأخاه الأمير أبا ابراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطيلة[1] ، وتمكن بذلك سلطان بنى حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبى محمد ، وحكمه العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالمحبة والولاء من سائر الناس .

وفى تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو فى مثواه بالصحراء ، يجد فى تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب الفرصة للقيام بضربة جديدة ؛ وفى أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال فى اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل فى منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف فى سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسره ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبو محمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعيثه ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٤هـ ، فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوّارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهدية . ثم سار فى أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية فى تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربى ، واستمر فى مسيره حتى وصل إلى أحواز سجلماسة ، فترك الشيخ أبو محمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ[2] .

ومن ذلك الحين ، تغيض أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما فى متابعة ذلك الصراع المرير ، الذى بدأه أخوه علىّ ضد الموحدين ، فى إفريقية ، والذى اتخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

---

(١) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 174

الشرقية مثوى بنى غانية ، ونأيها عن مركز الحكومة الموحدية، وثرواتها الطائلة ، مسرحاً له ، والذى كانت تحدوه فى البداية مثلٌ سياسية وقومية ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر المجن ، فانتزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثوى أسرته وموئل سلطانها ، ومستودع مواردها ، وذلك فى سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقى هزيمته الحاسمة فى موقعة جبل تاجرا فى سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضاءل موارده ، فإنه لم يخبُ لهعزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر فى نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذى كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية فى إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ، بيد أنه لم يك شك أيضاً فى أن هذه الضربات المتوالية ، التى أنزلها على بن إسحاق بنغانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم فى إفريقية، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملا من أهم العوامل التى اجتمعت فى تلك الفترة ، لتمهد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصحب والجند ، حياة شريد لايستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير افريقية ، وكان عندئذ أبازكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك فى مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجند للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها فى بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل فى غاراته شمالا حتى وادى شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة عاتية ، ولم يكن يلتف حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخلصين ، ولم يكن له أهل ولاولد ، بعد أن مات أخوته وولداه فى ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات ، وكان فى هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التى نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى فى نفس الوقت أنه لم يجن من صراعه وصراع أسرته

الذى استطال خمسين عاما ، أية نتائج مادية ، وأن علم الدولة المرابطية الذى حاول أن يرفعه سوف يخبو بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفى يحيى ابن اسحاق بن غانية ، وهو فى محلته على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك فى سنة ٦٣١هـ أو سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٤م) ودفن هنالك ، ثم عفى أثر مدفنه .
قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانقرض أمر الملثمين من مسّوفة ولمتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض ، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحيى بعث قبيل وفاته ببناته إلى الأمير أبى زكريا ليعشن فى كنفه ، فأكبر الأمير الحفصى حسن ظنه ، وأحسن كفالتهن ، وابتنى لصونهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها فى عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفين عانسات معمرات ، ولم يقبلن الزواج من أحد [1] .

— ٣ —

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثانى الذى ترتب على فاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى افريقية ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦١٨هـ .
وقد رأينا فيما تقدم أن الذى خلف الشيخ أبا محمد فى ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف فى تاريخ هذه الولاية وكيفية وقوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أى فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً فى ولاية إفريقية ، مذ حل بتونس فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ ، وكان الذى قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل ، بعد مصرع سلفه الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، وجلوس الخليفة الفتى يحيى المعتصم على كرسى الخلافة : مكانه فى شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبى العلى بن المنصور بالأندلس ، والدعوة لنفسه باسم المأمون ، وجوازه إلى العدوة ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحيى المعتصم ، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعمق وقع فى إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبى محمد عبد الله والى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبي زكريا يحيي أخي السيد أبي محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبي محمد ، فبادر أبوزكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبومحمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبي زكريا ، خرج في عسكره من تونس، فلما وصل إلى القيروان جمع أشياخ الموحدين ونبأهم بما اعتزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتذروا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لحبهم للأمير أبي زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبومحمد على رأيه ونهرهم، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبي زكريا ينبئونه بما حدث ، ويستدعونه إليهم ، فقدم أبوزكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقبض على أخيه أبي محمد، وحمل محروساً إلى تونس؛ وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاخر . ودخل الأمير أبوزكريا تونس في اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٢٥هـ ، وأمر في الحال بالقبض على أبي عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل، ثم بعث بأخيه أبي محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبوزكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فثار لذلك أبو زكريا ، وصرفهم ، وخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيي المعتصم . وكانت هذه أول خطوة في استقلال إفريقية[1].

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبي زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال في البلاط الموحدي ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أبا محمد عبد الله في وجوب خلع طاعة الخلافة المؤمنية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أبا زكريا بداره ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهنالك تفاوض مع شيخها ابن بكي ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، واتفقوا معه على التنفيذ ، متى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الجند ببركاتهم ، فتلكأ في الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم في صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الجند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى

---

(١) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٧ .

كاد يهلك ، ففر أمامهم ، وعفّ الجند عن قتله إكراماً لأخيه ، وقصد عبد الله إلى مراكش ، وفى الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وبايعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراءه وكتابه . وأبقى أبو زكريا فى البداية ذكر الإمام المهدى ، فى الخطبة وغيرها من المراسيم[1].

وتمت هذه الخطوة الأولى فى استقلال إفريقية فى أول سنة ٦٢٧ هـ (نوفمبر ١٢٢٩ م) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بنى عبدالمؤمن ، وتسمى أولا بالأمير وجعل ذلك اللقب فى صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرمى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها وأراضيها ، فقد بادر فى العام التالى (٦٢٨ هـ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياما ، وانتهى الأمر بأن مُكن من دخولها ، فدخلها وقبض على واليها الموحدى ، وولى عليها عاملا من قبله ، ثم سار إلى بجاية فافتتحها ، وقبض على واليها الموحدى أبى زكريا عمران ، وبعث بالواليين المقبوض عليهما إلى المهدية ، وبعث بأهلهما وأولادهما فى البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب الموالين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهدية ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بنى حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقى . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبوعبدالله اللحيانى ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبدالله والى إفريقية السابق ، فقد لقى مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفى يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣ هـ دعى فى الخطبة للأمير أبى زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصراً على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمير المؤمنين[2].

وهكذا قامت بإفريقية ، أحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة ، هى الدولة الحفصية ، نسبة للأسرة التى أنشأتها وحكمتها ، وهم بنو حفص ، أبناء الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وقد كان أبوحفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدى العشرة ، وكان زعيم هنتاتة أقوى قبائل مصمودة ، وهو الذى مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدى ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلائل الأمور فى سنة

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ .
(٢) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٨ ، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ هـ[1] ، وكان لولده الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس ، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى ، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ما كان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية ، وما كان من اضطلاعه بولاية إفريقية ، فى أحرج الظروف وأدقها ، وماوفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها .

وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملا جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراكش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولا ، بما يدور حول كرسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، ومايقوم به بنو مرين من استطالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، ومايضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

— ٤ —

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى ، بفحص واونزرت على مقربة من مراكش ، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧هـ ؛ ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدى ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ ، وجّه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ، والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولا من كتابه المشار إليه ننقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع وندع ، وتتبع السنن المشروعة ، ونذر البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغبها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع »[2] .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ؛ وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣١١ .
(٢) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٣ ، و٤١٤ .

وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبذ البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه فى مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد فى الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولى أخاه السيد أبا موسى حكم ثغر سبتة ، فنى سنة ٦٢٩هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفى نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاته ، قد جاهرت بالعصيان ، وعاثت فى منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراكش يريد تأديب القبائل الثائرة أولا ، ثم يسير إلى سبتة ثانيا ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ،وعادوا إلى جبالهم ، وسار هو فى صحبه القليل إلى منطقة درعة وسجلماسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل الثائرة بالتفرق والفرار ، وعندئذ استمر فى سيره إلى سبتة ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشىء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . وفضلا عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمده ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضربها بالمجانيق كل يوم ، دون أن يلحقها شىء من الضيق أوتقع ثلمةفى أسوارها ، أويهدم شىء من دورها ، وربما كان فى عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حيناً آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه فى الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراكش فى يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبتة حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبتة ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبتة بحليفه ، وقائده السابق الغشتى والياً لها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرجهأهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتي ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك فى سنة ٦٣٠ هـ[1] .

وكان يحيي المعتصم قد انتهز غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هنتاتة ، وسار إلى مراكش ، واقتحمها عنوة، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل وسبى الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصار سبتة ، فرفع الحصار من فوره ، وارتد فى قواته منصرفاً صوب مراكش ، وذلك فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٦٢٩هـ ، وهو يعتزم أن ينكل بيحيى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا سخطاً لما حل بكنيستهم ومواطنيهم ، أن يطلقهم على مراكش ثلاثة أيام يتصفوا فيها لأنفسهم. ولما وصل المأمون إلى وادى العبيد ، الفرع الشمالى لوادى أم الربيع ، مرض وتوفى فجأة ، وذلك فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكتمت زوجه حبابة الرومية ، وهى أم ولده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفى اليوم التالى وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢م)، اجتمع الأشياخ والقادة واتفقوا على بيعة ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة، وكان فتى فى الرابعة عشرة من عمره . وأذيع فى المحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لايستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون فى تابوت وضع فى هودج ، وسارت الجيوش أمامه وهى على أهبها للقاء يحيي المعتصم[2].

ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراكش ، خرج إليها يحيي المعتصم فى قواته من الموحدين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيي ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون فى مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراكش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألفت الحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكان واليها من قبل يحيي ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

---

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ و٢٥٤ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٧ .

عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أبي سعيد ، وكان أهل مراكش قد ترامى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيح المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم ليحيى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا مقدم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحمل هذا الظهير القاضي أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه واليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الخليفي ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضي وأصحابه ومعهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حبابة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التي وُعدوا باستباحتها ، وافتدائها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار[١] ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شيء لدخول الخليفة الفتيّ إلى حاضرته .

— ٥ —

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلاله .

كان أبو العُلى (أو أبو العلاء) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب المنصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخير انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة في منازعات وحروب متوالية ، لم يفق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هي التجاؤه إلى النصارى لتحقيق مشروعه في انتزاع الخلافة . ولكنها

---

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطة العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالقة سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأمه حرة هى صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور فى صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً فى اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبى داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدراً ، بارعاً فى الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويجمل ابن الخطيب صفاته فى قوله : « كان رحمه الله شهماً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، لبيبا ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبيا ، جواداً ، حازماً »(١) . بيد أنه كان فى نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف فى استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلا ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أندوجر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لجنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . ، وقاهم الله عثرات الألسنة ، وأرشدهم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قبلكم كتابكم الذى جدد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعتذرون من المحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذاً نلحقكم بربات الحجال ، كأنا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء منقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشممتم ريح الموت ورداً وصدراً ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن الفضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شىء ، فتخيلتموه طلائع الكتائب ، تباً لهمتكم المنحطة ، وشيمتكم الراضية بأدون خطة . أحين

(١) الإحاطة (١٩٧٤) ج ١ ص ٤١٠ .

ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم، نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة، لقد آن لكم أن تبدلوا جل الخرصان، إلى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول، وإنما على الغانيات جر الذيول، أتظهرون العناد تخريصاً، بل تصريحاً وتلويحاً، ونظن أن لايجمع لكم شتاً ولايدنى منكم نزوحاً. أين المفر وأمر الله يدرككم، وطلبنا الحثيث لايتركم، فأزيلوا هذه النزعة النفاقية من خواطركم، قبل أن نمحوا بالسيف أقوالكم، وأفعالكم، ونستبدل قوماً غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم»[1].

ومن نظمه قوله عند ظفره بخصومه الناكثين بيعته، وقتلهم وتعليق رؤوسهم:

أهل الحرابة والفساد من الورى ... يعزون فى التشبيه بالذكار

فقساده فيه الصلاح لغيره ... بالقطع والتعليق فى الأشجار

ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو ... فوق الجذوع وفى ذرى الأسوار

لو عم عفو الله سائر خلقه ... ماكان أكثرهم من أهل النار

ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر، وكتب له عدة من أعلام البلاغة في ذلك العصر، مهم أبو زكريا الفازازى، وأبو المطرّف بن عميرة المخزومى، قطب البلاغة بالأندلس يومئذ، وأبو الحسن الرُّعينى، وأبو عبد الله ابن عيّاش، وأبو العباس بن عمران، وغيرهم[2].

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون، معتدل القامة، جميل المحيا، أكحل العينين، فصيح اللسان، حسن الصوت والتلاوة[3].

وترك المأمون عدة من البنين هم، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولى عهده والخليفة من بعده، وعبد الله، وعبد العزيز، وعثمان، وأبو الحسن علي، الملقب بالسعيد، والوالى بعد أخيه الرشيد، وترك كذلك عدة من البنات، وأمهات الجميع روميات وسريات مغربيات[4].

---

(١) وردت هذه الرسالة فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٦ و ٢٦٧، وفى الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٤، و ٤١٩.

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣، والإحاطة ج ١ ص ٤١٧.

(٣) روض القرطاس ص ١٦٦.

(٤) البيان المغرب ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب
موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (العصر الأول)
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (العصر الثانى)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (العصر الثالث)
نهاية الأندلس (العصر الرابع)
الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال

* * *

ابن خلدون - حياته وتراثه الفكري
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
تاريخ الجامع الأزهر
مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري
لسان الدين بن الخطيب
تراجم إسلامية
الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٤ جزء)
ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب للسان الدين بن الخطيب (٢ جزء)
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف شباخ (٢ جزء)

* * *

رقم الإيداع ٢٠٠١/١١٦٨٦

I.S.B.N. 977 - 01 - 7340 - 1